الجزء الأول

الباب الأول

التاريخ بصفته تجارب عملية

" يقول الحمق من الناس انهم يتعلمون بالتجاريب . أما أنا فأفضل أن أتعلم من تجاريب غيرى " . هذا القول المشهور المعزو الى "بسمارك" وان لم يكن هو مبتكره ، له أثر خاص فى المسائل الحربية . فلقد قيل وأعيد القول ان الجندى ، بخلاف أرباب المهن الأخرى ، ليس لديه من الفرص التى تمكنه من ممارسة مهنته الا ما ندر . بل وقد يزاد على ذلك قولهم ان مهنة الجندى ، اذا روعى المعنى المفهوم من كلمة مهنة ، ليست مهنة مطلقا بل هى مجرد " استخدام عرضى " . ومن الألغاز أنها بطلت أن تكون مهنة فى الوقت الذى حل فيه " الجندى المحترف " محل الجندى المغامر — حينما استعيض عن الجنود الذين كانوا يستخدمون بأجر مدة الحرب ، بجيوش مستديمة تتقاضى رواتبها حتى فى غير أيام الحرب .

وهذا الجدل المنطقى وان كان فيه شىء من التطرف ، يعيد الى الذاكرة العذر الذى كانوا يحتجون به مرارا فى الأيام السالفة فى اعطاء الضباط مرتبات لا تفى بحاجاتهم . كما كان يحتج به بعض الضباط فى تأدية عملهم اليومى ناقصا عن المعتاد — بحجة أن مرتب الضابط ليس أجرا لعمل انما هو أجر " ارتباط " حتى ينتفع بخدمته فى حالة الحرب .

واذا كان الزعم — بأن " مهنة الجندية " لا وجود لها بالمعنى الصحيح — لا يجد ما يؤيده فى أيامنا هذه من وجهة الأعمال الا أنه من وجهة الممارسة يجد تأييدا قويا لا مفر منه ، فى ندورة الحروب . وعلى ذلك فهل نستنتج منه أن الجيوش صائرة تدريجيا الى أن تصبح جيوش " هواة " بالمعنى الدارج البغيض لهذه الكلمة التى أسىء استعمالها ؟ لأن المشاهد ان تدريب زمن السلم حتى أحسنه لا يخرج عن كونه " نظريا " أكثر منه ممارسة " عملية " .

على أن القول الحكيم الذى قاله " بسمارك " يلقى على هذه المسألة ضوءا مغايرا لذلك فيه تشجيع . اذ يساعدنا على ادراك أن هناك صورتين للممارسة العملية احداهما مباشرة والأخرى غير مباشرة . وأن الممارسة العملية غير المباشرة قد تكون أعظم قيمة من الأخرى لاتساع نطاقها اتساعا لا حد له . لأن فى الحياة العملية حتى أكثرها نشاطا ، وعلى الخصوص حياة

الجندى، تكون دائرة الممارسة المباشرة وما يتخللها من الاحتمالات محدودة الى درجة متناهية. وعلى نقيض مهنة الجندية مهنة الطب فان هذه لديها من الممارسة ما لا ينقطع سيله، ومع ذلك فان جلائل الأعمال كان الفضل فى ظهورها يرجع عادة الى من يعملون فى البحث والاستقصاء لا الى الأطباء الممارسين الذين يتعاطون مهنتهم بوجه عام.

ثم ان الممارسة المباشرة محدودة بطبيعتها الى درجة يتعذر معها تكوين أساس ثابت تبنى عليه النظريات أو يقوم عليه تطبيقها. فهى فى أحسن حالاتها توجد جوا صالحا له قيمته فى ترسيخ بناء أفكارنا وتقويته. أما قيمة الممارسة غير المباشرة، التى هى أعظم من تلك، فهى فيما تتناوله من التغير واتساع النطاق اذ هما فى هذه أعظم مما فى تلك. "والتاريخ هو تجارب عامة" — أى تجارب الغير الكثيرين فى ظروف متنوعة، لا تجارب فرد واحد.

وهنا نجد مبررا معقولا للتاريخ الحربى من حيث قيمته التى لا تعادلها قيمة أخرى فى تدريب الجندى وتوسيع مداركه. على أن الاستفادة تتوقف، كما فى كل أنواع التجارب، على درجة اتساعها، وقربها من التعريف المسار بيانه، وعلى طريقة الدراسة.

ثم ان رجال الجندية يسلمون بالاجماع بما فى القول المأثور عن نابليون من الحقيقة وهو أن فى الحروب "نسبة القوة المعنوية الى القوة المادية كنسبة ثلاثة الى واحد". فالنسبة الحسابية قد تكون عديمة القيمة لان القوة المعنوية عرضة للتدهور اذا كانت الأسلحة ليست على ما يرام. كما أن قوة الارادة مهما سمت لا تجدى نفعا وهى فى جثة هامدة. غير أنه ولو أن العاملين الأدبى والمادى متلازمان لا ينفصلان فان هذا القول المأثور تبقى له قيمته الأبدية لأنه يعبر عن فكرة تفوق العوامل الأدبية فى كل القرارات الحربية. لأن العوامل الأدبية هى المحور الذى تدور عليه نتيجة الحرب بأجمعها ونتيجة المعركة. والعوامل الأدبية فى التاريخ هى العوامل الثابتة دون غيرها، ولا تتغير الا فى درجتها. فى حين أن العوامل المادية تختلف اختلافا أساسيا فى كل حرب وفى كل موقف بوجه التقريب.

وادارك ذلك يؤثر على المسألة بأجمعها الخاصة بدراسة التاريخ الحربى للانتفاع به عمليا. وقد كانت طريقة الدراسة فى بضع الأجيال الماضية تنطوى على اختيار حملة حربية أو حملتين ودراستهما دراسة متعمقة كوسيلة لترقية مداركنا والتوسع فى نظرية الحرب. على أن التغيير المستمر الذى طرأ على وسائل الحروب من حرب الى أخرى فيه خطر جسيم بل محقق يفضى الى تضييق دائرة آمالنا ويجعل ما نتلقاه من الدروس قائما على قياس باطل. فالعامل الوحيد الثابت فى دائرة الماديات هو أن الوسائل والظروف لا ثبات لها بل تتغير دائما.

وعلى العكس من ذلك فان الطبيعة البشرية لا تتغير الا شيئا يسيرا من وقع الأخطار عليها. فقد يكون بعض الناس أقل احساسا من غيرهم بطبيعة أجناسهم، أو بفعل المحيط الذى يعيشون فيه، أو بما يتلقونه من التعليم والتدريب. على أن الفرق بينهم ان هو الا فى الدرجة

وليس فرقا أساسيا . وكلما انحصرت دائرة الموقف ودائرة دراستنا زادت حيرة العقل وأصبحت درجة الفرق لاتقاس . وقد تحول دون حساب مقدار المقاومة التى تبديها الجنود فى أى موقف . ولكنها لا تؤثر على الحكم بأنهم يبدون مقاومة فى حالة مفاجأتهم أقل من المقاومة التى يبدونها وهم متيقظون — ويقاومون وهم متعبون وجياع أقل مما يقاومون وهم مستريحون ولاينقصهم الغذاء الجيد . فكلما اتسعت دائرة دراسة علم النفس حسن أساس الاستنتاج .

وتفوق النفسية على الطبيعة الجثمانية وكون الأولى أكثر ثباتا من الثانية يؤديان الى استنتاج ان أساس أية نظرية عن الحرب يستلزم أن يكون متسعا ما أمكن . فدراسة حملة حربية واحدة دراسة عميقة ، ما لم تكن مؤسسة على علم واسع بكل تاريخ الحرب ، قد تؤدى بنا الى مواطن الزلل ، كما أنها قد تؤدى الى ذروة المغانم الحربية . ولكن اذا شوهد أن نتيجة بعينها تتبع سببا بعينه فى عشرينات من الحالات فى أزمنة مختلفة فى ظروف شتى ، اذن لكان هناك مبرر يبرر اعتبار أن ذلك السبب هو جزء متمم لأية نظرية فى الحرب .

فهذا الكتاب ، كالموضوع الذى يبحث فيه ، عبارة عن محصول ذلك التنقيب " الواسع " ويصح تسميته النتيجة المركبة لأسباب معينة — وهذه الأسباب لها صلة بعملى كمحرر حربى فى " دائرة المعارف البريطانية " . فمع أنى قد بحثت ونقبت فيما مضى فى مختلف عصور التاريخ ، وكثيرا ما كان ذلك رغم ميولى . ثم ان المساح الذى يمسح الأراضى ويشرف عليها ، بل والسائح الذى يجوب البلاد يكون بطبيعة الحال ملما بصورتها المنظورة أكثر من غيره وفى استطاعته أن يعرف أوضاعها العامة على أقل تقدير فى حين أن مهندس المناجم لا يعرف الا الطبقة الأرضية التى يبحث عنها .

ففى أثناء هذا الاطلاع العام تكونت فكرة أخذت تزداد ثبوتا على مدى البحث — تلك هى أنه فى كل العصور لم يتوصل الى النتائج الحاسمة فى الحروب الا متى كان الاقتراب الاستراتيجى اقترابا غير مباشر . وبعبارة أخرى انه فيما يختص بالاستراتيجية كلما كان الطريق طويلا ملتويا كان الوصول الى الغرض أقرب .

وقد أثبت الواقع المرة بعد المرة أن الاقتراب المباشر سواء أكان من غرض عقلى يقصده الانسان بتفكيره ، أم من غرض مادى بأن يحصل الاقتراب على طول " خط الانتظار الطبيعى " من وجهة نظر الخصم (أى الخط الذى يتوقع الخصم أن يتبعه المقترب) . كان من شأنه أن يؤدى ، بل وقد أدى فعلا ، الى نتائج سلبية . والسبب فى ذلك قد عبر عنه نابليون بصورة واضحة فى قوله المأثور " ان نسبة القوة المعنوية الى القوة المادية كنسبة ثلاثة الى واحد " . وقد يعبر عنه بطريقة علمية بأن يقال بينما ان قوة أى بلاد معادية تنحصر مظاهرها

فى عدد سكان هذه البلاد وفى مواردها الا أن عدد السكان والموارد يتوقفان بصفة أساسية على درجة استقرار أى "توازن" السيطرة ، والقوة الأدبية ، وكفاية المؤن واللوازم. فسكان البلاد ، والموارد ليست الا بمثابة اللحم الذى يكسو الهيكل العظمى والأعصاب .

فان التحرك على طول الخط المنتظر بطبيعة الحال ، أى على طول خط الانتظار الطبيعى معناه توطيد توازن الخصم ، واعطاء هذا التوازن صلابة معناه زيادة قوة مقاومته . ففى الحرب ، كما فى المصارعة ، محاولة المرء القاء خصمه على الأرض قبل زحزحة مواطئ قدميه واخلال توازنه لا تؤدى الا الى انهاك قوة المرء بنسبة عكسية لما يحدثه على الخصم من التأثير. واحراز النصر بمثل هذه الطريقة لا يتيسر الا اذا كان المرء متفوقا فى القوة بدرجة كبيرة جدا فى أى صورة من صورها (أى القوة) . وحتى حينذاك يبقى النصر عرضة لئلا يكون حاسما . وعلى العكس من ذلك فان مراجعة التاريخ الحربى ، لا فى فترة واحدة من فتراته بل مراجعته بأجمعه تدل على أن الواقع هو أن فى كل حملة من الحملات الحربية الحاسمة كانت زحزحة توازن العدو من الوجهتين النفسية والمادية هى المقدمة الحيوية للمحاولة الناجحة فى التغلب عليه . وأن هذه الزحزحة قد حصلت كنتيجة لاقتراب استراتيجى غير مباشر، مقصودا كان أو عرضيا . وهى قد تكون على أشكال متنوعة كما يظهر من تحليلاتنا . لأن استراتيجية الاقتراب غير المباشر تشمل — ولكنها أوسع من " المناورة على المؤخرة " Manœuvre sur les derriére التى دلت الأبحاث المستفيضة التى قام بها الجنرال " كامون " على أنها كانت مطمح أنظار نابليون دائما ومفتاح طريقته فى ادارة العمليات . ففى حين أن أبحاث "كامون" قامت على مبادئ التحركات اللوجستيكية (نسبة الى طريقة حسابية خاصة تسمى طريقة القياس الستينى) — عواملها الزمان ، والمسافة ، والمواصلات — فان تحليلاتنا ترمى الى التعمق فى البحث وراء الأسس التى يقوم عليها علم النفس . وهى بذلك تجد علاقة أساسية بين كثير من العمليات الاستراتيجية التى لا تشبه فى ظواهرها " المناورة على المؤخرة " فى شىء . ولكنها بالرغم من ذلك أمثلة حيوية قطعية " لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر " .

واستقصاء هذه العلاقة وتحديد نوع العمليات لا يستلزم ، بل ولا يدخل فى موضوعه وضع جداول تبين القوى العددية ، وتفصيلات التموين باللوازم ووسائل النقل . فان كل ما يهمنا انما هو بيان النتائج التاريخية فى سلسلة شاملة من الحالات . ومعها التحركات التى أدت اليها سواء منها القائم على الحساب (القياس اللوجستيكى) أو على دراسة علم النفس .

فاذا تبين أن النتائج المتشابهة تأتى على أثر التحركات المتشابهة فى ظروف وأحوال تختلف اختلافا كبيرا فى نوعها ونطاقها وتاريخها . فمن الجلى اذ ذاك أن هناك اتصالا أساسيا بينها نستطيع منه بحكم المنطق أن نستنتج سببا مشتركا بينها . وكلما زادت الظروف اختلافا كلما تأكد الاستنتاج .

— ٥ —

على أن قيمة الغرض المقصود من سعة الاطلاع على شؤون الحرب لا تنتهى عند البحث عن عقيدة حقيقية جديدة . واذا كانت سعة الاطلاع أساسا جوهريا لكل نظرية تتعلق بالحرب ، فهى ضرورية أيضا للطالب الحربى العادى الذى يبحث عن توسيع دائرة آماله ومقدرته على الحكم فى الأمور . وبخلاف ذلك فان معرفته تكون أشبه بهرم منعكس قائم على قمته الدقيقة فيبقى متزعزع التوازن . فالطالب فى جامعة لا يصل الى أبحاث الطالب المتخرج الا بعد أن يلم المـاما عاما بعلم التاريخ بصفته طالبا فى مدرسة ابتدائية ، وبعد ذلك يتوسع فى معلوماته بصفته طالبا تحت التخرج بدراسـة المظاهر الدستورية والاقتصادية ، ثم دراسة تواريخ أزمان خاصة . ومع ذلك فان الطالب الحربى الذى يأتى عادة الى موضوع دراسـته متأخرا بعد أن يصبح عقله أقل مرونة ممـا كان فى عهد الشباب ينتظر منه أن يبدأ الدراسة فى نقطة تعادل أبحاث خريج الجامعة . فهذا الموقف الغريب ونتائجه فى بعض الأحيان ممـا يعيدان الى الذاكرة تلك الأسطر الشعرية الواردة فى قصة "أليس فى أرض العجائب".

وهاك تعريبها على وجه التقريب :

" صاح الشاب قائلا : أيها الأب " ولم " لقد صرت شيخا وشعرك قد أضاءه المشيب فصار ناصع البياض ومع ذلك فانك تقف دائمـا على رأسك فهل تظن أنك مصيب فى ذلك وأنت فى هذه السن ؟ " .

الباب الثانى

حروب الاغريق

ايپامينونداس ، وفيليب ، والاسكندر

النقطة التى تصلح أكثر من غيرها بطبيعة الحال لبدء البحث والتنقيب هى أول "حرب عظمى" فى التاريخ الأوربى ، وهى "الحرب الفارسية العظمى" . وليس لنا أن نتوقع كثيرا من الارشاد فى عصر كانت فيه الاستراتيجية فى طفولتها ولكن اسم "ماراثون" قد نقش على أذهان ومخيلات قراء التاريخ نقشا عميقا لا يتسنى معه اغفال هذا الاسم . وكان نقشه على مخيلة الاغريق أعمق ومن ثم تغالوا فى أهميتها . وعنهم أخذ الأوربيون وتداولوها فى الأعصر اللاحقة . ومع ذلك فان انقاص أهميتها الى درجة أقرب الى الانصاف يزيد من قيمتها الاستراتيجية . فان غزو الفرس فى سنة ٤٩٠ ق.م كان عبارة عن تجريدة صغيرة نسبيا وكان القصد منها القاء درس على كل من "ايرتريا" و "أثينا" ، وهما ولايتان صغيرتان فى نظر "داريوس" (دارا ملك الفرس) وفى الحقيقة . وهذا الدرس هو ألا يتداخلا فيما لا يعنيهما وأن يكفا عن تشجيع العصيان بين رعية الفرس من اغريق آسيا الصغرى .

فدمرت "ايرتريا" على الوجه المرغوب وأبعد سكانها للتوطن على الخليج الفارسى . وبعد ذلك جاء دور "أثينا" حيث كان معلوما أن الحزب الديمقراطى المتطرف يتريث ليساعد تدخل الفرس ضد حزب المحافظين ثم ان الفرس بدلا من أن يزحفوا رأسا على "أثينا" أنزلوا جنودهم الى البر فى "ماراثون" التى تقع على مسافة ٢٤ ميلا شمالى شرقى "أثينا" . ومن ثم كان فى استطاعتهم أن يعولوا على استدراج الجيش الأثينى نحوهم وبذا يسهلون لأتباعهم القبض على مراكز القوة فى "أثينا" . فى حين أن الهجوم المباشر على المدينة كان لا بد أن يعيق هذه الثورة . بل وربما كان يتسبب عنه انضمام الثائرين الى أعدائهم فيواجهون مشقة اقامة الحصار علاوة على مشقة القتال على أية حال .

وقد نفعت هذه الحيلة وخرج الجيش الأثينى قاصدا "ماراثون" لملاقاة الكتلة الرئيسية من قوات عدوهم المسلحة . وهذا يطابق العقيدة الحربية الحديثة تمام المطابقة . على أنه لسوء حظ الفرس كان شعور بعض أتباعهم الديمقراطيين الموجودين "بأثينا" قد تغير . ولكنهم بالرغم من ذلك شرعوا فى تنفيذ الخطوة التالية من خطتهم الاستراتيجية . فأعادوا اركاب بقية جيشهم السفن تحت حماية قوة ساترة ، ليحولوه الى "فاليروم" وهناك ينزلونه الى البر ثم يثبون على أثينا وهى مجردة من الحراسة .

على أن "الأثينيين" بفضل ما بذله "ملتيادس" من الهمة رأوا أن ينتهزوا الفرصة الوحيدة التى أمامهم بمهاجمة القوة الساترة فى الحال . فنشبت المعركة بين الفريقين وكان لتفوق أسلحة الاغريق ودروعهم — وكانوا يمتازون بهما دائما على الفرس — مع تكتيكاتهم الحديثة الفضل فى انالتهم النصر . ولو أن القتال كان أشد مما ترويه أساطيرهم الوطنية . وأن معظم القوة الساترة قد رجعت بسلام الى السفن . ثم ان "الأثينيين" أظهروا همة فوق تلك الهمة وأسرعوا بسير مضاد لسير الفرس راجعين الى المدينة . وكان الفضل فى نجاتهم راجعا الى هذه السرعة وتباطؤ الحزب المنشق عليهم . لأن الفرس بقوا وقتا طويلا أكثر مما يلزم منتظرين ظهور اشارة الترس المتفق عليها . ولكن لما عاد الجيش الأثينى الى "أثينا" ورأى الفرس أن لا بد من محاصرتها أقلعوا بسفنهم عائدين الى قارة آسيا لأن الغرض التأديبى المحض لا يستحق الشراء بثمن باهظ .

وانقضت بعد ذلك عشر سنين قبل أن يحاول الفرس محاولة جدية لالقاء هـذا الدرس مرة أخرى والتشدد فيه . غير أن الاغريق تباطأوا فى الاتعاظ بهذا النذير ولم تشرع "أثينا" فى توسيع أسطولها البحرى الا فى سنة ٤٨٧ق.م. ذلك الأسطول الذى كان مقدرا له أن يكون القوة الحاسمة فى الحملة المقبلة . وعلى ذلك فيمكن القول بحق أن كلا من بلاد اليونان وأوربا قد نجتا بسبب وقوع العصيان فى مصر فانه شغل بال الفرس من سنة ٤٨٦ الى سنة ٤٨٤ق.م. ووفاة "داريوس" الذى كان فذا فى قدرته بين ملوك الفرس .

ولما ازداد التهديد وتطور فى سنة ٤٨١ وكان هذه المرة فى نطاق واسع وكانت جسامته سببا لا فى ائتلاف الأحزاب والولايات الاغريقية وتألبها على الفرس فحسب ، ولكنه اضطر الملك "أكزرسيس" لأن يقترب من غرضه اقترابا مباشرا . لأن عظم جيشه حال دون نقله بطريق البحر ولذلك اضطر لسلوك طريق البر ، كما كانت كثرته تحول دون تموينه نفسه فاستخدم الأسطول لتموينه . فكان الجيش ملازما للسواحل بحكم الضرورة وكان الأسطول ملازما للجيش — أى ان كلا الجيش والبحرية كان مقيدا . وعلى ذلك أمكن الاغريق أن يتأكدوا من الخط المنتظر أن يسلكه العدو فى اقترابه . وكان الفرس لا يستطيعون التحول عنه . وأوجدت طبيعة البلاد للاغريق سلسلة من النقط يستطيعون بها سد خط الاقتراب الطبيعى سدا محكما . وكما قال "جراندى" لولا تشعب مصالحهم وتناقضها وتشتت آرائهم (لكان من المحتمل أن الغزاة يعجزون عجزا تاما عن تجاوز "ثرموبيله" جنوبا) . فالذى حصل هو أن التاريخ اكتسب قصة صارت أبدية . وألقيت على عاتق الأسطول الاغريقى مهمة زحزحة الغزو زحزحة لا عودة له بعدها بأن هزمت أسطول الفرس فى معركة "سلاميس" — بينما كان "اكزرسيس" وجيش الفرس يشاهدان تدمير الأسطول الذى فضلا عن كونه أسطولهم فانه كان عليه المعول فى تموينهم . ومما يستحق التنويه أن الفرصة التى أمكنت من

نشوب هـذه المعركة البحرية أوجدتهـا صورة أخرى من الاقتراب غير المباشر . هى رسالة "ثيمستوكل" الى "اكزرسيس" بأن الأسطول الاغريقى على استعداد للخيانة والتسليم . وهذه الخدعة التى استدرجت الأسطول الفارسى الى دخول البوغاز الضيق الذى جعل كثرته العددية لاعبرة لها ولا نفع ، نفعت بسبب السوابق التى تقدمتها فجعلتها تقبل التصديق . وفضلا عن ذلك فان الذى أوقف الفرس عن التدخل فى شئون بلاد اليونان فيما بعد طول مدة السبعين سـنة التى أعقبت هـذه المعركة انمـا هى قوة الاقتراب غير المباشر من مواصلات الفرس أنفسهم التى تمكنت "أثينا" منها واستخدمتها فعلا ، وهذا الاستنتاج أثبته اثباتا لاشك فيه ، عودة ذلك التدخل فى الحال على أثر تدمير الأسـطول "الأثينى" فى معركة "سرقسطه" (سيركوزا) .

وما هو جدير بالملاحظة من الوجهة التاريخية أن استخدام خفة الحركة الاستراتيجية للاقتراب غير المباشر قد برز الى حيز الوجود وانتفع به فى الحروب البحرية قبل الانتفاع به فى الحروب البرية بزمن طويل . والسبب الطبيعى فى ذلك هو أن الجيوش لم تعول على "خطوط المواصلات" لتموينها الا بعد أن تدرجت فى عدة مراحل من التطور والرقى .

أما الأساطيل فكانت تستخدم ضد المواصلات البحرية ، أى وسائل تموين البلاد المحاربة . ولما ثبتت هذه الفكرة صار من الطبيعى تطبيقها كوسيلة لغاية بحرية . أى وسيلة لغاية "حربية" فوق ظهر البحر .

و بعد زوال تهديد الفرس كانت عاقبـة معركة "سلاميس" ارتفاع "أثينا" الى المقام الأول فى الشئون الاغريقية . وهذا المركز السامى انتهى وانقضى بحرب "البلوبونيز" (فى سنة ٤٣١ — ٤٠٤ ق . م) على أن استمرار هـذه الحروب الطاحنة مدة سـبع وعشرين سنة ، وفظـاعة ما تكبدته البلاد من الخسائر لا بلاد المتحاربين الرئيسيين فقط ، بل البلاد السيئة الحظ ، التى كانت فى حكم الحايدة أيضا كان السبب فيه استراتيجية التردد والاضطراب التى لا طائل تحتها التى كان كلا الفريقين يتدهوران اليها حينا بعد حين .

ففى الطور الأول حاولت "سپارتا" وحلفاؤها غزو "أثينا" غزوا مباشرا . على أن سياسة "پيركلى" الحربية قد خيبتها . وهى السياسة المنطوية على اجتناب المعارك البرية واستخدام الجيش "الأثينى" المتفرق فى انهاك ارادة العدو واضعافها بغارات السطو "والتخريب" . وقد استعملنا هـذا الاسم الاصطلاحى "السياسة الحربية" قصدا وان كانت عبارة "الاستراتيجية البيركلية" أصبحت فيما بعد مشهورة كشهرة "الاستراتيجية الفابية" لأن الأسماء الفنية الواضحة التحديد جوهرية للفكرة الواضحـة . واسم "الاستراتيجية" الاصطلاحى مقصور على مدلوله الحرفى الذى هو "القيادة" — أى ادارة القوات الحربية ادارة فعلية تميزا له عن السياسة التى

يتقيد بها استخدام هـذه القوات وتشترك معها أسلحة أخرى — اقتصادية ، وسياسية ، وبسيكولوجية (أى خاصة بعلم النفس) . وهـذه السياسة قد ابتكرها اسم اصطلاحى هو "الاستراتيجية العظمى" على أن هـذا الاسم وان كان ملائمـا فان مدلوله ليس سهل الفهم ومن ثم فانى بالرغم من استصوابى اسم "الاستراتيجية العظمى" الذى استعملته فى كل مكان آخر ، سأستعمل هنا اسم "السياسة الحربية" بما أن التحليل والترتيب هما الغرضان الرئيسيان من هـذا البحث التاريخى . فالخطة "البيركلية" كانت مجرد سياسة حربيـة ترمى تدريجيا الى استنفاد صبر العدو وجلده حتى يدخل فى روعه ويقتنع أنه يستحيل عليه الحصول على البت والحسم ، بدلا عن أن تكون استراتيجته اقتراب غير مباشر ترمى الى زحزحة موازنة العدو لكى تحدث حسما . ولسوء الحظ دخل وباء من الخارج شالت معه كفة "أثينا" فى هـذه الحملة الأدبية والاقتصادية التى كانت ترمى الى انهاك العدو . ولذلك ففى سـنة ٤٢٦ق.م. زالت الاستراتيجية البيركلية وحلت محلها الاستراتيجية التعرضية المباشرة التى اتبعها كل من "كليون" و"ديموستين" . وهـذه الاستراتيجية كانت أكثر كلفة من سابقتها ولم تكن أكثر منها نجاحا بالرغم من بعض أعمال تكتيكية باهرة كللت بالنجاح .

وفى أوائل شتاء سنة ٤٢٤ ق.م. جاء "براسيداس" وهو أقدر جندى عرفته "سپارتا" ومحا كل ما كانت "أثينا" قد أحرزته من المزايا بشق الأنفس . وذلك بحركة استراتيجيـة وجهت الى جذر قوة العدو بدلا من جزعها . فمر "بأثينا" نفسها دون أن يمسها بسوء وسار مسرعا نحو الشمال مجتازا بلاد اليونان طولا وأنزل ضربته بمستعمرة "أثينا" فى "خالسيدس" التى كانت تسمى بحق "نقطة الضعف فى الأمبراطورية الأثينية" وباشراكه القوة العسكرية مع وعد أعطاه لكل المدن التى كانت ثائرة على "أثينا" بمنحها حريتها وحمايتها زعزع قوة "أثينا" فيها حتى استدرج اليها القوات الأثينية الرئيسية . فنزلت بها كارثة فى "أمفيپولس" ومات "كليون" ولكن "براسيداس" نفسه سقط قتيلا فى لحظة الانتصار . ومع كل ذلك رضيت "أثينا" عن طيبة خاطر أن تعقد صلحا سلبيا مع "سپارتا" — كانت فيه أقل حزما من قائدها العظيم .

وفى سنين الصلح الاسمى التى أعقبت ذلك قامت أثينا بعدة تجريدات لاسترداد مركزها فى "خالسيدس" ولكنها أخفقت فيها كلها . فعمدت الى تجريدة أرسلتها ضد "سرقسطه" كآخر أمل تعرضى لديها "وسرقسطه" هى مفتاح "سيسيليا" التى هى مورد تموين "سپارتا" "والپلوپونيز" بوجه عام عن طريق البحر . وهذه الحركة بصفتها سياسة حربية لاقتراب غير مباشر كانت خاطئـة فى انزال الضربة ، لا بشركاء العدو الحقيقيين ، بل بعملائه التجاريين فنشأ عن ذلك أنها بدلا من تشتيت قوات العدو ، ألبت على نفسها قوات جديدة .

على أنه بالرغم من ذلك كان من الممكن أن نتائج النجاح الأدبية والاقتصادية قد تغير كل توازن الحرب لو لم تقع سلسلة من الأخطاء فى تنفيذ هذه السياسة ، يكاد لا يكون لها مثيل أولها أن "آلسبيادس" واضع الخطة استدعى من قيادته المشتركة بسبب دسائس أعدائه السياسيين . فبدلا من رجوعه الى "أثينا" ليحاكم على تهمة اهانة المقدسات ، ويحكم عليه حكما محققا بالاعدام ، فر الى "سپارتا" ونصح العدو بالكيفية التى بها يحبط الخطة التى كان هو واضعها . ثم ان "نيسياس" الذى كان معارضا لهذه الخطة أشد معارضة بقى متوليا القيادة لينفذها . فبدلا من تنفيذها سار بها الى مواطن التلف بعناده الأخرق .

ولما فقدت "أثينا" جيشها فى "سرقسطه" اتقت الهزيمة فى بلادها باستخدام أسطولها فاستمرت الحروب البحرية على أثر ذلك مدة تسع سنين أوشكت فيها "أثينا" أن تصل لا الى عقد صلح فيه ميزات لها فحسب ، بل الى استرجاع أمبراطوريتها .

على أن الأميرال "ليساندر" الأسپارتى خيب آمالها فى سنة ٤٠٥ ق.م. بما يشبه التمثيل المسرحى . وقد ورد عنه فى كتاب "التاريخ العتيق لكيمبردج" أن "خطته فى هذه الحملة كانت تجنب القتال مع انهاك الأثينيين الى آخر درجة بمهاجمة أمبراطوريتهم فى أضعف نقطها" فالعبارة الأولى من هذه الجملة لا تنطبق على الحقيقة تماما . لأن خطته لم تكن الاندفاع الى المعركة بقدر ما هى اقتراب منها اقترابا غير مباشر حتى تبقى لديه الفرصة لأن تكون الميزة فى جانبه فلا يدخل المعركة حتى تتوافر لديه هذه الميزة . فأخذ يغير خط سيره تغييرا يشف عن مهارة ودهاء حتى وصل الى مدخل الدردنيل وهناك بقى مترصدا ينتظر قدوم سفن الغلال الآتية من آسيا الصغرى فى طريقها الى "أثينا" . "ولما كان تموين "أثينا" بالغلال مسألة حياة" فان القواد الأثينيين "أسرعوا بكامل أسطولهم المؤلف من ١٨٠ سفينة لحراسة سفن الغلال" وبقوا أربعة أيام متوالية يحاولون استدراج "ليساندر" الى معركة فلم يفلحوا فى حين كان هو يشجعهم بكل الوسائل على الظن أنهم قد سدوا فى وجهه الطريق . أما هم فبدلا من رجوعهم الى مينا "سستوس" الآمنة ليجددوا مؤنتهم فيها فانهم بقوا فى البوغاز المكشوف فى "إجوسپوتاموى" أمامه . وفى اليوم الخامس حينما نزل السواد الأعظم من رجال السفن الى البر لجمع الطعام ، خرج "ليساندر" على حين فجأة واستولى على كل الأسطول بوجه التقريب دون أن يضرب ضربة واحدة . وبذا "أنهى أطول الحروب فى ساعة واحدة من الزمن" .

ومجمل القول هو أنه فى هذا النضال الذى دام سبعا وعشرين سنة كان الفشل نصيب الاقتراب المباشر فى عشرينات من المرار وكان ينتهى عادة بأضرار تلحق الذين قاموا به . وأن كفة "براسيداس" فى هذا النضال رجحت كفة "أثينا" نهائيا بحركته التى وجهها الى "خالسيدس" التى هى "جذر" "أثينا" وأن أقوى ما كان من الأمل فى استرجاع "أثينا"

مكانتها كان فيما قام به "آسبيادس" من الاقتراب غير المباشر — فى مستوى الاستراتيجية العظمى — من جذر "سپارتا" الاقتصادى فى "سيسليا" ثم ان الضربة القاضية التى جاءت بعد أن استطال أمد الحرب عشر سنين أخرى ، كانت باقتراب غير مباشر فى البحر هو فى ذاته نتيجة اقتراب جديد غير مباشر فى الاستراتيجية العظمى . لأن مما يجب ذكره هو أن هذه الفرصة أوجدها تهديد خطوط مواصلات الأثينيين "القومية" — فان "ليساندر" باتخاذه غرضا اقتصاديا جاز له أن يأمل أن يستنفد قوتهم على أقل تقدير . ولما يهيج هائجهم ويستولى عليهم الخوف يبقى فى مقدوره أن يهيئ ظروفا تسهل فيها المفاجأة ، كما حصل فعلا . وبهذه الوسيلة يحوز حسما عسكريا سريعا .

أما الطور التالى فى التاريخ الاغريقى فكان حلوله مع سقوط الأمبراطورية الأثينية وقيام "سپارتا" على رأس بلاد اليونان . وبناء على ذلك فالسؤال الثانى هو عن العامل الحاسم فى القضاء على زعامة "سپارتا" والجواب هو : رجل وما أداه لعلم وفن الحرب . ولكن فى السنين التى سبقت قيام "ايپامينونداس" مباشرة كانت "طيبة" قد تخلصت من حكم "سپارتا" بالطريقة التى عرفت فيما بعد باسم "الفابيه" (نسبة الى موجدها فابيوس) وهى تجنب المعارك — وهى سياسة حربية تنطوى على الاقتراب غير المباشر ولكنها استراتيجية تهرب — بينما كانت جيوش "سپارتا" تتنقل فى بلاد "بويوتيا" ولا يعترضها أحد . فهذه الطريقة أكسبتهم وقتا أوجدوا فيه قوة محترفة من نخبة الجنود اشتهرت باسم الجوقة المقدسة صارت فيما بعد فى مقدمة كل جنودهم . ولكن الوقت الذى تواجد كان فرصة لانتشار الشقاق بينهم ، "ولأثينا" بعد أن استراحت من الضغط عليها برا أن توجه فيها كل مجهودها ومواردها من الرجال الى اعادة احياء أسطولها . ففى سنة ٣٧٤ رأى الاتحاد الأثينى الذى كانت طيبة داخلة فيه أن "سپارتا" راضية عن منحه صلحا ذا مزايا . ومع أن هذا الصلح لم يدم طويلا بسبب قيام "أثينا" بمغامرة بحرية فان مؤتمرا جديدا للصلح عقد بعد ذلك بثلاث سنين وكان الأثينيون اذ ذاك قد ملوا الحروب . وفى هذا المؤتمر استردت "سپارتا" كثيرا مما أضاعته فى ميادين الحرب ونجحت فى فصل طيبة عن حلفائها . وعلى أثر ذلك قامت "سپارتا" على طيبة لتسحقها . ومع أن جيشها كان متفوقا على جيش طيبة بحكم التقاليد تفوقا فى الكم والنوع (كان الأول يتألف من ١٠٠٠٠ والثانى من ٦٠٠٠) فان الجيش الاسپارتى لما زحف الى داخل "بويوتيا" لاقاه جيش طيبة الجديد، الذى يعد مثالا للجيوش ، فى "ليوكترا" وهزمه هزيمة حاسمة . وكان جيش طيبة تحت قيادة "ايپامينونداس" الذى قد تصح تسميته أعرق عبقرى فى التاريخ الحربى . فهو لم يشذ عن الطرائق التكتيكية التى قامت على تجاريب الأجيال ويخرج عنها خروجا بعيدا فحسب ، بل انه وضع أسس التكتيك ، والاستراتيجية ، والاستراتيجية العظمى كلها ، التى بنى عليها أساتذة الفن الذين أتوا بعده . حتى ان أشكاله

(٢)

الانشائيـة ما زالت باقية الى الان أو انها تجددت واستعيدت . فان "الترتيب المـائل" فى التكتيك الذى حاز شهرته على يد "فردريك" ان هو الا تعديل بسيط لطريقـة "ايپامينونداس" وهى قد نشأت فى معركة "ليوكترا" حينما عكس "ايپامينونداس" العادة المتبعة ولم يضع على جناحه الأيسر أحسن جنوده فحسب بل وضع أكثرهم . ثم أخر قلبـه وميمنته الضعيفين وأخذ يوجد تفوقا ساحقا على أحد جناحى العدو — وهو الجناح الموجود به قائده الذى يجعله مفتاح ارادة الخصم .

و بعد معركة "ليوكترا" بسنة واحدة قاد "ايپامينونداس" قوات الاتحاد "الاركادى" وسار بهـا الى "سپارتا" بالذات التى لم تطأها قدم عدو قبل ذلك الحين . وهذا السير الذى نفذ الى قلب شبه جزيرة "البلوپونيز" التى هى ملك "لأسپارتا" لا ينازعها فيـه منازع كان ممتازا بكونه اقترابا غير مباشر من عدة أوجه . فقد حصل فى فصل الشتاء ، و بثلاثة قولات كل منها منفصل عن الآخرين لتتلاقى كلها فيما بعد . و بذا "تتشتت" أفكار القوات المقاومة و يرتبك اتجاهها .

وهذا وحده يكاد يكون فريدا فى بابه فى حروب الأزمنة الغابرة بل وفى الحروب التى سبقت الحروب النابليونية . على أن "ايپامينونداس" كان بعيد مرمى النظر الاستراتيجى الى درجة أكبر من ذلك . اذ بعد أن تجمعت قوته فى "كاريه" التى هى قبل "سپارتا" بمسافة ٢٠ ميلا تسلل بهـا دائرا حول العاصمة ثم زحف عليها من الخلف . فهـذه الحركة كانت تنطوى على ميزة أخرى مدبرة هى تمكين الغزاة من تعزيز قوتهم بأفواج كبـيرة من أرقاء الفلاحين وغيرهم من العناصر المنشقة فيضمونهـا اليهم . على أن الاسپارتيين بالرغم من ذلك وفقوا الى وقف هذه الحركة الداخلية الخطرة بأن وعدوا هذه العناصر بمنحها حريتها مدفوعين الى ذلك بحكم الضرورة الماسة . ثم ان ورود امدادات قوية الى "سپارتا" من حلفائهـا "البلوپونيزيين" خيب الأمل فى سقوط المدينة من غير محاصرتها . فتبين "لايپامنونداس" فى الحال ان استدراج الاسپارتيين الى الأرض الفضاء أمر متعذر ، وأن الحصار اذا طال أمره يكون سببا فى تدهور عدد جنوده الذين لم يكونوا متجانسين . و بناء على ذلك ضرب صفحا عن السلاح الاستراتيجى الذى أصبح كليلا واستعاض عنه بسلاح أحد منه وأكثر دهاء — هو سياسة حربية باقتراب غير مباشر ، أى استراتيجية عظمى حقا . فما كان منه الا أن أسس مدينة فى جبل "ايثوم" الذى هو قلعة طبيعية فى "مسينا" وجعلها عاصمة لدولة "مسينا الجديدة" ووطن فيها كل العناصر الثائرة التى كانت انضمت اليه ثم وهبها الغنائم التى كان غنمها أثنـاء غزوه . فأصبحت هـذه الدولة الحديثة حاجزا أمام "سپارتا" وقوة توازنها فى جنوب بلاد اليونان . ولمـا توطدت وثبتت فقدت "سـپارتا" نصف أراضيها وأكثر من نصف أرقاء فلاحيها . ولمـا أسس "ميغالوپولس" بعد ذلك فى "أركاديا" وجعلها حاجزا آخر أصبحت

"سپارتا" محصورة سياسيا من جهة، وداخل سلسلة من القلاع من الجهة الأخرى فانفصلت عنها جذورها الاقتصادية التى كانت تغذى تفوقها الحربى . ولما بارح "ايپامينونداس" بلاد البلوپونيز بعد الحملة الحربية التى دامت بضعة أشهر لاغير كان لم يكتسب نصرا عسكريا . ولكن كانت سياسته الحربية قد زعزعت أسس قوة "سپارتا" تماما .

غير أن رجال طيبة السياسيين كانوا يريدون نجاحا عسكريا مدمرا وقد أغضبهم عدم الحصول على ما أرادوا . وأعقب ذلك عزل "ايپامينونداس" ولو الى حين . فكان عزله مجلبة لضياع المزايا التى كسبها لها . وذلك بقصر نظر السياسة التى اتبعتها ديموقراطية طيبة وما وقعت فيه من الأخطاء . وبذا أصبح فى مقدور حلفاء طيبة الاركاديين أن ينازعوها الزعامة بعد أن دفعهم الغرور والطمع الى نكران الجميل . وفى سنة ٣٦٢ أرغمت طيبة على الخيار بين أحد أمرين : اما تأييد سلطتها بالقوة . واما تضحية نفوذها . فلما تحركت ضد "أركاديا" انقسمت دول اليونان من جديد الى كتلتين مؤتلفتين . ولحسن حظ طيبة كان "ايپامينونداس" حاضرا لخدمتها وليس ذلك فحسب . بل كانت هنالك ثمار استراتيجيته العظمى — فان "مسينا" و"ميغالوپولس" اللتين أوجدهما من العدم ساهمتا لا لكاجز فقط ، بل كانتا قوة فى جانب طيبة . فسار "ايپامينونداس" الى داخل البلوپونيز والتقى بحلفائه البلوپونيزيين فى "تيجيه" فأصبح بين "سپارتا" والقوات الرئيسية للحلفاء المعادين لطيبة التى كانت قد احتشدت فى "مانتينيه" . أما الاسبارتيون فانهم ساروا على طريق ملتف ليلحقوا بحلفائهم . فما كان من "ايپامينونداس" الا أن وثب على "سپارتا" نفسها ليلا بقول طيار على حين غفلة . ولم يحل بينه وبين غرضه الا أن أحد الفارين أنذر الاسپارتيين فى وقت كاف فأسرعوا راجعين الى مدينتهم . وعند ذلك صمم على أن يشتبك فى معركة ينال فيها الحسم . وزحف من "تيجيه" على "مانتينيه" التى تبعد نحو ١٢ ميلا على طول واد يشبه زجاجة الساعة فى شكله . وكان العدو متخذا موقعا قويا فى «الوسط» الذى كان اتساعه ميلا واحدا .

وحينما زحف صرنا على الخط أى الحد الفاصل بين الاستراتيجية والتكتيك . على أن الفصل بين الاستراتيجية والتكتيك فى هذه الحالة فصلا تحكميا يعد خطأ ، خصوصا وأن الأسباب المباشرة لانتصاره كانت فى اقترابه من العدو حتى يتصل به فعلا ، اقترابا غير مباشر . ففى بادئ الأمر سار "ايپامينونداس" نحو معسكر العدو مباشرة . فاضطره الى الاصطفاف للقتال متجها نحو خط اقترابه — وهو خط الانتظار الطبيعى . ولكن بعد أن تقدم عدة أميال غير اتجاهه فجأة الى اليسار ثم دار الى الداخل تحت هضبة بارزة . فهذه المناورة الفجائية هددت مؤخرة العدو بضرب جانبى . ولكى يزيد زحزحة أوضاع قتال العدو ، وقف وأمر جنوده بالقاء السلاح على الأرض كما لو كانوا يتأهبون لنصب المعسكر . وقد نجحت هذه الخدعة . فان العدو أغرى على التراخى فى مصف قتاله وأتاح للجنود ترك الصفوف ونزع الأثقال من الخيول .

وفى نفس الوقت كان "ايبامينونداس" يكمل أوضاع قتاله فعلا — وكانت تشبه أوضاع معركة "ليوكترا" ولكنها أرقى منها — وراء ستار من الجنود الخفيفة . و بعد ذلك أعطيت إشارة الى الجيش الطيبي فالتقط أسلحته واندفع نحو العدو — الى نصر سبق ضمانه بزحزحة موازنة العدو . ولكن لسوء الحظ سقط "ايبامينونداس" نفسه قتيلا فى لحظة الانتصار . وقد كان موته درسا للأجيال اللاحقة ليس هو أقل الدروس التى تلقتها عنه . اذ أثبت اثباتا مسرحيا مقنعا أن أسرع مايكون سقوط الجيش أو الدولة انما هو بشلل يصيب المخ .

وجاءت الحملة الخامسة التالية بعد ذلك بما ينوف على عشرين سنة . وهى الحملة التى مكنت "مقدونيا" من الزعامة اليونانية . ومما يزيد أهمية هذه الحملة ما انتهت اليه من النتائج الخطيرة . فهى مثال يبين كيف تستطيع السياسة والاستراتيجية مساعدة احداهما الأخرى . ثم كيف تستطيع الاستراتيجية قلب الموانع الطبوغرافية وتحويلها من عيوب تعترضها الى مزايا تنتفع بها . والمتحدى فى هذه الحملة وان كان هو نفسه إغريقيا الا أنه كان «أجنبيا» فى حين أن "طيبة" و" أثينا" اتحدتا لتوجدا حلفا للجامعة اليونانية لمقاومة قوة "فيليب" المقدونى الآخذة فى الازدياد بموازرة أجنبى هو أحد ملوك الفرس — وفى ذلك من الغرابة مافيه من وجهة التاريخ العتيق والطبيعة البشرية . وهنا أيضا نجد أن المتحدى هو الذى أدرك قيمة الاقتراب غير المباشر . حتى ان العلة التى تعلل بها فى مسعاه لنيل الزعامة كانت هى أيضا غير مباشرة . فان المجلس الانفكتيونى (مجلس ملى يونانى) استدعاه ليساعد فى معاقبة "امفيزا"، فى "بويوتيا الغربية" على جناية اهانة المقدسات . ومن المحتمل أن فيليب نفسه هو الذى أوعز بهذه الدعوة التى تألب عليه من جرائها كل من "طيبة" و"أثينا". ولكنه كان متأكدا من التزام الدول الأخرى الحياد المقرون بالعطف على أقل تقدير .

فبعد أن سار "فيليب" متجها نحو الجنوب تحول فجأة فى "سيتينيوم" عن الطريق المؤدية الى "امفيزا" — أى خط الانتظار الطبيعى واحتل "ايلاتيه" ثم حصنها . وهو تغيير مبدئى دل على مايرمى اليه من التوسع فى الأغراض السياسية ولكنه يشف أيضا عن غرض استراتيجى تؤيده هذه الحادثة . أما الطيبيون والبويوتيون فانهم سدوا الممرين المؤديين الى "بويوتيا" . الطريق الغربى الموصل من "سيتينيوم" الى "امفيزا" والممر الشرقى وهو ممر "باراپوتامى" الموصل من "ايلاتيه" الى "خارونيه" . أما الطريق الأول فيصح تشبيهه بالشرطة العليا من حرف I والطريق من "سيتينيوم" الى "ايلاتيه" يشبه الشرطة السفلى . والامتداد القاطع للممر الى "خارونيه" يشبه الشرطة الصغيرة التى ينتهى بها الحرف من الشرطة السفلى .

ثم ان "فيليب" قبل أن يبدأ بحركة عسكرية أخرى اتخذ التدابير ليزيد معارضيه ضعفا ، من الوجهة السياسية بأن عضد اعادة الجاليات الفوشية ، التى كان الطيبيون قد شتتوها ، الى أماكنها . ومن الوجهة الأدبية بأن حرض على المناداة به نصيرا لاله "دلفى" .

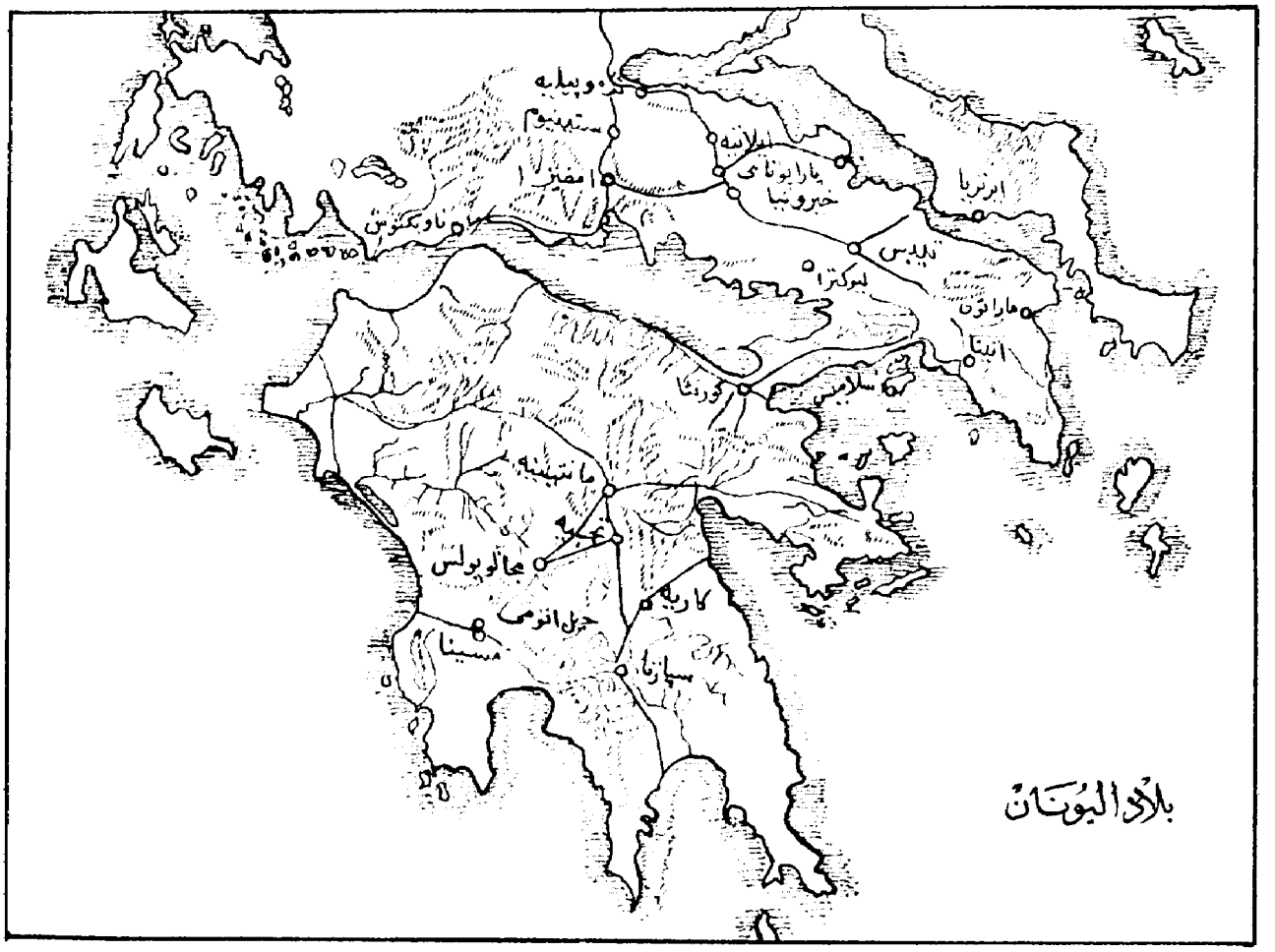
ثيبة
ستيوم
امفيزا
الاسه
بارابوتامى
خيروبيا
ابرنربا
ناوبكتوس
ثيديس
لبوكترا
مارانون
ابينا
سلامس
كورنثا
مانتينيه
محالوبولس
كاريه
حبل انوس
مسينا
سپارتا
بلاد اليونان

وبعد ذلك وثب وثبة فجائية فى ربيع سنة ٣٣٨ ق . م . بعد أن مهد طريقه بخدعة . ذلك أن باحتلاله "ايلاتيه" كان قد حوّل التفات العدو من الوجهة الاستراتيجية نحو الطريق الشرقى — الذى هو الآن خط الانتظار الطبيعى — ثم انه حوّل التفات القوة التى سدت الطريق الغربى، من الوجهة التكتيكية، بأن دبر كتابا تكلم فيه عن عودته سريعا الى "طراقية" وجعله يقع فى يد هـذه القوة . وبعد ذلك تحرك من "سيتينيوم" بسرعة واجتاز الممر ليلا ثم خرج فى قلب "بويوتيا" الغربية فى "امفيزا". وتمادى فى السير حتى وصل الى "ناوبكتوس" وفيها فتح مواصلاته عن طريق البحر . فأصبح والحالة هـذه وراء المدافعين عن الممر الشرقى وان كان بعيدا عنهم. أما هم فلما رأوا ذلك رجعوا متقهقرين من "پاراپوتامى". لاخوفا من قطع خط رجعتهم اذا هم بقوا فى مكانهم فحسب ، ولكن أيضا لأن بقاءهم فيه ليس له قيمة ظاهرة . على أن فيليب تحوّل مرة أخرى عن خط الانتظار وقام باقتراب آخر غير مباشر . فانه بدلا من أن يتمادى فى الضغط نحو الشرق من "امفيزا" مجتازا البلاد الجبلية التى تساعد على المقاومة، حوّل جيشه ورجع به مجتازا "سيتينيوم" و"ايلاتيه" ثم دار نحو الجنوب مجتازا ممر "پاراپوتامى" الذى أصبح الآن بغير حراسة وانقض على جيش العدو فى "خارونيه" . فكان انتصاره التكتيكى نتيجة طبيعية وتأسست الزعامة المقدونية فى بلاد اليونان .

على أن الأجل وافاه قبل أن يصل بهذه الزعامة الى آسيا وكان من نصيب ابنه اسكندر أن يخرج الحملة التى نواها والده من حيز الفكر الى حيز الوجود . ولم يقتصر ماورثه الاسكندر عن والده على خطة وآلة تعد نموذجا — هو الجيش الذى رقاه فيليب — فحسب . بل ورث أيضا فكرة الاستراتيجية العظمى . وهناك ميراث آخر له قيمة مادية لاتنكر هو امتلاك رؤوس جسور (كبارى) الدردنيل التى حصل الاستيلاء عليها بارشاد فيليب فى سنة ٣٣٦ ق.م. ولو أننا درسنا خريطة تبين زحف الاسكندر لوجدناها عبارة عن سلسلة من خطوط منكسرة حادة الزوايا . ودراسة تاريخ هذه التعاريج تبين أن لها أسبابا أبعد غورا من الحساب اللوجستيكى (الخاص بحركات الجيوش وتموينها) . نعم ان الاستراتيجية اللوجستيكية هى استراتيجية مباشرة لادهاء فيها . والسبب فى ذلك على مايظهر هو أولا أن الاسكندر فى شبابه وبحكم تربيته فى أبهة الملك كان نموذجا للبطل الهوميرى (نسبة الى هومير الشاعر المشهور) أكثر من غيره من كبار قادة التاريخ . وربما زاد على ذلك أنه كان يثق من تفوق آلته (أى جيشه) ، ويحق له ذلك ، ومن مقدرته على خوض غمار المعارك به الى درجة أنه لم يجد نفسه فى حاجة الى البدء بزحزحة موازنة خصمه الاستراتيجية . أما ماتركه للأجيال اللاحقة من الدروس فينحصر فى شيئين هما السياسة الحربية والتكتيك .

فقد ابتدأ من الشاطئ الشرقى لبوغاز الدردنيل بالتحرك جنوبا وهزم الجنود الفارسية الساترة التى كانت على نهر "الجرانسيكوس" حيث كان العدو يقدر حق التقدير أنه اذا تمكن من الاحتشاد أمام الاسكندر الذى تجاوز حد الجرأة وقتله فانه يشل حركة الغزو فى منشأها. ولكنه أخفق فى ذلك بشىء يسير.

وبعد ذلك تحرك جنوبا قاصدا "ساردیس" بصفتها مفتاح "ليديا" السياسى والاقتصادى. ومن ثم تحرك غربا الى "ايفيسوس" وأعاد الى تلك المدائن الاغريقية حكوماتها وحقوقها الديموقراطية كوسيلة يؤمن بها خط رجعته بأفضل الطرق الاقتصادية.

وكان الآن قد عاد الى شاطئ البحر الايجى "شرق البحر الأبيض المتوسط" فاتخذ سبيله الى الجنوب أولا ثم اتجه شرقا على طول الشاطئ مارا "بكاريا"، "وليسيا"، "وپامفيليا". وهو فى اقترابه جعل غرضه زحزحة حاكمية الفرس عن البحر بحرمان الأسطول الفارسى من حرية الحركة فيه وذلك بحرمانه من قواعده البحرية. وفى نفس الوقت فانه بتحريره هذه الموانى يحرم أسطول العدو من كثير من موارد رجاله الذين كانوا يجندون منها.

أما فيما وراء "پامفيليا" فكان باقى خط سواحل آسيا الصغرى مجردا فعلا من الموانى. ولذلك فانه اتجه الآن الى الشمال ثانيا حتى "فريجيا" وشرقا حتى "انقيرا" (أنقرا الحديثة) مواطدا مراكزه ومؤمنا خط رجعته فى وسط آسيا الصغرى. وبعد ذلك اتجه نحو الجنوب مجتازا "بوابات" "سليسيا" على الطريق المؤدى الى "سوريا" مباشرة حيث كان "داريوس" (دارا) يحشد جنوده لمقاومته. وهناك نظرا لعجز خدمة الاستعلامات (المخابرات) عنده، وافتراضه أن الفرس ينتظرونه فى السهول، تفوق الفرس على الاسكندر فى المناورات الاستراتيجية. فبينما قام الاسكندر باقتراب مباشر قام "داريوس" باقتراب غير مباشر وبعد أن تحركوا على أعالى نهر الفرات اجتازوا البوابات "الأمانيكية" وانقضوا على مؤخرة الاسكندر. فوجد الاسكندر نفسه منقطعا عن سلسلة قواعده مع أنه كان حريصا على سلامتها. على أنه عاد فرجع وخلص نفسه فى معركة "ايسوس" بتفوقه التكتيكى وآلته التكتيكية. واستخدم الاقتراب غير المباشر فى تكتيكاته أكثر من أى قائد من كبار القادة. وبعد ذلك عاد واتخذ طريقا غير مباشر منحدرا على ساحل سوريا بدلا من تماديه فى السير الى بابل التى هى قلب الدولة الفارسية. وكان ذلك طبقا لأصول الاستراتيجية العظمى لأنه وان كان قد زحزح حاكمية الفرس على البحر الا أنه لم يكن قد أبادها بعد. وما دامت باقية فلا يبعد أن تكون وسيلة للاقتراب من خط رجعته اقترابا غير مباشر. وهنا صارت بلاد اليونان وخصوصا "أثينا" فى قلق شديد. ثم ان زحفه فى قلب "فينيقيا" شتت الأسطول الفارسى وما تبقى منه كان أغلبه فينيقيا. فقد أتى له القسم الأعظم منه مستسلما. أما القسم الصورى فقد أخذ فى سقوط مدينة "صور". وحتى فى ذلك الحين عاد فتحرك نحو الجنوب ودخل مصر. وهى حركة صعبة التفسير لأسباب بحرية، الا اذا كان الباعث عليها زيادة الحيطة. على أنها

مفهومة فى ضوء أغراضه السياسية التى هى احتلال الامبراطورية الفارسية وتوطيد امبراطوريته مكانها . فمن هذه الوجهة كان فى احتلال مصر ميزة اقتصادية عظيمة . وأخيرا عاد فسار نحو الشمال مرة أخرى الى حلب ومنها اتجه شرقا واقترب اقترابا مباشرا من الجيش الحديث الذى جمعه داريوس بالقرب من الموصل . وهنا برهن الاسكندر وجيشه مرة أخرى فى "جوجاميلا" على تفوقهم تماما على جيش هو فى اعتبار أقل العوائق التى تعترض الاسكندر فى طريقه الى غايته التى يرمى اليها فى "استراتيجيته العظمى" . وأعقب ذلك احتلال "بابل" . أما حملات الاسكندر التالية التى كللت بالنجاح الى أن وصل الى حدود الهند فكانت من الوجهة العسكرية بمثابة "تشطيب" الامبراطورية الفارسية . وان كانت من الوجهة السياسية توطيدا لامبراطوريته . على أنه اجتاز غصبا المضيق "الأوكسيانى" وبوابات بلاد الفرس باقتراب غير مباشر ولما لاقاه "بوراس" (أمير وعاهل هندى) على نهر "الهداسبس" أظهر من الخدعة منتهاها ، جاءت برهانا ساطعا على مبلغ ما كان له من المقدرة الاستراتيجية . وهى أنه خزن غلالا فى أماكن متفرقة على طول الشاطئ الغربى لهذا النهر ووزع عليها جيشه فغافل خصمه حتى غنم عليه ما ينويه الاسكندر . ثم أخذت فرسان الاسكندر تسير ذهابا وجيئة بجلبة وضوضاء حتى ارتاع لها "بوراس" فى بادئ الأمر . ولكنها لما استمرت على ذلك مرارا وتكرارا تضاءل أمرها فى فكره بحكم الاعتياد وسكن اليها واستنام لها . وبعد أن استقر "بوراس" على هذه الحالة ترك الاسكندر السواد الأعظم من جيشه أمامه (بوراس) ثم عبر النهر هو بنفسه على مسافة ١٨ ميلا صعودا على مجراه . وبمفاجأته بهذا الاقتراب غير المباشر أخل توازنه العقلى والأدبى ، وتوازن جيشه الأدبى والجسمانى . وبهذه الوسيلة تمكن الاسكندر بجزء من جيشه أن يهزم كل أعدائه بوجه التقريب ، فى المعركة التى نشبت على أثر هذه الحركة . فلولا هذه القلقلة التى حصلت على المنوال السالف الذكر ، لما كان هناك مبرر يبرر تعريض الاسكندر لجزء صغير من جيشه للهزيمة وهو منفصل عن بقية الجيش ، سواء من الوجهة النظرية أو من الوجهة العملية .

وفى الحروب الطويلة التى شنها "خلفاء" الاسكندر بعد موته ، وهى الحروب التى مزقت امبراطوريته أمثلة عديدة للاقتراب غير المباشر لأن قواده كانوا أكفأ من مارشالية نابليون . ثم ان ما اكتسبوه من المراس أدى بهم الى ادراك المعنى الحقيقى للاقتصاد فى القوة . ولكن مراعاة للانصاف قد اقتصر هذا التحليل على الحملات الحربية الحاسمة التى وقعت فى التاريخ العتيق . فهذه الحروب ليس فيها ما يصح تسميته حاسما بصورة قطعية الا الحرب الأخيرة منها التى كانت فى سنة ٢٠١ ق . م . فان حاسميتها لا نزاع فيها . لأنها بحسب ما جاء عنها فى كتاب "التاريخ العتيق لكيمبردج" من القول الموزون كانت "خاتمة النضال بين القوة المركزية والعائلات الحاكمة" فأصبح "تقسيم العالم الأغريقى المقدونى أمرا لا مفر منه" .

فما حلت سنة ٣٠٢ ق . م . حتى أوشك "أنتيجونوس" المطالب بالحلول محل الاسكندر. أن يبلغ غايته فى نهاية الأمر التى هى ضمان الامبراطورية لنفسه. فانه بتوسعه فى ضم البلاد ابتداء من ولايته الأصلية "فريجيا" أصبحت له السيطرة على "آسيا" من البحر الايجى الى نهر الفرات . وكان "سليوكس" فى مقاومته له يجد صعوبة فى محافظته على "بابل" . أما "بتولومى" (بطليموس) فانه خرج من الغنيمة بمصر لا غير . وأما "ليسيماكوس" فقد كان مركزه فى "طراقية" أكثر توطيدا . ولكن "كاساندر" الذى هو أقوى القواد المنافسين "لانتيجونوس" وعماد المقاومة لحلمه الذى كاد أن يتحقق كان قد طرده من بلاد اليونان "ديمتريوس" ابن "أنتيجولوس" الذى كان ثانيا لاسكندر فى كثير من خصاله . واذا كان "كاسندر" بصفته مؤسس "سلانيك" لا يلقى احتراما من الجنود البريطانيين فان استراتيجيته تدعو الى الاعجاب وان كان ذوقه على العكس لا يستحق اعجابا . فانه لما طلب منه التسليم بغير قيد ولا شرط رد على هذا الطلب بضربة استراتيجية عبقرية . وضعت خطتها فى مؤتمر عقد مع "ليسيماكوس" وطلب العون فيها من "بتولومى" . بينما هو بدوره اتصل "بسليوكس" بأن كان يراسله بواسطة رسل يسافرون فوق ظهور الابل عبر صحراء العرب .

فلم يبق "كاساندر" معه الا ٣١,٠٠٠ جندى ليلاقى بها غزو "ديمتريوس" "لتساليا" بجند بلغ عدده ٥٧,٠٠٠ — ثم أعار بقية جيشه "لليسيماكوس" . فقام هذا الأخير وعبر بوغاز "الدردنيل" بينما تحرك "سليوكس" غربا نحو آسيا الصغرى بجيش معه ٥٠٠ فيل من فيلة الحرب أتته من الهند . ثم تحرك "بتولومى" شمالا الى "سوريا" ولكن لما بلغه خبر كاذب بأن "ليسيماكوس" قد انهزم عاد الى مصر. ومع ذلك فان الزحف الاتى من الجانبين الى قلب امبراطورية "أنتيجونوس" ألجأه لأن يستدعى "ديمتريوس" من "تساليا" على جناح السرعة حيث كان "كاساندر" قد نجح فى إعاقة تقدمه وأوقفه أمامه الى أن كانت الحركة غير المباشرة الموجهة الى رجعته الاستراتيجية فى آسيا الصغرى فاضطرته الى الرجوع — كما حصل فى حركة "سبيو" فيما بعد التى كانت على مثل هذا الأساس فاضطرت "هانبال" للعودة الى أفريقيا . وفى معركة "أبسوس" فى ولاية "فريجيا" انتهت استراتيجية "كاساندر" بنصر تكتيكى حاسم كانت خاتمته موت "أنتيجونوس" وفرار "ديمتريوس" . ومما هو جدير بالذكر أن فى هذه المعركة كانت أفيال الحرب هى الوسيلة الحاسمة . وبمناسبة ذلك كانت تكتيكات المنتصر غير مباشرة فى جوهرها . ففى بدء الحملة كانت كفة "أنتيجيوس" راجحة رجحانا تاما . ومن النادر انقلاب طالع الحرب من جانب الى آخر بهذه الكيفية . وسبب ذلك الذى لا شك فيه هو أن اقتراب "كاساندر" غير المباشر قد قلب موازنة "أنتيجونوس" رأسا على عقب . وذلك زعزع توازن "أنتيجيوس" العقلى وتوازن جنوده ورعاياه الأدبى ، وتوازن أوضاعه الحربية المادى .

الباب الثالث

حروب الرومان

هانيبال ، سيبيو ، وسيزار

والنضال التالى الذى كان حاسما فى نتائجه وفى أثره فى التاريخ الأوربى هو النضال الذى قام بين روما وقرطاجنة . والفترة الحاسمة فيه كانت فترة الحرب الهانيبالية أى الحرب القارطاجية الثانية . وهى تنقسم الى عدة أطوار ، أى حملات حربية ، كل منها كان حاسما فى تحويل سير الحرب الى مجرى جديد . والأخير منها كان حاسما ليس للحرب بأجمعها فقط . بل فى تحويل كل مجرى التاريخ الأوربى . فالطور الأول يبدأ بزحف هانيبال من أسبانيا متجها نحو جبال الألب وايطاليا ، و يظهر أن خاتمته الطبيعية كانت النصر الساحق المبيد الذى تم فى "ترازيمين" وترك روما ولا وقاية لها سوى أسوارها وحاميتها وهما معرضين لاقتراب هانيبال منهما مباشرة لو أنه اختار ذلك .

والسبب الذى يعزوه الجميع لاختيار هانيبال من بادئ الأمر لهذا الطريق البرى الملتف الشاق ، مفضلا اياه على الطريق البحرى المستقيم هو على ما يقال "سيادة البحر" المزعومة لروما . على أن من السخف تطبيق التفسير الحديث لهذه العبارة على عصر كانت فيه السفن فى حالتها الأولية وكانت مقدرتها على معارضة العدو فى عرض البحر والتصدى له أمرا مشكوكا فيه . بل حتى فى أيامنا هذه ما زالت مثل هذه "السيادة" مقيدة بحدود ظاهرة . وفوق ذلك فان هناك دليلا ذا قيمة هو فقرة فى كتاب "پوليبيوس" تلقى شيئا من الضوء على نفس ذلك العصر الذى وقعت فيه معركة "ترازيمين" . اذ يقول مشيرا الى قلق مجلس السناتو الرومانى لئلا يتمكن القرطاجيون "من احراز سيادة على البحر أتم من سيادتهم الحالية" . وحتى فى المرحلة الختامية من الحرب بعد أن أحرز الرومانيون النصر عدة مرات فى البحر وحرموا الأسطول القرطاجى من كل قواعده الأسياسية ، ثم استقروا فى أفريقيا كانوا عاجزين عن منع "ماجو" من انزال تجريدة حربية الى البر فى "رفيرة جنوا" ، أو الحيلولة دون اقلاع هانيبال فى سكون عائدا الى أفريقيا .

وأغلب الاحتمال على ما يظهر هو أن اتخاذ هانيبال طريقا بريا لغزوه ، غير مباشر وملتو ، كان بقصد تأليب أقوام "السلت" القاطنين بايطاليا الشمالية على روما . ثم لابد لنا من ملاحظة عدم المباشرة ، أى صفة المداورة المتوفرة حتى فى هذا السير البرى من الوجهة الجغرافية

والمزايا الناشئة عنها. فان الرومان كانوا قد ارسلوا القنصل "پوبليوس سبيو" والد "افريقانوس" الى "مرسيليا" قصد سد الطريق فى وجه هانبال على نهر "الرون" . مع أن هانبال لم يقتصر على عبور هذا النهر الهائل فى مكان بعيد صعدا على مجراه ، على غير انتظار ، بل انه اتجه بعد ذلك متوغلا نحو الشمال أكثر مما كان ليسلك الطريق المتطرف الشاق الكائن بوادى "الايزير" بدلا من الطرق الأخرى الكائنة "بالرفييرا" التى هى أكثر استقامة ولكنها سهلة الايصاد. ولما وصل "سبيو" الى معبر النهر بعد ذلك بثلاثة أيام "اندهش لما علم أن العدو قد غادره لأنه كان مقتنعا أنه (أى العدو) يستحيل عليه أن يجازف بسلوك هذا الطريق الى داخل ايطاليا. فاتخذ قرارا عاجلا وأسرع بالحركة بعد أن ترك قسما من جيشه هناك ، وعاد الى ايطاليا بطريق البحر فى الميعاد الذى يلتقى فيه بهانبال فى سهول "لومبارديا" على أن هذه السهول كانت بها ميزة لهانبال لملائمة أراضيها لحركات فرسانه الذين كانوا متفوقين على عدوهم. وعلى أثر ذلك جاء النصر فى معركتى نهرى "التسينوس" و"التربيا" وكان لها تأثير أدبى أدى الى امداد هانبال بالمجندين والمؤن " بكثرة عظيمة " . ولما أصبح هانبال سيدا على ايطاليا الشمالية قضى فيها فصل الشتاء . وفى الربيع التالى سار القنصلان الجديدان بجيشيهما أحدهما الى "ارمينوم" (رمينى) على بحر الأدرياتيك ، والآخر الى "آريتيوم" (ارتزو) فى "اترووريا" ليسبقا هانبال فى زحفه المتمادى — وبذا تحكم أولهما فى الطريق الشرقى والثانى فى الطريق الغربى ، وهما الطريقان اللذان يستطيع هانبال أن يسلكهما فى زحفه نحو روما . وقر قرار هانبال على سلوك طريق "اترووريا" ولكنه بدلا من سلوك أحد الطرق المعتادة أخذ يستقصى استقصاء تاما "وتحقق من أن الطرق الأخرى المؤدية الى "اترووريا" طويلة ومعلومة جيدا لدى العدو. ولكن هناك واحدا منها قصيرا يخترق المستنقعات وهو يؤدى الى الانقضاض على "فلامنيوس" بغتة. وهذا هوالذى يوافق عبقريته الفذة فصمم على سلوك هذا الطريق. ولكن لما انتشر الخبر فى جيشه أن القائد سيجتاز به المستنقعات داخل كل جنوده الفزع ... ..." فالجنود العاديون يفضلون المعلوم على المجهول. أما هانبال فكان قائدا فوق المعتاد ومن ثم فانه حذا حذو كبار القادة واختار مواجهة أشد الظروف خطرا بدلا من الأمر المؤكد وهو ملاقاة العدو فى وضع يكون هو قد اختاره لنفسه .

فسار جيش هانبال أربعة أيام وثلاث ليال "فى طريق يغمره الماء" متكبدا مشاقا مضنية من التعب وعدم النوم ، وخسائر كبيرة فى الرجال وأكثر منها فى الخيل . على أنه لما برز الى اليبس وجد الجيش الرومانى معسكرا فى "آريتيوم" فى حالة استسلام. أما هانبال فانه لم يحاول أن يهجم هجوما مباشرا بل انه كما قال "پوليبيوس" "قدر أنه اذا مر على المعسكر وهبط الى الجهة الواقعة وراءه فان "فلامنيوس" خشية من لوم الرأى العام من جهة ، وبدافع حنقه الشخصى من جهة أخرى لا يستطيع الصبر على رؤية الخراب يحل بالبلاد وهو لا يبدى حراكا فيقتفى أثره ضائعا مختارا" وهنا نجد تطبيقا عقليا للمناورة على مؤخرة العدو. وهو تطبيق قائم على فحص دقيق

عما يتصف به العدو من الأخلاق . وقد اعقبه تنفيذ مادى . لان هانبال بعد أن أمعن فى السير على طريق روما نصب ونفذ أعظم كمين عرفه التاريخ . ففى دغش فجر اليوم التالى بينما كان الجيش الرومانى مجدا فى تعقبه على طول أطراف بحيرة "ترازيمين" المحفوفة بالتلال وقع فى شرك نصب له من الأمام والخلف وأبيد عن آخره. وقراء التاريخ كلهم يذكرون هذا الانتصار ولكنهم عرضة لأن يغفلوا الطعنة أو الضربة العقلية التى صيرته من الممكنات .

على أن "پوليبيوس" وان كانت تنقصه تجاربنا التى مارسناها أكثر من ألفى سنة واستفدنا منها فانه استخرج العبرة الصحيحة حيث قال : "لأن السفينة اذا جردتها من مدبر دفتها تسقط فى يد العدو بكل نوتيتها . وكذلك الجيش فى الحرب اذا تفوقت على قائده فى الدهاء أو فى المناورة فانه يسقط بأجمعه فى يديك" .

والآن نقبل على الطور الثانى من الحرب . أما السبب فى عدم سير هانبال الى روما عقب معركة "ترازيمين" فهو من خفايا التاريخ . وكل حل لهذا اللغز لا يخرج عن كونه مجرد تخمين. وكل ما هو معلوم بالتأكيد أن هانبال قضى السنين التى أعقبت هذه المعركة فى محاولة قطع الصلات التى تربط ساطة روما بحلفائها الايطاليين وادماجهم فى ائتلاف يقوم ضدها . أما الانتصارات فكانت مجرد حافز أدبى يرمى الى هذه الغاية . فالمزايا التكتيكية مؤكدة له دائما متى أمكنه استدراج عدوه الى معركة فى ظروف ملائمة لفرسانه المتفوقين .

وهذا الطور يبتدئ بصورة رومانية ، للاقتراب غير المباشر ، ومن الغريب أنها غير رومانية . وهى صورة أورثت التاريخ ، وما أعقبها من التقليد الذى كان الكثير منه رديئا ، عنوانا لضرب من الاستراتيجية يسمى "الاستراتيجية الفابية" . وان كانت فى الواقع سياسة حربية ، لا استراتيجية . فسياسة "فابيوس" الحربية لم تقتصر على تجنب المعارك لكسب الوقت ، ولكنها كانت تقاس بتأثيرها على قوة العدو الأدبية ، وبدرجة أكثر من ذلك على حلفائه المحتملين . فقد كانت اقترابا عسكريا غير مباشر يرمى الى غاية سياسية بدلا من غاية حربية . فان "فابيوس" قد أدرك تفوق هانبال من الوجهة الحربية بدرجة لا يجازف معها بالاحتكام الى المعارك للفصل والبت . وهو فى الحين الذى كان فيه يتحاشى ذلك كان يرمى الى انهاك صبر العدو وجلده بطريقة وخز الابر عسكريا ، وفى نفس الوقت يمنعه من تجديد قوته بالتجنيد من المدن الايطالية أو من قاعدته القرطاجية .

والحالة التى كانت تعتبر مفتاحا للاستراتيجية المنفذة لهذه السياسة الحربية هى أن الرومان يلتزمون دائما التلال فيضيعون على هانبال ميزة تفوق فرسانه الذى لا شك فيه و يبطلون عملها . وعلى ذلك أصبح هذا الطور عبارة عن مشادة بين هانبال وصور الاقتراب الفابى غير المباشر . ففى ذات مرة أفلح هانبال فى استدراج أعدائه الى معركة فى السهل أمام "كانه" وجاءت

نتيجتها مشبعة لشهية مجلس السناتو والقواد الذين هم أكثر ميلا للمعارك من "فابيوس" الى حد التخمة . أما فيما عدا هـذه المعركة فان عزيمة روما التى لم تتحول عن استراتيجية التفادى من المعارك مهما كانت التضحية ، وظروف ذلك العصر ، وضعف هانبال نسبيا وموقفه بصفته غازيا — لبلاد كان تنظيمها ما يزال فى حالة أولية — كل ذلك قد خيب آماله ومراميه . ولما قام "سيبيو" فيما بعد بمقابلة أعمال هانبال بالمثل وغزى قرطاجة غزوا مضادا ، وجد فى رقى النظام الاقتصادى القرطاجى وما بلغه من التطور عونا لمقاصده .

و ينتهى الطور الثانى بطراز آخر من الاقتراب الاستراتيجى غير المباشر . وذلك حينما خدع القنصل " نيرو " هانبال الذى هو أستاذ الخداع وتسلل من أمامه وأسرع فى السير ، سيرا جبريا ، ثم حشد جنوده أمام " هزدرو بال " " الشريك الجديد " الذى كان قد وصل فى ذلك الحين الى ايطاليا الشمالية بجيشه . و بعـد أن أباده على نهر " الميتاوورس " ، وأباد معه آمال هانبال فى النصر الأخير ، عاد بالثانى الى معسكره أمام هانبال قبل أن يدرك هانبال أن المعسكر كان خاليا . و بعد ذلك أصبح مركز هانبال فى ايطاليا فى منتهى الحروجة وسدت فى وجهه كل السبل (مثل الشاه فى لعبة الشطرنج فى حالة " مات ") — وهذا هو الطور الثالث . فبقى طوال خمس سنين فى ايطاليا الجنوبية لا يستطيع أن يتقدم من مكانه . وأخذ قواد الرومان يتبادلون قتاله على التوالى و يرتد الواحد منهم بعد الآخر وهو يضمد جراحه التى أصابته من جراء اقترابه من عرين الأسد اقترابا مباشرا .

غير أنه فى نفس ذلك الوقت كان " بوبليوس سيبيو " الأصغر قد أرسل الى اسبانيا فى مغامرة شاقة ليأخذ ثأر الكارثة التى نزلت بوالده وعمه بعد موتهما و يحافظ على مابقى لروما من مركز ضعيف فى القسم الشمالى — الشرقى من اسـبانيا ازاء القوات القرطاجنية المنتصرة المتفوقة تفوقا كبيرا فى تلك الجهة اذا أمكن ذلك . فاسـتطاع بسرعة حركاته ، وتفوق تكتيكاته ، ومهارة سياسته أن يحوّل غرضه الدفاعى الى حركات تعرضيه تنطوى على زحف غير مباشر على قرطاجة وهانبال . لان اسبانيا كانت قاعدة هانبال الاستراتيجية الحقيقية . ففيها كان يدرب جيوشه ومنها كان ينتظر المدد . فتمكن " سيبيو " بمهارته بالجمع بين المفاجأة والتوقيت من حرمان الجيوش القرطاجنية من قرطاجنة فى بادئ الأمر وهى قاعدتهم الرئيسية فى اسبانيا تمهيدا لحرمانهم من حلفائهم والتغلب على جيوشهم . ثم قفل راجعا الى ايطاليا وانتخب قنصلا فأصبح على استعداد للقيام للمرة الثانية بالاقتراب غير المباشر الحاسم الذى كان هيأه فى عقله منذ زمن طو يل ضد " مؤخرة " هانبال الاستراتيجية . وكان " فابيوس " قد تقدم فى السن و بلغ منه العقل منتهى القوة فنطق بالرأى الصائب حيث قال ان واجب " سيبيو " يقضى بمهاجمة هانبال فى ايطاليا وخاطبه قائلا : " لم لا تجعل هـذه مهمتك وتصل بالحرب الى حيث يوجد هانبال بصورة شريفة لا عوج فيها بدلا من اللف والمداورة منتظرا أنك حينما تجتاز البحر الى أفريقيا يتبعك هانبال اليها . " أما سيبيو فانه نال من مجلس السناتو مجرد الاذن

بالعبور الى أفريقيا ولم يسمح له بتجنيد الجنود. بناء على ذلك شرع فى تجريدته ومعه من الجند مالا يزيد عن ٧,٠٠٠ متطوع وفرقتان (ليجيونان) جردتا من الشرف وعوقبتا بالبقاء فى خدمة الحامية بسيسليا لاشتراكهما فى هزيمة " كانه " . وبنزوله الى البر الأفريقى لم يقابله سوى قوة الفرسان الوحيدة التى كانت لدى قرطاجنة وقتئذ . فتقهقر أمامها تدريجيا واستدرجها الى شرك نصبه لها فأبادها . وبذا لم يكتسب وقتا يوطد فيه مركزه فحسب ، بل أوجد تأثيرا أدبيا حض حكومته على تعضيده بسخاء أكثر مما كان ، وأضعف سلطة قرطاجنة على حلفائها الأفريقيين من جهة أخرى ، ما عدا " سيفاكس " الذى كان فى منتهى القوة .

وبعد ذلك التقى بقوة جندها العدو حديثا وكانت متفوقة عليه عددا بدرجة كبيرة ولكنها كانت مؤلفة من جنود " هزدروبال " الحديثة وجنود " سيفاكس " غير النظامية . فتقهقر " سيبيو " الى شبه جزيرة صغيرة واستحكم فى موقع حصنه ،هو النموذج الأصلى العتيق لخطوط " طورس فدراس " . وهناك تحايل على قائدى الجيش الذى أحاطه وأدخل فى روعهما الاطمئنان من ناحيته .ثم انه تظاهر بالاستعداد لركوب البحر قصد الزحف على "يوتيكا"، وأخيرا قام بمناورة ليلا وهجم على معسكرى العدو . فكان لهذه المفاجأة من التأثير مازعزع قوة العدو المعنوية وأخل نظامه .وضاعف هذا التأثير ما دبره "سيبيو" من الحيلة بتوجيه الهجمة الأولى الى معسكر " سيفاكس " الذى كان أقل نظاما من المعسكر الآخر . اذ كانت أكواخ معسكر "سيفاكس" منتشرة حتى طغت على حدود الموقع المحصن وكانت مصنوعة من القصب والحصر سريعة الالتهاب . ولما أضرمت النار فى هذه الأكواخ ساد الاضطراب وعمت الفوضى فتمكن الهاجمون من دخول المعسكر الرئيسى فى حين أن اللهب المتأجج دفع جنود هزدروبال القرطاجنيين لأن يفتحوا أبوابهم ويخرجوا منها كالسيل الجارف لانقاذ اخوانهم ظنا منهم أن الحريق حصل قضاء وقدرا — لأن الرومانيين عند حلول الظلام التزموا الصمت والسكون فكان معسكرهم الذى يمتد الى مسافة سبعة أميال فى سكون تام . ولم يوجه "سيبيو" هجومه الثانى الى معسكر القرطاجنيين الا بعد أن فتحوا أبوابهم بهذه الحيلة فتمكن من دخوله من غير كلفة شق ثغرة فيه .

واذا كنا فى هذا المقام قد تجاوزنا حدود الاستراتيجية الى التكتيك فى الظاهر ، فذلك لأن هذا النصر الساحق هو فى الحقيقة أعظم مثال فى التاريخ ، الا اذا استثنينا "إيردا" (اسبانيا) حيث لم تقتصر الاستراتيجية على التمهيد للنصر فى معركة بل انها نفذته — اذ كان النصر فى الواقع عبارة عن آخر فصل فى الاقتراب الاستراتيجى . لأن المجزرة التى لا مقاومة فيها ليست معركة .

أما " سيبيو " فانه لم يتحرك فى الحال الى قرطاجة بعد أن انتصر من غير سفك دم . فما هو السبب؟ اذا كان التاريخ لا يجيب على ذلك جوابا صريحا فانه يبين أسبابا للاستنتاج أكثر وضوحا من مسألة اهمال هانبال لروما بعد معركة " ترازيمين " و بعد معركة " كانه " . فما لم تتواجد فرصة وأسباب ملائمة يبنى عليها الأمل باقتحام سريع فان الحصار أبعد كل العمليات الحربية عن الاقتصاد . والتاريخ يؤيد ذلك حتى الى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ واذا كان العدو ما زال يملك جيشا بالميدان يستطيع التصدى فالحصار أيضا أشد خطرا لأن المهاجم تقل قوته فيه تدريجيا بالنسبة لعدوه الى أن يكلل الحصار بالنجاح .

أما " سيبيو " فكان عليه أن لا يحسب حساب أسوار قرطاجة فقط ، بل كان عليه أن يحسب حساب رجوع هانبال أيضا — فكان فى الواقع يحسب حساب هذا الطارئ و يجعله نصيب عينيه . فاذا أمكنه أن يضطر قرطاجة الى التسليم قبل عودة هانبال كانت له من تسليمها ميزة كبرى . على أن ذلك لا بد أن يكون بزعزعة مقاومتها بوسائل أدبية لا تكلفه ثمنا غاليا . لا بوسائل مادية تكلفه بذل قوة قد يرى نفسه بعد بذلها أنه لا يزال أمام أسوار لا ثغرة فيها حينما يهبط هانبال على مؤخرته .

فبدلا من زحفه على قرطاجة أخذ ينقص فى أطرافها التى كانت مورد مؤنها وحلفائها نقصا منظما . وفوق كل شيء كان فصل قسم من قوته لتعقب " سيفاكس " تعقبا لا رحمة فيه والتغلب عليه عملا برته الحوادث كل مبرر . لأنه بعد ان أعاد حليفه "ماسينيسا" الى عرش " نوميديا " ضمن لنفسه موردا للفرسان لمقابلة أحدّ سلاح لدى هانبال .

ولكى يشجع هذا التحريض الأدبى بهذه الأساليب زحف على تونس . على مرأى من قرطاجة ، "كوسيلة لها منتهى التأثير فى القاء الرعب والفزع فى قلوب القرطاجنيين " . فباضافة هذه الوسيلة الى ما تقدمها من أشكال الضغط غير المباشر كانت كافية لزحزحة قوة ارادة القرطاجنيين فى المقاومة فتقدموا لطلب الصلح . على أنهم بينما كانوا فى انتظار ابرام الصلح فى روما اذ أخل القرطاجنيون بالصلح الوقتى عند ما وصلت الأخبار الى قرطاجة بأن هانبال قد عاد وأنه نزل الى البر فى " لبتس ". وبذا أصبح " سيبيو " فى مركز حرج محفوف بالأخطار لأنه وان كان لم يضعف قوته باقتحام قرطاجة الا أنه كان سمح " لماسينيسا " بالرجوع الى " نوميديا " ليوطد مملكته الجديدة — بعد أن قبلت قرطاجة شروط الصلح التى وضعها " سيبيو ". ففى ظروف كهذه كان أمام أى قائد أصولى أن يتبع احدى طريقتين : اما أن ينتهج خطة التعرض ليمنع هانبال من الوصول الى قرطاجة . و إما أن ينتهج خطة الدفاع و ينتظر المدد . على أن " سيبيو " بدلا من اتباعه احدى هاتين الطريقتين سلك سبيلا لو نظر اليه من الوجهة الجغرافية لرؤى عجيبا . ذلك أنه اذا كان الطريق المستقيم الذى يسلكه هانبال من " لبتس " الى "قرطاجة " يرسم الجزء الأيمن من هذه العلامة (٨) فان " سيبيو " بعد

أن ترك قسما من جنـده بالقرب من قرطاجة ليحافظ على معسكره ، سار مبتعدا عنها سالكا سبيل الجزء الأيسر من هذه العلامة (٨) من أعلاه الى أسفله . وهو فى الواقع أقصى أنواع الاقتراب غير المباشر . على أن هذا الطريق الذى هو طريق وادى " البجراداس " ، أوصله الى قلب الجهة التى هى المورد الرئيسى لتموين قرطاجة من داخلية بلادها . وقربه أيضا فى كل خطوة كان يخطوها ، من الامدادات النوميدية التى كان " ماسينيسا " آتيا له بها اجابة لالحاحه فى طلبها منه . وهذه الحركة أدركت غرضها الاستراتيجى . فان مجلس السناتو بقرطاجة داخله الفزع لما علم بأخبار أعمال التخريب المتمادية فى هذا الاقليم الحيوى فأرسل رسله لتلح على هانبال بأن يتصدى " لسپيو " فى الحال ويشتبك معه فى معركة . ومع أن هانبال أجابهم بأن " يتركوه وشأنه فى هذا الأمر " الا أن الظروف — التى أوجدها " سپيو " — ألجأته الى التحرك غربا بسير جبرى لملاقاة " سپيو " بدلا من التحرك شمالا الى قرطاجة . وبهـذه الوسيلة استدرجه " سـپيو " الى ساحة اختارها ، حيث كان ينقص هانبال المدد المـادى من نقطة ثابتة يتخذها محورا لحركاته ، وملجا يلجأ اليه فى حالة الانكسار ، وهما ما كانا يتوافران لو ان المعركة تشبت بالقرب من قرطاجة . ومع ذلك فلم يكتف " سپيو " بهـذا التدبير . فانه قد اضطر خصمه لأن يسعى لدخول معركة بحكم الضرورة ، وأراد أن يستغل هذه الميزة الأدبية الى أقصى درجة . ولمـا اتصل به " ماسينيسا " ، وكان اتصالها فى الوقت الذى وصل فيه هانبال بوجه التقريب ، تقهقر " سپيو " بدلا من أن يتقدم فجذب هانبال الى مكان يعسكر فيه كان خاليا من المـاء فتكبد القرطاجنيون من قلة المياه ما تكبدوا . ثم اسـتدرجه الى ميدان للمعركة فى سهل صالح لأعمـال الفرسان الذين انضموا حديثا الى سپيو حيث يتسع أمامهم المجال لاستغلال ميزتهم الى أبعد حد . فهو قد احتال بالخدعتين الأوليين ، ففى ميدان المعركة " بزاما " (والأصح " ناراجارا ") تمكن من الغلبة بفضل تفوقه تكتيكيا بحيلة فرسانه على حيلة " فرسان " هانبال التى اشتهروا بها من قبل . ثم لمـا لحقت بهانبال الهزيمة التكتيكية لأول مرة تغلبت عليه أيضا نتائج هزيمته الاستراتيجية الابتدائية . فلم توجد قلعة قريبة منـه يلجأ اليها الجيش المهزوم ويتجمع بها قبل أن تبيده المطاردة . وأعقب ذلك تسليم قرطاجة من غير سفك دماء .

فحملة " زاما " قد صيرت روما الدولة التى لها السيادة على عالم البحر الأبيض المتوسط ثم ان اتساع هذه السيادة فيما بعد وتحولها الى حاكمية استمر دون أن يلقى عائقا ذا بال وان كان لا يخلو من تهديد كان يلقاه أحيانا . ولذلك فان سنة ٢٠٢ ق.م. تعتبر النهاية الطبيعية لبيان الانقلابات التى حصلت فى التاريخ العتيق وأسبابها العسكرية . وأخيرا أخذ مد التوسع الرومانى يتحول الى جزر . ثم قدر للامبراطورية العامة أن يعتورهـا التجزؤ بعضه تحت ضغط الأقوام البربرية . وأكثر منه بسبب الانحلال الداخلى .

وفى عصر " الانحطاط والسقوط" أثناء القرون التى كانت فيها أوربا تبذل بشرتها ذات اللون الواحد وتستبدل بها بشرة جديدة ذات ألوان كثيرة توجد فائدة تكتسب من دراسة القيادة العسكرية . ففى بعض الأحيان تكتسب فوائد كثيرة . كما فى حالة "بليزار يوس" وقادة الامبراطورية البيزانطية الذين أتوا بعده . ولكن بوجه العموم توجد صعوبات تحول دون بيان الحسم وايضاحه . كما أن غموض الانقلابات ، وعدم التأكد من الاستراتيجية المثمرة التى ترمى الى أغراض ، وعدم الاعتماد على الموارد المستقاة منها المعلومات ، كل هذه تحول دون ايجاد أساس للاستنتاجات العلمية . على أن هناك حربا داخلية تستدعى فحصا ، قبل ختام مبحث الاستراتيجية العتيقة . وذلك بسبب أنها كانت مسرحا لأحد كبار قادة التاريخ من غير نزاع ولا جدال ، من جهة . ولأنها كانت ذات تأثير حيوى على مجرى التاريخ من جهة أخرى . لأنه كما أن الحرب القرطاجية الثانية أعطت الدنيا لروما . كذلك أعطت الحرب الأهلية التى وقعت فى سنة ٥٠ الى سنة ٤٥ ق.م. العالم الرومانى "لسيزار" — وحكم القياصرة . فلما عبر "سيزار" نهر "الروبيكون" فى ديسمبر سنة ٥٠ ق . م . كانت قوته تستند على بلاد "الجول" (الغلوا) و"ايليريكام" . وكانت "لپومبى" السيطرة على ايطاليا وبقية الممتلكات الرومانية . وكان "لسيزار" تسعة (ليجيونات) فرق ولكن لم يكن معه منها فى "رافنا" سوى واحدة . وكان "لپومبى" عشرة ليجيونات فى ايطاليا . وسبعة فى أسبانيا وأقسام كثيرة فى بقية أنحاء الامبراطورية . على أن الفرق التى كانت فى ايطاليا لم تزد عن مرتب الموجود مع (النسر) (أى البيارق أى تحت السلاح) — والفرقة الجاهزة كانت تعادل أكثر من فرقتين غير معبأتين (أى بمرتب أيام الحرب) . وقد وجه الانتقاد "لسيزار" لتهوره اذ تحرك نحو الجنوب بجزء ضئيل من جيشه . غير أن العنصرين الحيويين فى الحرب أكثر من غيرهما هما الزمن والمفاجأة . وكان "سيزار" يقدرهما حق التقدير أما فيما عداهما فكانت استراتيجيته تسترشد فى جوهرها بدرجة فهمه لعقلية "پومبى" .

فمن "رافنا" الى "روما" يوجد طريقان اختار "سيزار" أطولها وأقلهما استقامة — هابطا على الساحل الادرياتيكى — ولكنه أسرع فى حركته . و بمروره من هذه الجهة الآهلة بالسكان انضم اليه كثير من أفواج المجندين الذين كانوا يتجمعون "لپومبى" — كما حصل لنابليون فى سنة ١٨١٥ . ولما تزلزلت القوة المعنوية فى حزب "پومبى" هجر روما تاركا الخزينة العامة وتقهقر الى "كاپوا" فى حين أن "سيزار" دخل بين قوات العدو الأمامية الموجودة فى "كورفينيوم" وقوته الرئيسية الموجودة مع "پومبى" حول "لوسيريا" فنقل قوة أخرى الى جانبه من غير سفك دماء . و بعد ذلك استتر فى زحفه جنوبا نحو "لوسيريا" واستمرت سرعته كما كانت . على أن زحفه صار الآن مباشرا ففزع العدو وتقهقر الى ميناء "بروندزيوم" (برندزى) المحصن فى أسفل ايطاليا . فكان من النشاط الذى تعقبه به ان قرر "پومبى" على عجل لأن يجتاز الادرياتيك الى بلاد اليونان . وهكذا كان من نتائج تمادى "سيزار" فى الاقتراب

المباشر وقلة الدهاء فى الطور الثانى ، حرمانه من الفرصة التى كانت لديه لانهاء الحرب بحملة واحدة والحكم على نفسه بقضاء أربع سنين أخرى فى حروب طاحنة حول حوض البحر الأبيض المتوسط .

ثم افتتحت الحملة الثانية . وبدلا من أن يقتفى "سيزار" أثر "بومبى" على خط مستقيم حول فكره وجنوده الى أسبانيا . وقد لاقى انتقادا كثيرا لحشد قوته ازاء "الشريك الأصغر" بهذا الأسلوب على أن تقديره لدرجة جمود بومبى قد برزته هـذه الحادثة . وفى هذه المرة تغالى "سيزار" فى عدم التحفظ وزحف زحفا مباشرا على قوات العدو الرئيسية فى "إليردا" عبر جبال "البرينيس" فتمكنت من اجتناب المعركة ، وخاب الاقتحام . ونجا سيزار من نزول كارثة به بتدخله شخصيا . على أن قوة جنـوده المعنوية أخذت فى النقص واستمرت تتناقص حتى عاد "سيزار" فى الوقت الملائم وغير طريقة اقترابه . وبدلا من ابداء أى محاولة أخرى كالتشدد فى الحصار وجه كل مساعيه ومجهـوداته لانشاء مخاضة صناعية مكنته من الحكم على كلا شاطئ نهر "سيكوريس" القائمة عليه "إليردا" فكان من شأن هذا التهديد الموجه الى تضييق الخناق على الموارد التى تستمد منها قادة "بومبى" مؤنهم أن حضهم على التقهقر قبـل فوات الأوان فتركهم "سيزار" يتسللون من غير أن يضغط عليهم ولكنه عوضا عن ذلك بعث فرسانه من الجول ليبقوا على مؤخرتهم فيؤخروا سيرهم . ثم انه بدلا من أن يقتحم الجسر (الكوبرى) المحتل بحرس العدو الخلفى جازف بقيادة فرقة مجتازا بها المخاضة العميقة التى كانت معتبرة غير قابلة للخوض الا بالفرسان ثم سار على دورة واسعة أثناء الليل واعترض خط رجعة العدو . ولم يحاول دخول المعركة حتى فى ذلك الحين بل اكتفى بأن يحول بين العدو واتخاذه خط رجعة جديد بان استخدم فرسانه فى مضايقته بينما كانت فرقه تتوغل فى المسير . ثم كبح شوق رجاله للقتال وفى نفس الوقت شجعهم على التآخى مع رجال الفريق الآخر الذين أخذ منهم التعب والجوع ، وثبوط الهمم ، كل مأخذ . وأخيرا ، لما أرجعهم بحيلته فى اتجاه "إليردا" واضطرهم الى اتخاذ موقع لا ماء فيه ، سلموا أنفسهم . فكان هذا نصرا استراتيجيا لم يسفك فيه دم غالب ولا مغلوب — وكلما قل عدد قتلى العدو ازداد عدد أتباع "سيزار" بينهم ومجنديه . وعلى الرغم من استبداله المناورات بالاقتحام المباشر فان الحملة لم تكلفه من الوقت أكثر من ستة أسابيع ، ولكنه فى الحملة التالية غيراستراتيجيته فاستمرت ثمانية أشهر قبل أن يكمل النصر جنوده وحتى حينذاك لم يكن نصرا تاما .

ثم ان "سيزار" بدلا من أن يزحف الى داخلية بلاد اليونان بالطريق البرى غير المباشر بأن يجتاز "ايليريكوم" قرر اره على سلوك الطريق المستقيم الذى هو طريق البحر . وبذلك اكتسب وقتا فى بادئ الأمر ولكنه خسره أخيرا . فان "بومبى" كان يملك من الأصل أسطولا كبيرا ، أما "سيزار" فلم يكن له أسطول . ومع أنه أمر ببناء أسطول أو جمع سفن

(٣)

فى نطاق واسع فلم يتوافر لديه الا قسم من السفن . و بدلا من أن ينتظر أقلع بسفنه من مينا برنديزى بقوة تكاد لا تبلغ نصف القوة التى جمعها . ولما نزل الى البر فى " بالايست " تقدم صاعدا على الشاطئ قاصدا ميناء "ديراكيوم" الشهيرة ، ولكن "پومبى" سبقه اليها بزمن يسير ومن حسن حظ " سيزار " ان كان " پومبى " متباطئا كعادته فأضاع فرصة استخدام قوته المتفوقة قبل أن يمكن "أنطونيو" ومعه النصف الآخر من جيش "سيزار" من الانضمام اليه بعد أن غافل أسطول العدو وأفلت منه . حتى بعد أن نزل "أنطونيو" الى البر فى الجانب الآخر من "ديراكيوم" عجز "پومبى" عن منعه من الاتصال "بسيزار" فى "تيرانا" مع أنه كان بينهما فتقهقر " پومبى " وتبعه عدوه وعرض عليه دخول معركة من غير طائل . و بعد ذلك صمد الجيشان يواجه أحدهما الآخر على الشاطئ الجنوبى لنهر "الجنوسوس" الواقع جنوبى "ديراكيوم" فقام "سيزار" بسير دائر شاق لمسافة نحو ٤٥ ميلا مجتازا التلال حتى صار بين "ديراكيوم" و "پومبى" قبل أن يتيقظ "پومبى" لهذه الحركة فعاد الى "ديراكيوم" مع أن المسافة بينه وبينها كانت لا تزيد عن ٢٥ ميلا على خط مستقيم . أما " سيزار " فانه لم يستغل الميزة التى كانت لديه . ولما كان "پومبى" يتموّن من طريق البحر فلم يوجد محرض يحرض رجلا من معدنه لأن يهاجم "سيزار" و بعد ذلك اتخذ "سيزار" الطريقة الأصلية المجردة من الفائدة وهى طريقة انشاء خطوط طويلة يحاصر بها جيشا لا يفوق جيشه قوة فحسب ، بل فى استطاعته تموين نفسه بسهولة . أو الرحيل بطريق البحر متى أراد .

فتى " پومبى " مع ما هو عليه من الجمود لم يستطع أن يترك الفرصة التى سنحت له دون أن ينتهزها لا تزال ضرباته بالنقط الضعيفة الموجودة فى مثل هذا الخط الرقيق . فنجح نجاحا أدى "بسيزار" لأن يقابله بحشد جنوده والقيام بهجمة مضادة انتهت باخفاق وكارثة . ولم يحل دون ابادة جنود "سيزار" الذين تزعزعت قوتهم المعنوية سوى عدم نشاط "پومبى" .

وأراد جنود "سيزار" أن يقودهم قائدهم مرة أخرى للقاء العدو ولكن "سيزار" كان قد تعلم درسا . و بعد أن رجع بسلام عاد الى استراتيجية الاقتراب غير المباشر . وسنحت الفرصة أيضا " لپومبى " ليستخدمها بأن يعبر الادرياتيك مرة أخرى و يستعيد سيطرته على ايطاليا اذ يكون الطريق ممهدا أمامه بفضل التأثير الأدبى الذى أحدثته هزيمة سيزار . وأدرك "سيزار" ماهذه الحركة الغريبة من القيمة ، وما ينشأ عنها من الخطر . فأسرع بالحركة شرقا لملاقاة "سبيوناسيكا" من قواد "پومبى" الموجود فى مقدونيا . فأثرت حركته هذه على عقل "پومبى" فتبع "سيزار" واتخذ طريقا غير الذى سلكه "سيزار" فنجد "سبيو" . وقد وصل "سيزار" أولا ولكنه بدلا من أن يدفع جنوده الى الاستحكامات أتاح " لپومبى "أن يصل . فضياع هذه الفرصة بحسب الظواهر طبقا لقوانين الحرب قد يكون سببه ماعلق بذهن "سيزار" من أنه بعد الذى حصل فى "ديراكيوم" لابد من محرض "قوى" يحرض "پومبى"

على قبول النزال فى معركة فى العراء . فاذا كان الأمر كذلك فقد أصاب لأن قواد "بومبى" وجدوا صعوبة فى حضه على قبول المعركة مع أنه كان متفوقا عددا بنسبة واحد الى اثنين . وما كاد "سيزار" يهيئ سلسلة من المناورات ليوجد الفرصة حتى تقدم "بومبى" وهيأها له فى "فارسالوس" (فرسالة) فمن وجهة مصلحة "سيزار" كانت المعركة سابقة لأوانها من غير شك وذلك بنسبة قرب حصول النتيجة النهائية . لأن اقتراب "سيزار" اقترابا غير مباشر كان بنية استرجاع الموازنة الاستراتيجية فكان عليه أن يقترب اقترابا آخر ليقلب موازنة "بومبى" رأسا على عقب . وهذا الاقتراب هو الذى قام به بومبى .

وبعد انتصار "سيزار" فى "فارسالوس" طارد "بومبى" عبر بوغاز الدردنيل (أى الى الجانب الآخر منه) ومن خلال آسيا الصغرى. ومنها عبر البحر الأبيض المتوسط الى الاسكندرية حيث قتله "بطولومى" (بطليموس) غيلة وأراح منه "سيزار". على أن "سيزار" أضاع الفائدة بتدخله فى النزاع القائم بين بطليموس وأخته كليوبترا من جراء عرش مصر فأضاع بذلك ثمانية أشهر قضاها فى حرب لا ضرورة لها مطلقا . والذى يلوح هو أن عيب "سيزار" المتأصل فيه الذى كان يعاوده كثيرا هو توجيه كل التفاته نحو الغرض الذى أمام عينه مباشرة واغفال الغرض الأبعد منه .

وهذه الفترة مكنت القوات البومبية من التجمع والشروع فى حياة جديدة فى أفريقيا وأسبانيا . أما فى أفريقيا فقد ازدادت مصاعب "سيزار" بسبب "العمل المباشر" الذى كان نائبه "كوريو" ألفه من قبل. فان (كوريو) بعد أن نزل الى البر وفاز بالنصر الأول مكن الملك "جوبا" حليف حزب "بومبى" من استدراجه الى شرك نصبه له فأباده . وأما "سيزار" فانه افتتح حملته الأفريقية بنفس استقامة الاتجاه ، والاندفاع ، وعدم كفاية الجنود التى كان عليها فى حملته الاغريقية . فكان يقع فى الشرك كعادته ويخلص نفسه بما اعتاده من حسن الحظ والمهارة التكتيكية معا . وبعد ذلك استقر فى معسكر محصن بالقرب من "روسبينا" فى انتظار وصول فرقه (ليجيوناته) الأخرى رافضا كل اغراء على دخول المعارك . وتملكته خلة حقن الدماء بالتماس المناورات الى درجة أنه حتى بعد وصول المدد اليه كان يتبع استراتيجية تنطوى على اقتراب غير مباشر لدرجة متطرفة ضيقة الحدود . فكان يقوم بالمناورة عدة مرات لكى يوقع بخصمه وخزاكوخز الإبر ظهرت نتائجه فى قوة العدو المعنوية بعدد الفارين من جيشه الذين كانوا يتدفقون تدفق السيل . وفى آخر الأمر اقترب من قاعدة العدو الكائنة فى "ثابسوس" اقترابا أكثر بعدا عن الاستقامة المباشرة فأوجد فرصة ملائمة للمعركة. فما كان من جنوده الا أن جمحوا فاندفعوا للهجوم وربحوا المعركة من تلقاء أنفسهم . أما فى حملته الأسبانية التى جاءت بعد ذلك وكانت ختام الحرب فانه اجتهد من أول الأمر أن يتجنب اتلاف الأنفس وكان لا ينقطع عن المناورات فى حدود ضيقة حتى يجعل عدوه فى وضع

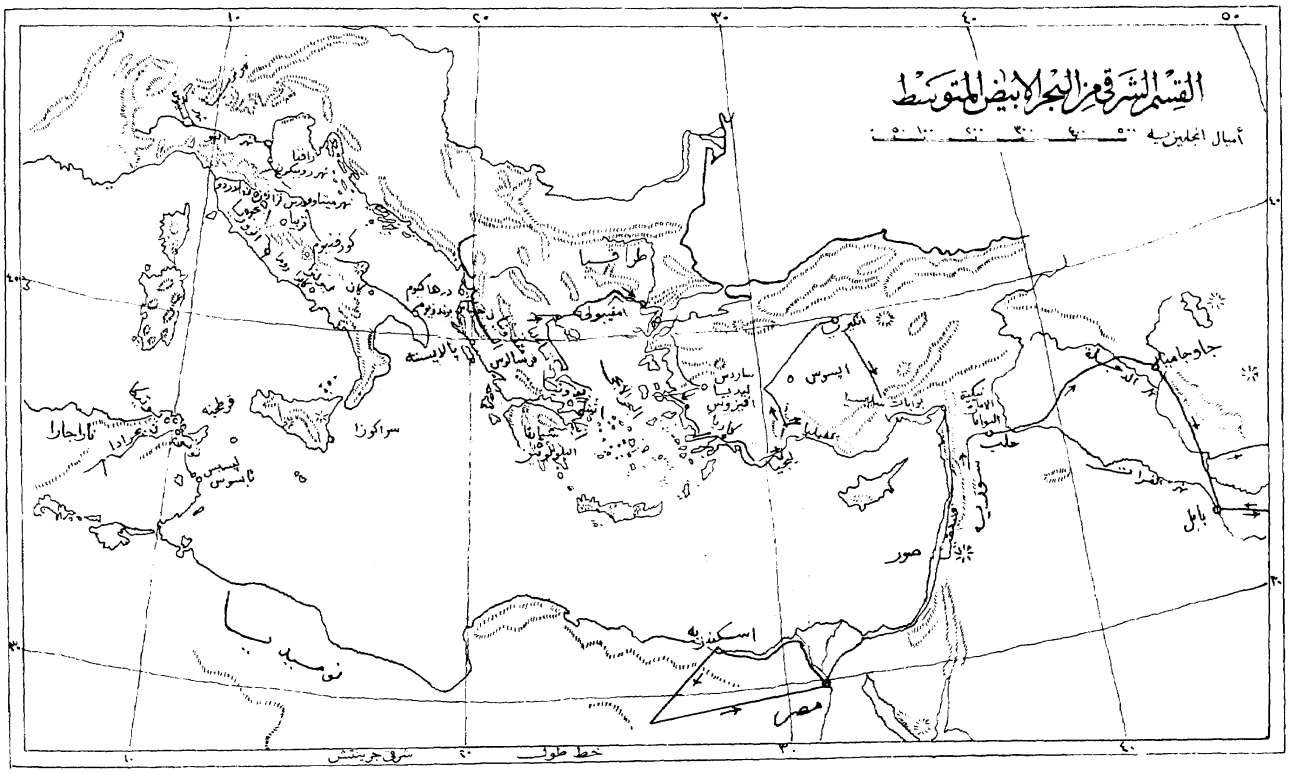
القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط
أميال انجليزيه
خط طول
شرق جرينتش
١٠
٢٠
٣٠
٤٠
٥٠
مصر
اسكندريه
صور
بابل
حلب
انطاكيه
ايسوس
سراكوزا
نوميديا
طرابلس
تونس
قرطاجنه
ناپولي
روما
ميلانو
البندقيه
فينا
براغ
برلين
كوبنهاجن
ستوكهولم
بطرسبرج
موسكو
وارسو
بودابست
القسطنطينيه
سمرنا
ازمير
ارضروم
تبريز
بغداد
دمشق
القدس
بيروت
طرابزون
سامسون
انقره
اسطنبول
سالونيك
ليبريا
اثينا
قبرص
رودس
كريت
مالطه
صقليه
سردينيا
كورسيكا
مرسيليا
باريس
لندن
جبل طارق

— ٣٠ —

يضمن له طالع المعركة . وقد فاز بذلك فى "موندا" ففاز بالنصر على أن ضيق مجال النضال وفداحة الخسائر فى الأنفس التى تكبدها فى هذه المعركة بسببه تبين الفرق بين الاقتصاد فى القوة ومجرد الحرص على القوة . فاقتراب "سيزار" غير المباشر يظهر عليه ضيق الحدود ، ونقص المفاجأة . ففى كل حملة من حملاته كان يتعب قوة العدو المعنوية ولكنه لا يزحزحها . ويظهر أن السبب فى ذلك هو أنه كان يوجه التفاته الى عقلية جنود العدو أكثر من توجيهه الى عقلية قائدهم . ولكن اذا كان من شأن حملاته أن تؤدى الى التمييز بين احدى صفتى الاقتراب غير المباشر والأخرى — أى الاقتراب من جنود العدو ومن قائدهم — فانها تبين أيضا بصورة بارزة الفرق بين الاقتراب المباشر ، والاقتراب غير المباشر . لأن "سيزار" كان يؤوب بالفشل فى كل مرة يعتمد فيها على الاقتراب المباشر كما كان يصالح خطأ ويعوض الفشل فى كل مرة يرجع فيها الى الاقتراب غير المباشر .

الباب الرابع

حروب القرون الوسطى

هذا الباب هو عبارة عن مجرد حلقة اتصال بين دورات التاريخ العتيق والتاريخ الحديث لأنه بالرغم مما فى عدة من حملات الأعصر الوسطى الحربية من الاغراء والترغيب فان المصادر التى نستمد منها معلوماتنا عنها أضعف بكثير من مصادر العصور التى تقدمتها والتى أعقبتها وأقل منها ثقة . والطريق الأمين لاستنتاج العلل ونتائجها فى الحقائق العلمية هو أن نؤسس تحليلنا للتاريخ على حقائق ثابتة ونتجاوز عن بعض أزمنة حتى ولو نضحى فى هذا التجاوز بأدلة مؤيدة ذات قيمة ، متى قضت الضرورة بالاختيار بين أوجه النقد المتضاربة فيما يختص بالمصادر التاريخية أو المنصوص عنها فى الكتب . نعم ان الجدل قد احتدمت سورته فى تفصيلات التاريخ الحربى للقرون الوسطى من الوجهة التكتيكية لا من الوجهة الاستراتيجية ، ولكن تضارب الآراء فى هذا الموضوع وما أحدثه من الغموض قد يخفى كلا الوجهتين عن نظر الطالب الحربى العادى ويجعله فى شك من الاستنتاجات المستخرجة عن ذلك العصر . غير أننا نشير اشارة طفيفة الى بعض الحوادث التى وقعت فيه كوسيلة لعرض ما قد تنطوى عليه من الفائدة ومما يستدعى الاهتمام . دون أن ندخلها فى تحليلاتنا الدقيقية .

ففى الغرب فى إبان الأعصر الوسطى كانت الروح العسكرية فى عهد الاقطاعات "الفروسية" معادية للفن . على ان غباءها المطلق من الوجهة الحربية كان يتخلله شىء من الضوء الباهر . وربما كان لا يقل عن نسبة ما تخلل أى عصر من عصور التاريخ .

فالنورمانيون سكان نورماندیا بدأوا بارسال أول اشعاع من بصيص النور ثم أخذ نسلهم يضيىء سبيل حروب الأعصر الوسطى وسيرها بدلا من سفك دمائهم . وعلى كل حال فان ما أعطوه لهذه الحروب من القيمة أدى بهم الى بذل عصارة أذهانهم بدلا من بذل دمائهم وقد عاد عليهم ذلك بفائدة تذكر .

فالتاريخ الذى يعرفه كل ولد من أولاد المدارس ، ان لم يعرف غيره ، ألا وهو سنة ١٠٦٦ قد سطع فيه نورضربين من الاستراتيجية والتكتيك ، فيهما من المهارة بقدر ما كانت نتيجتهما حاسمة لا بالنسبة لغرضها الخاص فقط ، بل كانت ذات أثر على كل مجرى التاريخ . فان غزو "وليم" لبلاد الانجليز قد استفاد من تحويل استراتيجى (أى ارباك العدو وايقاعه فى حيرة) . وبهذا التحويل اكتسب فضيلة الاقتراب غير المباشر من بادئ الأمر . هذا التحويل كان عبارة عن نزول " توستج " الذى كان ثائرا على أخيه الملك "هارولد" الى البر على شاطئ

"يوركشير" ومعه حليفه، "هارولد هاردرادا"، ملك "النورويج" ومع ان هذا الخطر كان يظهر أنه أقل قربا من خطر غزوة "وليم" فانه كان أسرع منها فى تطوره ونموه . ولذلك زاد الخطط التى وضعها "وليم" قوة وان كان "توستج" قد لاقى الهزيمة فى أوانها . وبعد ابادة غزاة قبائل الشمال (الاسكندیناف) على جسر (كوبرى) "ستامفورد" بيومين ، نزل "وليم" الى البر على شاطئ "ساسكس" . وهنا بدت أول بوادر "وليم" العبقرية . فانه بدلا من أن يزحف نحو الشمال استدرج "هارولد" الى الاندفاع نحو الجنوب لا يلوى على شيء وليس معه الا جزء من قوته . وذلك بأن أعمل السلب والتخريب فى مقاطعتى "كنت" و"ساسكس" . فكلما ابتعد "هارولد" نحو الجنوب وكلما بادر بالنزال فى معركة كلما اتسع المدى بينه و بين مدده سواء فى المسافة وفى الزمن . وهذا الحساب قد بررته الحوادث واشتبك "هارولد" فى معركة ، لما اضطره اليها "وليم" ، على مرأى من شاطئ القنال (الانجليزى) وحسم "وليم" النتيجة التكتيكية باقتراب غير مباشر — بأن أمر قسما من جنوده بأن يتصنعوا الفرار فكان ذلك سببا فى زحزحة أوضاع خصمه . وفى الطور النهائى للمعركة ابتكر "وليم" حيلة رمى النبال بزوايا مرتفعة تسبب عنها موت "هارولد" . وهذه يصح تسميتها اقتراب برمى غير مباشر .

ثم ان استراتيجية "وليم" بعد هذا الانتصار كانت مما يستحق التنويه بدرجة لا تقل عن سابقتها . ذلك أنه بدلا من السير الى "لندن" مباشرة أمن "دوفر" فى بادئ الأمر ومواصلاته البحرية . وعند وصوله الى ضواحى لندن تحاشى أى اقتحام مباشر ، بل انه استعاض عنه برسم دائرة حولها من جهة الغرب ثم من جهة الشمال . وهى دائرة ملأها بالتخريب والاتلاف حتى سلمت العاصمة بعد أن تهددتها المجاعة حينما وصل "وليم" الى "بركهامستد" .

وشاهد القرن التالى أدلة أخرى على عبقرية النورمانيين فى الحروب كما شاهد حملة حربية من أشد حملات التاريخ إثارة للدهشة . تلك هى غزو القسم الأعظم من ايرلندا ، وقيام ايرل "سترونجبو" وبضع مئات من فرسان مستنقعات بلاد "الويلز" بصد غزو نورمانى قوى . وهو عمل مجيد جدير بالذكر لا بسبب الضآلة المتناهية فى الوسائل ومنتهى الصعوبات فى البلاد ذات الغابات والمستنقعات فقط ، بل أيضا بسبب الحذق فى التخلى عن طرائق الحرب التى كانت على عهد الاقطاعات واتباع عكسها . فقد أظهروا براعة وحسن حساب فى طريقة استدراج عدوهم الى المعارك فى العراء مرارا وتكرارا ، حيث كانت هجماتهم فوق ظهور الخيل تثمر الى أكمل حد . وذلك بطريقة استغلال الرجعات المصطنعة ، والتحويل (تشتيت أفكار العدو) ، والهجمات الخلفية للتغلب على مقاومته . ثم بالمفاجآت الاستراتيجية ، والهجمات الليلية ، ورمى النبال للتغلب على المقاومة حينما يتعذر عليهم استدراج العدو الى الخروج من مكمنه فى الدفاعات المحصنة .

على أن القرن الثالث عشر كان أكثر إثمارا من الوجهة الاستراتيجية. وأول ثمرة ظهرت فى سنة ١٢١٦ حينما أنقذ الملك "جون" مملكته بعد أن كاد يفقدها . وذلك بحملة حربية كانت فيها الاستراتيجية الخالصة غير مختلطة بالمعارك . وكانت وسائله اذ ذاك سرعة الحركة وخفتها ، وقوة المقاومة المتوفرة فى القلاع فى ذلك الوقت ، ونفسية أهالى المدن الموروثة عن كراهيتهم للبارونات وحليفهم الأجنبى " لويز" ملك فرنسا . ولما احتل " لويز" لندن ووِنشستر بعد أن نزل الى البر فى "كنت" الشرقية كان " جون " ضعيفا لدرجة أنه لم يستطع مقاومته فى معركة . فكان البارونات متسلطين على القسم الأعظم من البلاد . على أن "جون" مازال محافظا على قلاع "وندسور" و " ردنج " و "والنجفورد" و "اكسفورد" التى كانت حاكمة على خط "التميز" وفاصلة لقوات البارونات الموجودة شماليها وجنوبيها ، بينما كان معقل " دوفر" الذى هو المفتاح باقيا على مؤخرة "لويز" ولم يستول عليه . وكان "جون" قد رجع الى " دورست " ولكن لما زاد الموقف وضوحا سار الى جهة الشمال فى يوليو حتى "ورسستر" واستولى على خط نهر "السفرن" وبذا أقام حاجزا يمنع طغيان الثورة وامتدادها غربا والى الجنوب الغربى . ومن هناك تحرك نحو الشرق على طول خط التميز المكتسب من قبل كأنه يقصد خلاص "وندسور" .

ولكى يثبت هذا الاعتقاد عند المحاصرين أرسل قسما من رماة القسى "الواليين" (ولش) ليطلقوا سهامهم فى معسكرهم ليلا ، بينما تحول هو نحو الشمال الشرقى فربح السباق الى "كيمبردج" بفضل مبادرته . وأصبح الآن قادرا على اقامة حاجز آخر يعترض الطريق الموصل الى الشمال بينما كانت جنود الفرنساويين الرئيسية مقيدة بحصار "دوفر" . ثم ان احاطته بساحة المقاومة والعصيان وتضييق حدودها كان معناها فشل العصاة وحلفائهم برغم أن "جون" نفسه توفى فى شهر أكتوبر . واذا كان موته بتخمة من أكل السمك فقد كان موتهم بتخمة الاكثار من الحصون .

أما الثورة التالية الناجحة التى ثارها البارونات فقد أخمدها الأمير "إدوارد" الذى صار فيما بعد "إدوارد الأول"، فى سنة ١٢٦٣ ، بفضل مهارته الاستراتيجية . ثم كانت نتيجة هزيمة الملك "هنرى" الثالث فى "لويز" استقرار سلطة حزب البارونات فى معظم أنحاء انجلترا الا فى مستنقعات بلاد " الويلز" . فسار اليها "سيمون دو مونتفورت" . وعبر "السفرن" ثم توغل فى طريقه ظافرا حتى وصل الى " نيو بورت " . فجاء البرنس " إدوارد" الذى فر من جيش البارونات وانضم الى أتباعه الموجودين ببلاد الحدود وزعزع الخطط التى وضعها "دومونتفورت" باستيلائه على جسور (كبارى) " السفرن " الكائنة وراء " دومونتفورت " ثم تحرك هابطا على مؤخرته . ودفعه " إدوارد" فوده لا الى ماوراء نهر " الأوسك " فحسب ، بل انه أغار على سفنه ، بثلاث سفن من ذوات المجاديف ، فأفسد خطته الجديدة للرجوع بجيشه الى انجلترا

بطريق البحر . فاضطر "دومونتفورت" لأن يسير سيرا ملتفا شاقا الى جهة الشمال مجتازا مقاطعات بلاد "الويلز" القحلاء بينما رجع "ادوارد" الى "ورسستر" ليرابط على نهر "السفرن" وينتظر وصوله . ولما سار ابن "دومونتفورت" لنجدة أبيه بجيش أتى به من شرق انجلترا انتفع "ادوارد" بموقعه المتوسط بينهما لسحق كل منهما على حدة وهو منفصل عن الآخر ولا يعلم عنه شيئا . وذلك بالسير ذهابا وجيئة الذى استغل فيه سرعة الحركة وقام بمفاجأتين ساحقتين .

وقد أتيح "لادوارد" وهو ملك أن يخدم العلم العسكرى خدمات أجل من تلك فى حربه ببلاد "الويلز" لا بالتوسع فى استعمال القوس والجمع بين هجمات الفرسان والرمى بالنبال فحسب، بل انه زاد على ذلك كثيرا بطرائقه الاستراتيجية فى الفتوحات . فكانت المسألة التى تواجهه مسألة اخضاع عنصر جبلى وحشى شديد البأس يستطيع تجنب المعارك بالركون الى التلال ويعود الى احتلال الأودية عند مايوقف الغازى عملياته فى فصل الشتاء . واذا كانت وسائل "ادوارد" محدودة نسبيا فقد كانت لديه ميزة أخرى أيضا هى أن البلاد كانت محدودة كذلك . والحل الذى رآه هو الجمع بين خفة الحركة والنقط الاستراتيجية . فبنى قصورا حصينة فى تلك النقط ووصلها بطرق ، ثم أوجد عدوه فى حركة دائمة فلم يستطع تجديد قوته الجثمانية والنفسية أو أن يستريح من الوجهة الجغرافية فى فصل الشتاء فشتت قوته شذر مذر وأنهك قوة مقاومته. وكما كانت طريقته صورة من طريقة الرومان فقد كانت نموذجا سابقا لطريقتنا فى الحدود الشمالية الغربية من الهند .

على أن مواهب "ادوارد" الاستراتيجية لم تعش بعده ، وفى حرب المائة عام لا يوجد شىء يستحق التعلم الا تعلما سلبيا من استراتيجية حفيده أو ابن حفيده. فان المظاهرات التى لا طائل تحتها التى قاما بها فى فرنسا كانت لا أثر لها عادة . أما القليل منها الذى كانت له نتائج أعظم فكان وليد حماقتهما المتزايدة . فان كلا من "ادوارد" الثالث والأمير الأسود (بلاك برنس) أوقع نفسه فى مأزق حرج ، الأول فى حملة "كريسى" ، والثانى فى حملة "پواتيه" . وكلا الحملتين كان غير مباشر بدرجة متناهية جاءت عن غير قصد فان المركز السيئ الذى كان فيه الانجليز حرض خصماءهم البسطاء العقول لأن يندفعوا الى المعركة غير لاوين على شىء فى ظروف لم تكن فى صالحهم بل كانت ضدهم تماما فأتاحوا للانجليز أن يخلصوا أنفسهم من الورطة التى كانوا فيها. فان المعركة كانت دفاعية وفى أرض اختارها الانجليز لأنفسهم فكان من شأن قسيهم الطويلة وتكتيكات الفرنسيين، فى عهد الفروسية والبطولة، التى لا ثمرة فيها أن أكدتا تفوق الانجليز تكتيكيا .

على أن فداحة هذه الهزائم التى أصابت الفرنسيين فى المعارك عادت عليهم بفائدة . فانهم فى المرحلة التالية من مراحل الحرب أصروا على التزام السياسة "الفابية" التى اتبعها الكونستابل "دوجوسلين" . والاستراتيجية التى نفذ بها هـذه السياسة كانت عبارة عن تجنب المعارك مع الجيش الانجليزى الرئيسى بينما كان لا ينقطع عن مضايقة حركات عدوه وانقاص أراضيه . فان استراتيجيته كانت بعيدة كل البعد عن الطرائق السلبية بتجنب المعارك ، بل كانت عبارة عن استغلال خفة الحركة والمفاجأة لدرجة لم يصل اليها الا القليل من القادة ، فكان يتصدى لقوافل النقل ويستولى عليها أو يبيدها ، ويبيد الأقسام المنفصلة ، ويأسر الحاميات المتطرفة . وكان يسلك دائما الخط الذى هو أبعد ما يتوقعه العدو لقدومه . وكانت طرائقه السريعة الحديثة المنطوية على هجمات الاقتحام ، واختيار أغراضه بتقديرها من الوجهة النفسية حيث تكون الحاميات متبرمة متذمرة أو الأهالى على وشك الخيانة ، كل هـذه كانت تساعده على هجمات المفاجأة على مثل تلك الحاميات وكثيرا ما كانت تقع ليلا . وبهذه الطرائق كان يزيد لهيب الاضطرابات المحلية ضراما كوسيلة مباشرة لتشتيت أفكار العدو وانقاص أراضيه نهائيا .

ففى ظرف أقل من خمس سنين أنقص الممتلكات الانجليزية الواسعة التى كانت فى فرنسا الى شقة ضيقة من الأراضى بين "بوردو" و"بايون" . كل ذلك دون أن يقاتل فى معركة . وفى الواقع فانه لم يضغط بالهجوم مطلقا حتى ولا على قوة انجليزية صغيرة تكون قد اكتسبت وقتا لاتخاذ أوضاع دفاعية . فقد حافظ القواد الآخرون هم ومقرضو النقود على المبدأ القائل : « لا تقديم أو (زحف) من غير تأمين » . أما مبدأ "دوجوسلين" فكان « لا هجوم من غير مفاجأة » .

والمحاولة الجدية التى قام بها الانجليز لغزو بلاد أجنبية للمرة التالية كانت على أقل تقدير قائمة على طرائق منتظمة وعلى تقدير الغاية والوسائل — بعد أن ابتدأت بالتهور . لأن أشهر حملات "هنرى" الخامس كانت أكثرها طيشا . ففى الموكب « الادواردى » الذى انتهى فى "آجنكور" كان الفرنسيون ماعليهم الا أن يسدوا الطريق أمام "هنرى" ليضمنوا سقوطه بالمجاعة . ولكن قادتهم نسوا الدروس التى تلقوها فى "كريسى" وتعليم "دوجوسلين" . فقد ظنوا أنهم مع تفوقهم عددا بنسبة أربعة الى واحد يكون من العار عليهم أن يستخدموا هـذا التفوق لشىء غير الهجوم المباشر . وبذا هيأوا أنفسهم لعار أكبر بتكرير ماحصل فى "كريسى" و"پواتيه" . وبعد نجاة "هنرى" بهذه الكيفية استخدم ما قد يسمى استراتيجية « نظام الكملة » . فكان يرمى الى فتح مستديم بالتوسع فى امتلاك الأراضى بطريقة منتظمة كانت تنطوى على استرضاء السكان كوسيلة لتأمين تملكه . أما أهمية حملات هنرى التى أعقبت ذلك وما لها من القيمة فهى فى الاستراتيجية العظمى التى اتبعها فيها لا فى استراتيجيتها .

ففى موضوع الاستراتيجية يصح أن نختم ملاحظاتنا عن الأعصر الوسطى بعهد "ادوارد" الرابع الذى اكتسب عرشه فى سنة ١٤٦١ ثم استرجعه مرة أخرى فى سنة ١٤٧١ باستخدامه حفة الحركة بصفة خصوصية بعد أن كان منفيا .

ففى الحملة الأولى كانت النتيجة ناشئة بصفة رئيسية عن سرعة الحكم فى الأمور وسرعة الحركة . فقد كان ادوارد مشتبكا مع اللانكستريين المحليين فى بلاد " الويلز" عند ما بلغه خبر هبوط جيش اللانكستريين الرئيسى على لندن . فلما رجع وصل "جلوستر" فى ٢٠ فبراير وبها سمع بانتصار اللانكستريين فى ١٧ فبراير على قوة اليوركيين التى كانت تحت إمرة "واريك" فى " سانت البانز" والمسافة بين " سانت البانز" و"لندن" هى ٢٠ ميلا ، ومن "جلوستر" الى لندن أكثر من ١٠٠ ميل فكان لدى اللانكستريين مهلة ثلاثة أيام . ولكن فى ٢٢ فبراير لما كان فى "بوفورد" انضم اليه "واريك" ثم بلغه أن مجلس بلدية لندن ما زال يجادل فى شروط التسليم وأبوابها مقفلة . فبارح "بوفورد" فى اليوم التالى ودخل لندن فى ٢٦ فبراير ونودى به ، اذ ذاك ، ملكا بينما رجع اللانكستريون الى جهة الشمال يجرون أذيال الخيبة . ولما اقتفى أثرهم كان مجازفا مجازفة كبرى بمهاجمته عدوا يفوقه عددا مستقرا فى موقع اختاره لنفسه فى " طاوطون " . على أن مرؤوسه " فوكونبرج " استغل هبوب عاصفة ثلجية فاسترد له الميزة بأن أخذ يرمى المدافعين الذين أعمتهم الثلوج بالنبال فضايقهم الى أن أرادوا الخلاص منه بهجمة لا نظام فيها .

أما فى سنة ١٤٧١ فكانت استراتيجية " ادوارد " تنطوى على كثير من الدهاء وخفة الحركة . فانه كان أضاع عرشه ولكن صهره أقرضه خمسين ألفا (من النقود) . ومع ذلك فلم يتجاوز رأس ماله علاوة على ذلك ١٢٠٠ من الأتباع وبضع رسائل من معضديه السابقين فى انجلترا يعدونه فيها بالمساعدة . ولما أقلع من مينا " فلشنج " كانت شواطئ انجلترا تقوم عليها الحراس لمنعه . ولكنه اتبع الخط الذى هو أقل الخطوط انتظارا (أى آخر ما يظن العدو أنه يسلكه) حتى رسا الى البر فى نهر " الهمبار " حاسبا بمهارته أن هذه الجهة نظرا لعطف أهاليها على اللانكستريين ومشايعتهم لهم لايقوم عليها حراس . فتحرك بسرعة قبل أن ينتشر خبر نزوله الى البر ويتجمع أعداؤه ، فوصل الى " يورك " . ومنها سار هابطا على طريق لندن ثم تفادى ببراعته من قوة كانت تسده فى " تادكاستر " بأن تحول عن طريقه حتى مر بها . فسبق هذه القوة التى قفلت راجعة لتتعقبه الى أن هدد قوة أخرى كانت تنتظره فى " نيوارك " فارتدت شرقا . وعندها اتجه " ادوارد " نحو الجنوب الغربى الى " ليستر " وهناك ازداد أتباعه . ثم انه سار بعد ذلك الى " كوفنترى " حيث كان " واريك " اشد مقاوميه يجمع جنوده . وبعد أن استدرج القوتين المتعقبتين له الى ذلك المكان أيضا وأخذت قوته تزداد

على حساب العدو ، اتجه نحو الجنوب الشرقى وسار الى لندن مباشرة ففتحت له ابوابها . والآن وقد شعر بقوته لدرجة يتمثل معها الاشتباك فى معركة خرج لملاقاة متعقبيه ، الذين خدعهم كل هذه المدة عند وصولهم الى "بارنت" واشتبك فى معركة سادها الضباب والفوضى انتهت فى صالحه .

وفى نفس اليوم نزلت "مارجاريت أنجو" ، ملكة لانكستر الى البر فى "ويموث" ومعها بعض مأجورى الفرنسيين . وبعد أن جمعت أتباعها فى الغرب سارت لتنضم الى الجيش الذى كان ايرل "بمبروك" قد جمعه فى بلاد "الويلز" . فاستعان "ادوارد" بالسرعة مرة أخرى ووصل الى حافة تلال "كوتسولدس" بينما كان جيشها سائرا نحو الشمال على جانب طريق "برستول" و "جلوستر" فى الوادى أسفل منه . وأخذ الجيشان يتسابقان طول اليوم . أحدهما فى بطن الوادى ، والآخر فوق المرتفعات المشرفة عليه . فلحق هو بجيشها مساء فى "تويكزبرى" ، بعد أن منعه من عبور نهر "السفرن" فى "جلوستر" بأن أرسل أمرا قبل ذلك الى الكونستابل ليقفل الأبواب . وقد قطع فى ذلك اليوم نحو أربعين ميلا منذ الفجر الى أن حل الليل . وفى تلك الليلة عسكر قريبا من اللانكستريين بحيث لايستطيعون الفرار . وكان موقعهم قويا من الوجهة الدفاعية . على أن "ادوارد" استخدم القذائف الثقيلة والنبال لمضايقتهم حتى يخرجوا للهجوم . وبهذه الوسيلة اكتسب ميزة كانت حاسمة فى المعركة التى نشبت فى الصباح .

فاستراتيجية "ادوارد" كانت تمتاز بخفة الحركة بصفة خصوصية ، ولكنها من حيث نقص الحيلة والدهاء كانت على مثال طراز ذلك العصر . لأن استراتيجية الأعصر الوسطى كان من عادتها أن تجعل غايتها الوصول الى معركة بالطرق البسيطة المباشرة . فان لم تكن النتيجة غير حاسمة ، فانها فى العادة تكون حاسمة ضد من يسعى لها الا اذا أمكنه أن يستدرج المدافع لأن يكون هو المعتدى تكتيكيا .

وأحسن أمثلة الاستراتيجية فى الأعصر الوسطى هو ماجاء من الشرق لا ماجاء من الغرب لأن القرن الثالث عشر ، الذى كان ممتازا فى الغرب ، أصبح بارزا بين العصور بسبب الدروس المدهشة التى لقنتها استراتيجية المغول لعهد الفروسية الأوربية . فان حملاتهم تنافس ان لم تفق كل الحملات التى عرفها التاريخ ، سواء فى نطاقها ، وفى صفاتها ، وفى المفاجاءة ، وخفة الحركة ، وفى الاقتراب الاستراتيجى والتكتيكى غير المباشر . فاننا نستطيع أن نتتبع استخدام "جنغيزخان" و "تايتونج - فو" طعما لسلسلة من الحبائل التى نصبها فى فتحه بلاد الصين ، كما استخدم "يونابارت" بعده قلعة "مانتاو" . ثم انه بحركاته المترامية النطاق واثرا كه ثلاثة جيوش معا تمكن فى آخر الأمر من تحطيم وحدة الأمبراطورية الصينية من الوجهتين

الأدبية والحربية . ولما غزى أمبراطورية "الخوارزم" فى سنة ١٢٢٠ التى كان مركز قوتها فى "تركستان" الحديثة أرسل قوة تستجلب نظر العدو وتحول فكره نحو الاقتراب من "قشغر" جنوبا . ثم ظهرت القوة الرئيسية فى الشمال . أما هو فقد استتر وراء عمليات هذه القوة ودار دورة شاسعه بجيشه الاحتياطى واختفى فى صحراء "قيزيل - قوم" وخرج منها فجأة فى "بخارا" وراء خطوط العدو الدفاعية ووراء جيوشه .

وفى سنة ١٢٤١ خرج "صابوتاى" ، أحد قواد "جنغيزخان" ليلتقى دروسا على أوربا . فسار جيش من جيوشه مخترقا "غاليسيا" بصفته حرسا جانبيا استراتيجيا فاستلفت أنظار أعدائه البولنديين والألمان والبوهيميين واجتذبها اليه علاوة على انزال هزائم بهم كانت موفقة . فى حين أن الجيش الرئيسى سار فى ثلاث قولات كل منها منفصل عن الآخرين بمسافة واسعة واكتسح بلاد المجر (الهنجار) حتى وصل الى نهر "الدنوب" . فكان القولان الخارجيان بمثابة وقاية وستر للقول الثالث الوسطى فى بادئ الأمر الى أن اتسع المجال للقول الثالث فيما بعد وسهلت حركته . وبعد ذلك تجمع الجيش كله والتقى على نهر "الدنوب" بالقرب من "جران" ، ولم يعقه عن موالاة الزحف الا تجمع الجيش المجرى على الشاطئ الآخر . فتقهقر المغول تدريجيا بمهارة فائقة مستدرجين عدوهم من ملجئه على النهر فأبعدوه عنه وعن وصول المدد اليه .

وأخيرا قام "صابوتاى" بمناورة ليلية سريعة وفاجأ الجيش المجرى على نهر "السوجر" فزحزحه من مكانه وأباده . فأصبح سيدا على سهول أوربا الوسطى الى أن تنازل من تلقاء نفسه بعد ذلك بسنة عما فتحه من البلاد . وكان لانسحابه دهشة وارتياح فى أوربا التى عجزت عن اخراجه بالقوة (*) .

(*) قد عالج المؤلف فى كتابة المسمى " كشف الستار عن كبار القادة " استراتيجية المغول وتكتيكاتهم بتفصيل واف ،

الباب الخامس

القرن السابع عشر — جوستافوس ، كرومول ، تورين

لقد جئنا الى أول "حرب عظمى" فى التاريخ الحديث . فقد حصل عرضا أن الذين يستعملون هذا العنوان للحرب التى وقعت فى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ جاؤا متأخرين فى هذه التسمية التاريخية بعض التأخير . فان هذا الاسم حتى قبل ثلاثة قرون كان قد خلقت جدته من كثرة الاستعمال .

وحرب الثلاثين سنة لا تكشف عن حمله حربية يصح تسميتها حاسمة . وأقرب حملة فيها الى هذه التسمية هى المبارزة التى حصلت فى نهاية الأمر بين "جوستافوس" و"النشتاين" وهى التى بسبب موت "جوستافوس" فى المعركة النهائية التى وقعت فى "لوتسن" كانت حاسمة من وجهة أنها حالت دون امكان ، بل ودون احتمال قيام اتحاد بروتستانتى عظيم تحت زعامة سويدية . ولولا تدخل الفرنسيين واغتيال "والنشتاين" لكان من المحتمل أن تكون حاسمة فى تأسيس اتحاد ألمانى قبل حصوله بما ينوف على ثلاثة قرون . فهذه النتائج والاحتمالات التى كان بعضها حاسما ، لاشك فى أنها اكتسبت بطرق غير مباشرة . لأن المعركة النهائية وهى المعركة الحقيقية الوحيدة التى دارت رحاها ، انتهت بهزيمة الذين رجحت كفتهم فى الحرب بسببها ، وان كانت المعركة فى حد ذاتها ما زالت غير حاسمة . ومع ذلك فان هذه الهزيمة وان كانت ناشئة عن ضعف آلة "والنشتاين" الحربية بالنسبة لآلة السويديين من جهة ، فقد كانت من جهة أخرى بسبب عجز "والنشتاين" عن الانتفاع تكتيكيا بالفرصة الاستراتيجية التى كانت لديه . اذ لاشك أنه كان قد حصل على ميزة حقيقية جدا قبل المعركة . ومما هو جدير بالذكر أن ما تم كان نتيجة لا لاقتراب واحد غير مباشر فقط ، بل كان نتيجة لثلاثة اقترابات متوالية غير مباشرة — كانت فى الواقع سببا لتغيير مجرى الحرب بأجمعه . فان "والنشتاين" لما استدعاه ثانيا العاهل الذى كان أساء اليه ، ونزل الى أسفل درك فى استعطافه ورجائه لأن يتولى قيادة جيش لاوجود له ، جمع فى ظرف ثلاثة أسابيع نحو ٤٠,٠٠٠ جندى ممن يسلمون مقاليد أمورهم للأقدار ، اجتذبتهم أبهة اسمه . ثم انه بالرغم من التماس "بافاريا" العون منه اذ كان ، اذ ذاك جيش جوستافوس الظافر يكتسح أراضيها ، اتجه نحو الشمال قاصدا "السكسونيين" حلفاء "جوستافوس" الضعفاء . وبعد أن طردهم من "بوهيميا" تحرك نحو سكسونيا نفسها . حتى أرغم أمير "بافاريا" ، على غير رضاءه منه لأن يضم جيشه الى جيشه . وبذا كان يظهر أنه ترك "بافاريا" أعجز ما تكون عن الدفاع عن نفسها .

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . وقد برت الحوادث ماحسبه "والنشتاين" لأن "جوستافوس" لما أصبح مهددا بفقد حليفه الأصغر اضطر لأن يهجر "بافاريا" ويسرع لنجدة حليفه . غير أنه قبل أن يصل كان "والنشتاين" والأمير قد اجتمعا معا . فلما واجههما "جوستافوس" اضطر لأن يتقهقر الى " نورنبورج" ، فتبعه والنشتاين اليها . ولكنه لما رأى السويديين مستحكمين فى مواقع قوية قال لنفسه : « لقد وقع من المعارك ما فيه الكفاية . فقد آن الأوان لأن نجرب طريقة أخرى» . فبدلا من أن يضع جنوده الجديدة أمام السويديين الذين بقوا زمنا طويلا لم يغلبوا ، خندق فى موقع آمن يستريح فيه جيشه فيزداد ثقة يوما عن يوم بينما تستطيع فرسانه الخفيفة التحكم فى الخط التى يتمون منه "جوستافوس" . فلازم هذه الطريقة وهذا الغرض ولم يتحول عنهما .

وكلما طلبه " جوستافوس " الى النزال فى معركة أعاره أذنا صماء الى أن لاح شبح المجاعة أمام عين ملك السويد فحاول اقتحام موقع والنشتاين ولكنه أخفق وارتد خائبا . فكان هذا الاخفاق حادثا سيئ الطالع من الوجهة العسكرية لا غير . أما من الوجهة السياسية فان جميع أنحاء أوروبا تجاوبت بأصدائه . لأنه وان لم يزحزح "جوستافوس" فقد أضر بتفوقه الأدبى الذى ناله بانتصاراته الكثيرة . وكان سببا فى افلات الولايات الألمانية من قبضته . أما "والنشتاين" فكان يجمع بين ادراك حقيقة قلة ما لديه من الوسائل ، وبعد النظر فى حساب الغاية « الاستراتيجية العظمى » .

فسار "جوستافوس" من "نورنبورج" نحو الجنوب قاصدا "بافاريا" مرة أخرى — أما والنشتاين فانه اتجه نحو الشمال قاصدا سكسونيا . فكان من شأن هذه الحركة الدالة على المقدرة أن أرجعت "جوستافوس" على عقبيه لفوره كما فعلت سابقتها . غير أنه جد فى سيره بهمة كبيرة فوصل قبل أن يتمكن "والنشتاين" من ارهاب السكسونيين وعقد صلح منفصل معهم . فنشبت بين الفريقين معركة طاحنة قاتل فيها كل منهما قتال اليأس وانتهت بأن استرد الجيش السويدى هزيمته الاستراتيجية بفوز تكتيكى . على أن ثمن هذا الفوز كان موت قائده وسقوط مشروعه وهو ايجاد اتحاد بروتستانتى تحت ادارة سويدية . واستمرت الحرب بعد ذلك ست عشرة سنة أخرى بلغ فيها الاعياء والملل منتهاهما وتركت ألمانيا صحراء قاحلة . وأسلمت فرنسا زمام قياد أوربا السياسى .

والتناقض البارز بين الحروب الأهلية التى وقعت فى بريطانيا العظمى سنة ١٦٤٢ — ٥٢ وحروب القرن السابع عشر فى قارة أوربا ، الذى اعتاد المؤرخون أن يشيروا اليه ، هو فيما امتازت به الأولى من تلك الروح التى كانت ترغم على البت والحسم . فالروح التى كانت سائدة فى بلاد الانجليز مدة دوام هذا النضال العظيم الأخير هى التى عبرت عنها خير تعبير «مذكرات

فارس»(كافاليير)حيث جاء فيها — «اننا لم نقم فى معسكر ولم نتحصن مطلقا ... ... ولم نقبع وراء سياج من الأنهر أو المضايق ، والقول المشهور فى مدة تلك الحرب هو — أين العدو ؟ دعنا نسير اليه ونقاتله »

ومع ذلك فان الحرب الأهلية الأولى استطال أمدها مدة أربع سنين دون أن تقع فيها معركة حاسمة حقيقية ، الا من الوجهة التكتيكية . ولما آذنت بالانتهاء فى سنة ١٦٤٦ غادرت جمر الملوكية خابيا تحت الرماد الى أن وقع الشقاق بين الظافرين فأذكى أوارها وأوقد لهيبها من جديد فثارت مرة ثانية بعد الأولى بسنتين بأشد مما كانت عليه الأولى من العنف .

واذا بحثنا عن سبب انعدام الحسم بالرغم من أن روح الحسم كانت بادية فاننا نلاحظ أن الحملات العسكرية كانت عبارة عن زحف مباشر متكرر يقوم به هذا الفريق أو ذاك على الآخر يتخلله أحيانا ما قد يسمى فى عرف الاصطلاح الحديث عمليات " التشطيب " التى لم يكن لها سوى أثر زائل — كل ذلك بثمن هو استنزاف القوى .

ففى بادئ الأمر كانت قوات الحزب الملكى متخذة قواعدها فى البلاد الغربية والمتوسطة . أما الحزب البرلمانى فكانت قاعدته لندن . وأول زحف على لندن قام به الملوكيون انتهى بخيبة ليس بعدها خيبة فى "تورنهام جرين" وعار ما بعده عار . حتى ان هذه الخاتمة كثيرا ما وسمت باسم "فالمى" الحرب الأهلية . وهى نتيجة أدبية لمعركة "إدجهل" التى سالت فيها الدماء أنهارا ولم تكن حاسمة ، وهى المعركة التى نشبت بين الجيشين الرئيسيين أثناء الطريق . ومن ذلك الحين أصبحت "أكسفورد" وما حواليها من المدن هى المحور المستحكم الذى تدور حوله جنود الملوكيين . وبقى الجيشان المتحاربان على حافة هذه المنطقة مدة طويلة يواجه أحدهما الآخر بلا أثر يذكر ، بينما كان النضال سجالا بين القوات المحلية والأقسام المنفصلة الموجودة غربا وشمالا . وأخيرا اضطر الجيش البرلمانى الذى كان تحت إمرة "إسكس" أن يزحف فى شهر سبتمبر سنة ١٦٤٣ لخلاص "جلوستر" وفك الحصار عنها لما أصابها من الضيق . فدار دورة ضيقة مارا بجناح منطقة "أكسفورد". فتمكن بذلك الملكيون من سد الطريق أمامه . فعاد الجيشان واصطدما اصطداما مباشرا فى " نيوبرى " لم يسفر عن نتيجة حاسمة . فكان من الطبيعى والحالة هذه أن ينتهى هذا النضال المتعب على أثر ذلك الاصطدام لولا الخطأ السياسى الذى وقع فيه "شارلس" بعقده هدنة مع العصاة الايرلنديين كانت فى ظاهرها ترمى الى اخضاع انجلترا البروتستانتية لكاثوليك ايرلنده . فجاءت على العكس اذ أتت من الجهة الأخرى بأسكولنده البرسبتيرية وألقتها فى جانب البروتستانت ضد الملوكيين . ولما زحف جيش اسكتلندا لقتال الملوكيين الموجودين بالشمال ، عاد البرلمان وحشد قواته للزحف على منطقة "أكسفورد" مباشرة . فلم يأت هذا الزحف بنتيجة أكثر من احتلال بعض قلاع متطرفة . وفى الحقيقة فان الملك استطاع أن يبعث "روبرت" ليحتشد

مع الملوكيين الموجودين بالشمال على جناح السرعة لمقاومة الاسكتلنديين . ولكن لسوء حظه جاءت الهزيمة التكتيكية التى حلت بجنوده فى "مارستون مور" فأبطلت تأثير هـذه الفرصة الاستراتيجية وزيادة . على أن الظافرين لم يستفيدوا الا قليلا . فان عدم تأثير الحركة الرئيسية التى وجهت الى "أكسفورد" مباشرة أحدث الفزع والفرار بين جنودهم ، حتى انه لولا وجود رجال صادق العزيمة من أمثال "كرومول" لانتهت بعقد صلح بدافع السآمة من الحرب . ولكن من حسن حظ البرلمان كانت قضية الملوكيين آخذة فى التدهور والسقوط من الداخل أكثر بكثير مما كانت بسبب الضربات الموجهة اليها من الخارج ، وعلى ذلك فانها أصبحت عدوا ضعيفا أدبيا وماديا من الوجهة العددية . ولم يحفظها من السقوط كل هـذه المدة سوى خطأ استراتيجية البرلمان ، الى أن جاء "فيرفاكس" و "كرومول" بجيشهما الحديث الذى كان نموذجا يقتدى به فتغلبا عليها فى "ناسيبى" فى سنة ١٦٤٥ وبالرغم من ذلك فان هذا الانتصار التكتيكى الحاسم لم يمنع الحرب من البقاء سنة أخرى .

وعند ما ننتقل الى الحرب الأهلية الثانيـة نجد صورة غير التى شاهدناها فيما مر ، تتمثل فيهـا العبقرية المسيطرة فى شخص "كرومول" . فان "كرومول" و "فيرفاكس" بدلا من أن يزحفا على اسكتلندا ، بل وبدلا عن محاولتهما لقاء جيش اسكتلندا الغازى ، أسرعا بالحركة ليقضيا على الثورات الداخلية فى بلاد الانجليز . بينما بقى "لامبرت" أمام الاسكتلنديين ليؤخر زحفهم ويتقهقر أمامهم ببطء . والأمر الذى أصدره "كرومول" "بالمعالجة" جدير بالتنويه فى هذا المقام نظرا للعقيدة القائلة ، ما دام ، واذا كان ، العدو الرئيسى قد قضى عليه فلا بأس من ترك الأعداء الصغار ليسقطوا من تلقاء أنفسهم . لأن المرء يجد مع الدهشة أنه من الصعب وجود مبرر تاريخى يبرر هـذه القاعدة ، المنطقية فى ذاتها ، كما هو من السهل وجود أمثلة لعكسها كللت بالنجاح .

وأخيرا لما سقطت "بمبروك" فى ١١ يوليه سنة ١٦٤٨ صار فى استطاعة "كرومول" أن يتحرك شمالا . على أنه بدلا من أن يزحف لملاقاة الاسكتلنديين مباشرة وهم هابطون بطريق الساحل الغربى ، سار على منحن واسع عن طريق "نوتنجهام" و "دونكاستر" ثم اتجه شمالا — بغرب ليلتقى "بلامبرت" فى "أوتلى" على جناح الجيش الاسكتلندى — الذى كان منتشرا بين "ويجان" و "برستون" ويستر جناحه الأيسر بفيلق مؤلف من ٣,٥٠٠ جندى تحت امرة "لانجديل" . وكان لدى "كرومول" من الجند ما لا يزيد عن ٨,٦٠٠ بما فيها فرسان "لامبرت" وميليشيه "يوركشير" مقابل ٢٠,٠٠٠ للعدو . ولكن هبوطه على مؤخرة قول الاسكتلنديين فى "برستون" زعزع موازنته واضطره لأن يدور ويقابل "كرومول" جزءا جزءا على التوالى . فانهزم فيلق "لانجديل" فى "برستون مور" . وبعـد ذلك ضغط "كرومول" على هذا القول متعقبا اياه بعنف فاكتسحه أمامه وطرده من خلال "ويجان" ،

و" اتوكستر" و " أشبورن " . وهناك صادمته من الأمام مليشيا الأراضى الوسطى . فكان لتوقيف المـاليشيا له من الأمام وضغط فرسان "كرومول" من الخلف من الأثر ما ألجأه الى التسليم فى ١٥ أغسطس . وقد كان هذا النصر حاسما . فانه لم يقتصر على سحق أعداء البرلمـان ، بل مكن الجيش من "تطهير" البرلمـان ، ومن محاكمة الملك واعدامه .

أما غزو اسكتلندا ، بعد ذلك ، فهو فى الواقع حرب قائمة بذاتها شنتها السلطة الجديدة التى توطدت الآن ، لإفساد الخطة التى رسمها ابن الملك ، وهو " شارس الثانى " لاسترجاع العرش المفقود بمساعدة اسكتلندا وقتلها فى مهدها . فهى لذلك لا تدخل فى فئة الحملات التى كان لهـا أثر حاسم على مجرى التاريخ . وهى فى نفس الوقت تشتمل على أدلة تستحق الذكر على عظم درجة تشـبع كرومول باستراتيجية الاقتراب غير المبـاشر . فانه لمـا وجد الجيش الاسكتلندى تحت امرة " ليزلى " متخذا موقعا يعترض طريقه الى " ادنبورا " ، اقتنع بأن موقف "ليزلى" كان قويا بمجرد مناوشة قام بها للاتصال به . ومع أنه كان على مرأى من غايته التى يقصدها كان لديه من ضبط النفس ما أدى به الى التقهقر الى " مسلبورو " . ولمـا تحرك "ليزلى" متقدما للقائه أبى أن يشتبك معه فى معركة . وبدلا من ذلك صرف لجنوده مؤونة ثلاثة أيام تمهيدا لمناورة واسعة النطاق يجتاز بها التلال الى "ادنبورا" ويأتى على مؤخرة العدو . وعند ما توفق " ليزلى " الى التحرك وسد الطريق أمامه فى تل " كورستور بهاين " فى ٢١ أغسطس سـنة ١٦٥٠ مجتازا البلاد الى ذلك التل مباشرة ، ما كان من " كرمول " الا أن بحث عن طريق آخر يقترب منه ، مع أنه كان اذ ذاك بعيدا عن قاعدته فقام بمناورة الى يمينه فوجد "ليزلى" معترضا طريقه مرة أخرى فى "جوجبار" فى ٢٢ أغسطس . فمعظم الرجال كانوا فى تلك الحالة يجازفون بالاقدام على معركة مباشرة . ولكن " كرمول" لم يفعل ذلك . بل انه استبعد خسائره — من المرضى بسبب التقلبات الجوية والتعب — ثم رجع الى "مسلبورو" ومنها الى "دنبار" مجتذبا "ليزلى" وراءه . ومع ذلك فانه أبى أن يركب جيشه السفن كما ألح عليه كثير من ضـباطه بل انه انتظر فى " دنبار" حتى تحرك أعداؤه فى ٢ سبتمبر ليقطعوا عليه خط رجعتـه الى " برويك " — وبذلك جاء عرضا أنهم أوجدوا " كرمول " على خط رجعتهم هم . وفى صبيحة اليوم التالى قام باقتراب تكتيكى غير مباشر فاجأ به العدو واكتسحه مع أن قوته كانت ضعف قوة " كرمول " . وبذا اختتم بالنصر حملة أبى فيها كل إغراء على ترك استراتيجيته المنطوية على الاقتراب غير المباشر مجازفا فى ذلك على ما يظهر حتى بطالعه وحظه .

وقد مكنت "دنبار" "كرومول" من السيطرة على جنوب اسكتلندا . وابادة جيش الكنيسة وإزالة المتعاهدين من حساب الحرب باعتبارهم عاملا سياسيا . ولم يبق فى الحساب

المقابل سوى العنصر الملوكى من "الهايلند" (الأراضى المرتفعة) . وقد تأخرت اجراءات التسوية بسبب المرض العضال الذى أصاب "كرومول" . وفى نفس الوقت توفرت لدى "ليزلى" فرصة استفاق فيها ونظم الجيش الملوكى الحديث ودربه فيما وراء نهر "الفورث" .

وعند ما نقه "كرومول" من مرضه فى أواخر يونيه سنة ١٦٥١ وأصبح يستطيع استئناف العمليات واجهته معضلة . وحله للمسائل التى تنطوى على الدهاء ومهارة التقدير مما يقبل المقارنة مع أى تفصيلات استراتيجية رواها تاريخ الحرب . فهو الآن وان كان التفوق قد أصبح فى جانبه لأول مرة أمامه خصم واسع الحيلة والدهاء مستقر فى جهة كثيرة المستنقعات تتوافر فيها كل المزايا الطبيعية التى تمكن الجانب الأضعف من سد طريق الاقتراب الى "ستيرلنج" . وما لم يتمكن "كرومول" من التغلب على المقاومة فى مدة قصيرة لا بد له من قضاء شتاء صارم آخر فى اسكتلندا فتتكبد جنوده من الشقاء ما لا مفر منه ، مع احتمال ازدياد المصاعب فى بلاد الوطن . ثم ان اخراج العدو من مكانه لا يكفى لأن الفوز الذى لا يكون تاما لا ينتج عنه الا تشتت العدو فى النجود المرتفعة فيبقى له بمثابة شوكة فى جنبه . فلنراقب تفصيلات خطة "كرومول" . فهو أولا يهدد "ليزلى" من الأمام ويقتحم "كالندر هاوس" بالقرب من "فولكرك" . ثم ينقل جيشه بأجمعه عبر خليج "فورث" الى جانبه الآخر مرحلة بعد أخرى ويسير الى "پيرث" . وبذا لا يقتصر على الالتفاف حول الحاجز الدفاعى الذى يعترض طريق الاقتراب المباشر الى "ستيرلنج" ، بل يستولى أيضا على مفتاح الاقليم الذى يستورد "ليزلى" منه مؤونته . على أنه بهذه المناورة قد ترك الطريق الى لندن مفتوحا . وهنا يظهر ما بلغته خطة "كرومول" من سمو التدبير ومنتهى اتساع الحيلة . فهو الآن على مؤخرة العدو المكشوفة وهذا العدو مهدد بالمجاعة وفرار رجاله — فترك له منفذا واحدا مفتوحا . وقد قال واحد من الأعداء : "لا بد لنا من الموت جوعا ، أو التشتت والتفرق ، أو السير الى انجلترا بحفنة من الرجال . وهذا الرأى الأخير أقلها ضررا ومع ذلك يظهر أنه مقطوع الأمل للغاية" . وقد اختاروا هذا الرأى الأخير بطبيعة الحال ، ففى ٣١ يوليه شرعوا فى المسير جنوبا قاصدين بلاد الانجليز . أما "كرومول" فكان قد تنبأ بذلك وأعد ما يلزم للقائهم بمساعدة رجال الحكومة فى "وستمنستر" . فاستدعيت المليشيا فى الحال . ووضع كل المشتبه فى أنهم ملوكيون تحت المراقبة ، وضبطت الأسلحة المخبأة . أما الاسكتلنديين فانهم استأنفوا المسير سالكين طريق الساحل الغربى . فأرسل "كرومول" فرسان "لامبرت" وراءهم بينما تحرك "هاريسون" بالميل من "نيوكاسل" الى "ورنجتون" . ثم تحرك "فليتوود" شمالا بمحاذاة الشاطىء الوسطى . فتسلل "لامبرت" من حول جناح العدو ، وبعد أن التقى "بهاريسون" فى ١٣ أغسطس شرع كلاهما فى مقاومة العدو الغازى مقاومة مرنة القصد منها تأخير تقدمه . وفى نفس الوقت كان "كرومول" يجد السير هابطا

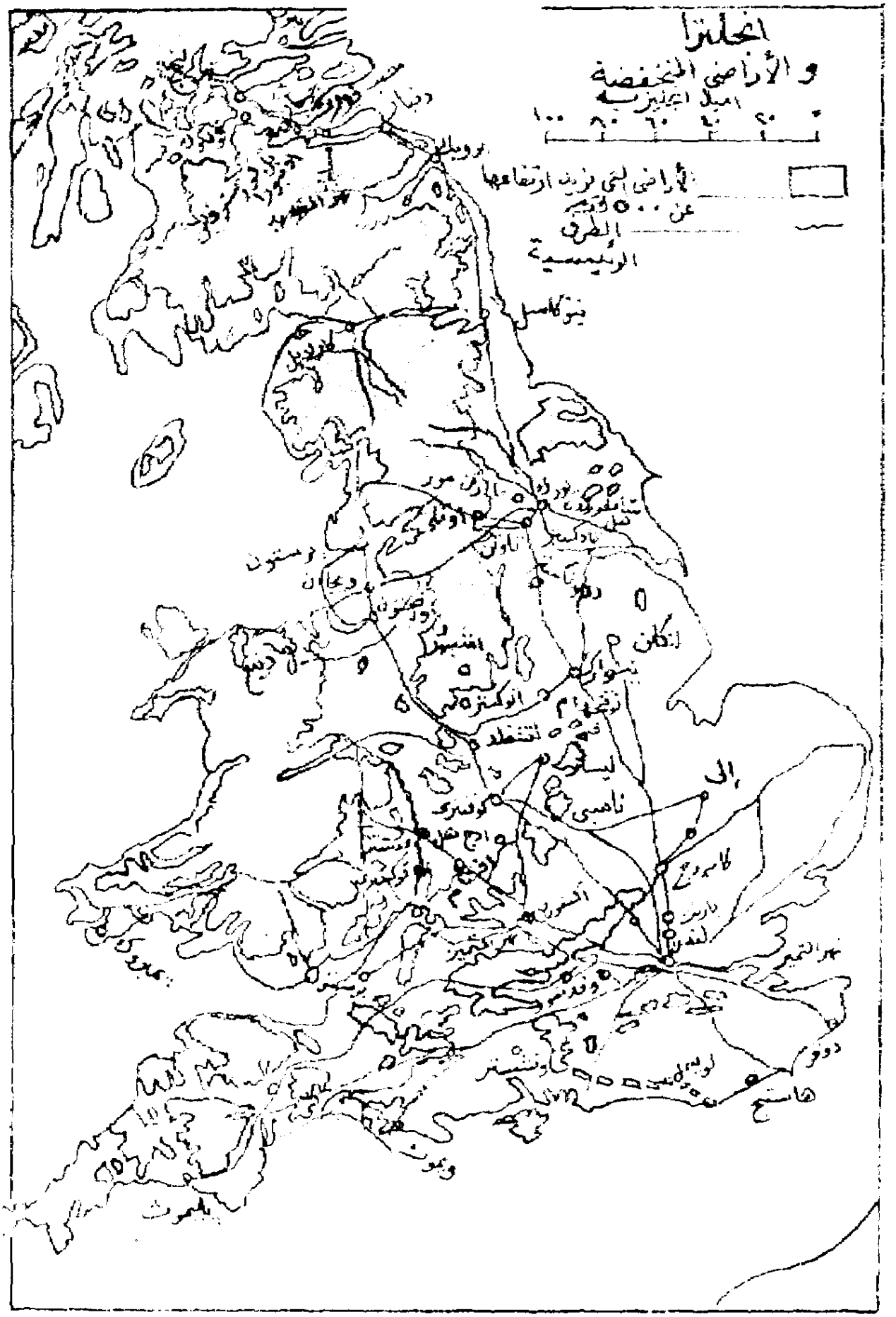
انجلترا
و الأراضي المنخفضة
ميل انجليزية
١٠٠ ٨٠ ٦٠ ٤٠ ٢٠ ٠
الأراضي التي يزيد ارتفاعها
عن ٥٠٠ قدم
الطرق
الرئيسية
إلى

على طريق الساحل الشرقى و يقطع ٢٠ ميـلا فى اليوم فى قيظ أغسطس . ثم انه تحول نحـو الجنوب الغربى . وبهـذه الوسيلة كانت أربع قوات مختلفـة تتجمع لتتلاقى مع الغزاة الذين أصبحوا فى شرك. حتى ان تحول "شارلس" عن الطريق الموصل الى "لندن" واتجاهه نحو وادى " السفرن " لم يحدث الا تأخير بضعة أيام فلم يعق انضمام هذه القوات حاصرة بينها العـدو كالفكين المنطبقين . وفى يوم ٣ سبتمبر وهو يوم ذكرى " دنبار " السنوية تثبت معركة " ورسستر" وكانت نتيجتها « رحمة كرومول الختامية » .

أما سلسلة الحروب التى وقعت فى الفترة بين ختام حرب الثلاثين سنة و بدء حرب ارتقاء عرش أسبانيا . وهى الحروب التى كانت جيوش " لويس الرابع عشر " تلاقى فيهـا معظم الجيوش الأوربية الأخرى ، متجمعة أو بالدور ، فانها تمتاز بعـدم حاسميتها . اذ كانت المقاصد فيها محدودة ، وكذلك أغراضها الحربية . على أن هناك سببين قويين من أسباب عدم الحاسمية والفصل فى تلك الحروب هما : أولا أن تطور الاستحكامات وتقدمها فاق تطور الأسلحة وزاد الدفاع قوة مثل القوة التى رجعت له فى القرن العشرين بتطور المدافع الرشاشة و رقيها . وثانيا أن الجيوش لم تكن اذ ذاك قد نظمت وقسمت الى أجزاء كل منهـا مستقل بذاته من حيث الكفاية . بل كانت تتحرك وتقاتل عادة قطعـة واحدة . وتلك حالة تقلل مقدرتها على " تشتيت " فكر العدو — وخدعه والتضييق على حرية حركاته . ولم تقع فى كل الحروب التى أعقب بعضها بعضا المسماة حرب " الفروند " و " حرب الانتقال " والحرب " الهولندية " و " التحالف الكبير " كل هذه لم تقع فيها الا حملة واحدة كانت حاسمة وحسمها قاصر على محيطها . هى الحملة التى قام بها "تورين" فى شتاء ١٦٧٤ — ١٦٧٥ وانتهت بانتصاره فى "توركهايم". فقد كان الوقت عصيبا فى فرنسا لأن حلفاء "لويس" هجروه وتركوه الواحدة بعد الأخرى وانضم الأسبانيون ، والهولانديون ، والدنمـاركيون ، والنمساويون ، وأغلب أمراء الألمـان ، الى دول الائتلاف المعادية له . وقد اضطر " تورين " لأن يرجع وراء نهر " الرين " بعد ان ترك بلاد " البلاتينات " خرابا . وكان أمير "براندنبورج" يتجمع أى يسير للانضمام الى الجيش الامبراطورى تحت قيادة " بورنونفيل " . و بعد أن صد " بورنونفيل " فى إنسهايم فى أكتوبر سنة ١٦٧٤ قبل أن ينضم اليه الأمير ، اضطر لأن يرجع الى " دتوايلر " فى حين كان الألمـان قد انتشروا فى بلاد " الألزاس " واستقروا فى المدن الواقعة بين " ستراسبورج " و "بافور" لقضاء فصل الشتاء فيها . وهنا تهيأ المسرح "لتورين" يمثل عليه أبدع أعماله . وأول ما فاجأ به عدوه هو أنه صمم على السير بحملة فى منتصف فصل الشتاء . ثم انه هيأ القلاع الموجودة فى منتصف اقليم " الألزاس " للدفاع لكى يخدع عدوه. وبعد ذلك سحب جيش الميدان بأجمعه الى اقليم " اللورين " فى سكون و بغير جلبة . ثم سار مسرعا نحو الجنوب واختفى وراء مرتفعات جبال " الفوزج " آخذا معه كل ما كان موجودا

من جنود المـدد . وفى آخر مرحلة من مراحل حركته فرق قوته وقسمها أقساما صـغيرة ليضلل جواسيس العدو . وبعد سير شاق من خلال التلال وفى عواصف الثلوج أعاد جمع جيشه بالقرب من "بلفور" وأطلق جنوده تنساب متدفقة الى مقاطعة "الألزاس" من الجنوب . بعـد أن كان خرج منها من جهة الشمال . وهنا أراد "بورنوفيل" أن يوقفه فى "مولها وزن" فى ٢٩ ديسمبر مستخدما لايقـافه الجنود التى كانت موجودة بالقرب منه ولكن "تورين" اكتسحها أمامه وأزاحها عن طريقه . ومن هناك اندفع سيل الفرنسيين صاعدا الى أعلى الحوض الكائن بين جبـال القوزج ونهر "الرين" طاردين أقسام جنود الامبراطور بين المتفرقين هنا وهناك . ودافعينهم شمالا نحو "مستراسبورج" وكل قسم يبدى مقاومة يباد ويتلف . وفى "كولمـار" . فى منتصف الطريق الى "استراسبورج" كان الأمير الذى صار الآن قائد الألمـانيين قد أقام سدا نهائيا تحميه قوة تعادل قوة "تورين" . على أن القوة الدافعة كانت لدى "تورين" من الوجهتين المـادية والأدبية وقد حافظ عليها بمهارة بأن اقترب اقترابا تكتيكيا غير مباشر فى ميدان "توركهايم" . وكان "تورين" لا يرمى الى اتلاف الجيش المقاوم وإبادته بقدر ما كان يرمى الى "تصفية" المقاومة المشتدة . وترك النتائج الطبيعية تكمل انحلال العدو . وقد نجح فى ذلك الى درجة أنه استطاع أن يقول فى تقريره بعـد ذلك ببضع أيام انه لم يبق فى الألزاس جندى واحد من جنود العدو . وبعد ذلك استراح الفرنسيون فى ثكنات الشتاء فى "ستراسبورج" وكانوا يستوردون مؤونتهم بكثرة من الشاطئ الألمـانى لنهر الرين . بل ومن بقية الأراضى حتى نهر "النكار" . أما الأمير فانه رجع الى "برند نبورج" مع من تبقى من جنوده ، واستدعى "مونتى كوكولى" ، منافس "تورين" القديم ، لتولى قيادة المقاومة الامبراطورية . وهذا أيضا استدرج بالمناورات الى موقع على نهر "الساسباخ" لم يكن فى صالحه . على أن "تورين" أصابته طلقة مدفع فى فاتحة القتال أردته قتيـلا . وبسقوطه انقلبت كفة الحرب ثانيا .

فما هو السبب فى كون هذه الحملة التى قام بهـا "تورين" فى فصل الشتاء جاءت حاسمة . مخالفة لبقية حملات القرن السابع عشر فى قارة أوربا مخالفة تستوجب الدهشة؟ السبب فى ذلك هو أن قادة ذلك العصر ، بالرغم مما كانوا عليه من قصر مرمى النظر ، كانوا على مهارة تامة بالمناورات . ولكنهم كانوا أكفاء فى هـذا الفن حتى ان الحركات الجانبية التى كان يحتمل أنهـا تنجح فى الأعصر الأخرى ، كانت تُتقى بحذق نادر فلم يحصل أن ترجح "نظام" الخصم الا مرة واحدة . وقد اشتهر "تورين" بأنه القائد الكبير الوحيد الذى أخذ يتمشى فى الرقى مع العصر . ومما لا شك فيه أن كونه قد توصل فى آخر حملاته الى حل مسألة الحصول على الحسم والفصـل فى حروب القرن السابع عشر ، والكيفية التى توصل بهـا ، بعد أن تولى القيادة

فى حملات أكثر من أى قائد آخر فى التاريخ لها مغزى خاص . لأنه توصل الى ذلك دون أن يخرج على القاعدة « الذهبية » فى تلك الأيام — وهى أن الجنود المدربين تدريبا عاليا لهم من القيمة ما لا يسمح بالاسراف فيهم .

فمن الواضح والحالة هذه أنه توصل الى ذلك بتجاربه التى دلته على أنه فى مثل هذه الظروف لا يمكن الحصول على نتيجة حاسمة إلا بخطة استراتيجية يكون فيها الاقتراب غير مباشر ، من أوله ، بكيفية أكثر مما سبق التفكير فيه . أى بكيفية لم يسبق أن طرأت على فكر أحد . وعلى ذلك فهو فى العصر الذى كانت فيه كل المناورات تؤسس على مراكز تتحرك حولها وهى القلاع التى كانت عبارة عن مستودعات محمية للمؤن التى تعيش عليها جيوش الميدان . فى ذلك الوقت انفصل هو عن قاعدة عملياته و لجأ الى المفاجأة وخفة الحركة لا للحصول على الحسم فقط ، بل لضمان سلامته أيضا . ولقد كان حسابه مصيبا ، لا مجازفة . لأن زحزحته للعدو من كل الوجهات العقلية ، والأدبية ومن حيث علم تحركات الجيوش وتموينها ، كل هذه قد كفلت له السلامة المؤكدة فى كل عملياته .

البـاب السادس

القرن الثامن عشر — مارلبورو وفردريك

ان حرب ارتقاء عرش أسبانيا (سنة ١٧٠١ — ١٧١٣) هى الحرب الأوربية العامة ، أى "الحرب العظمى" الثانية فى التاريخ الحديث . ومن الغريب أن هذه الحروب العظمى كانت تتكرر وبين الواحدة منها والأخرى مدى قرن واحد . فان أوائل القرن السابع عشر شاهدت بدء حرب الثلاثين سنة ، وأوائل القرن الثامن عشر شاهدت حرب ارتقاء عرش أسبانيا . وفى ختام هذا القرن أضرمت الثورة الفرنساوية النار فى أوربا . على أن الذى أوصل النضال الى حده انما هو تهديد نابليون فى العشرين الأولى من سنى القرن التاسع عشر . وفى العشر السنين الثانية من القرن العشرين جاءت أشد الحروب هولا فى هذه "الحروب العظمى" .

فحرب ارتقاء عرش أسبانيا تمتاز بغرابتها بأن كانت بين فريقين اثنين . فهى سياسيا كانت حالة متطرفة من حالات "الحرب المحدودة الغاية" من جهة . ونضالا حاسما لتأييد سيادة الدولة الفرنسية تحت حكم لويس الرابع عشر أو تحطيمها من جهة أخرى . أما من الوجهة الاستراتيجية فكانت تشتمل بصفة رئيسية على سلسلة من الاقتراب المباشر التى لاطائل تحتها . أو تكاد تكون تحركات غير مباشرة لا تزيد نتائجها عن تلك . ومع ذلك فكانت تتخللها عدة من حالات الاقتراب غير المباشر الباهرة . وهذه كان يقترن أغلبها باسم "مارلبورو" الذائع الصيت . والمهم فى هذه الحالات هو أنها كانت تبين مواضع الانقلابات التى كانت تطرأ على الحرب .

والدول التى ائتلفت ضد فرنسا وتألبت عليها كانت تشمل النمسا ، وبريطانيا العظمى ، وعدة من الولايات الألمانية ، وهولندا ، والدانمارك ، والبرتغال ، فى حين ان التعضيد الرئيسى الذى لقيه "لويس" الرابع عشر جاء من أسبانيا ، وبافاريا ، ومن سافوى فى بادئ الأمر . وافتتحت الحرب فى ايطاليا الشمالية بينما كانت الجيوش الأخرى تتأهب وتستعد . أما النمساويون فقد تجمعوا تحت قيادة "أوجين" فى مقاطعة "التيرول" . وقام "أوجين" بالاستعدادات لزحف مباشر مع التظاهر والفخفخة ، كانت نتيجته أن قام الجيش المقاوم له الذى كان تحت قيادة "كاتينات" باتخاذ وضع يسد به طريق "أوجين" فى مضيق "ريفولى" . على أن أوجين كان قد استكشف سرا ممرا وعرا بين الجبال لم تسلكه جنود منذ زمن طويل ، وهبط الى السهول بعد ان دار دورة واسعة نحو الشرق . فحافظ على ميزته

واستمر فى الضغط بعدة مناورات كان من شأنها ان شتتت أفكار خصمه وحولتها عما كان يرمى اليه . وأخيرا استجلبه للهجوم عليه فى "كيارى" هجوما كان كارثة على الخصم فوطد مركزه فى ايطاليا الشمالية . ونتيجة هذا الاقتراب غير المباشر لم تقتصر على زيادة القوة المعنوية لدى الحلفاء بوجه عام فى أوائل نضالهم مع جيوش "الملك العظيم" التى "لا تغلب" فحسب ، بل انها كانت ضربة على قوة فرنسا واسبانيا فى ايطاليا لم يستفقا منها . وكانت لها نتيجة من الأهمية بمكان هى أن دوق "سافوى" الذى كان بطبيعته تتبع الجانب الأقوى تحول الى جانب الحلفاء .

وفى سنة ١٧٠٢ ابتدأ النضال الرئيسى . فتجمع أكبر الجيوش الفرنساوية فى "فلاندرز" حيث كان الفرنساويون قد حصنوا "خطوط برابانت" البالغة ٧٠ ميلا طولا من "انتورب" الى "هوى" بالقرب من "لياج" ليؤمنوا مؤخرة زحفهم الذى نووه . أما الهولنديون فبمجرد مارأوا أن الغزو يهددهم لم يفكروا فى شىء سوى الاقامة فى قلاعهم فلا يبارحونها . على أن "مارلبورو" كانت له فكرة عن الحرب تخالف هذه . فهو لم يقتصر على استبدال هذه المدافعة السلبية بحركة تعرضية مباشرة ضد الجيش الفرنسى الذى تحت قيادة "بوفلير" الذى كان سائرا اذ ذاك الى نهر الرين . بل انه بدلا من ذلك كشف القلاع وأسرع بالحركة قاصدا "خطوط برابانت" وخط رجعة "بوفلير" . فما كان من "بوفلير" الا أن شعر بجذب هذه "الأنشوطة" الأدبية فأسرع بالرجوع . ولما كان الجيش الفرنسى قد أعياه التعب جثمانيا وتزعزعت قواه المعنوية فانه كان قد أوشك أن يقع فريسة "لمارلبورو" الذى كان على استعداد لأن يتلقاه بين ذراعيه اولا أن نواب الهولنديين داخلهم الفزع واكتفوا بنجاة بلادهم من الغزو . فنهوا عن الاشتباك فى معركة لإنهاء النضال . وقد أوقع "مارلبورو" "بوفلير" فى شرك مرتين أخريين فى هذه السنة وفى كل مرة منهما كان الهولنديون يخلصون "بوفلير" من الشرك . وفى السنة التالية وضع "مارلبورو" خطة تدل على الدهاء لمناورة يستولى بها على "انتورب" فيحطم ذلك الحاجز المنيع . فانه استدرج الجيش الفرنسى الى شرق "انتورب" ثم تخلص منه وأسرع يتسابق نحو الغرب الى "انتورب" — ولكنه وجد أن القواد الهولنديين قد أهملوا الاحتشاد فى الوقت المقرر — فأفسدوا عليه كل تصميمه . فاشمأز "مارلبورو" واكتفى بحرب الحصارات الصغيرة التى توافق أمزجة الهولنديين . غير أنه فى سنة ١٧٠٤ أبرز أسمى اقترابه غير المباشر .

وكانت جيوش العدو هكذا : واحد فى "فلاندرز" تحت قيادة "فيلايروى" . وواحد تحت قيادة "تالارد" على نهر "الرين" الأعلى بين "مانهايم" "وستراسبورج" وبينهما قوات صغيرة للاتصال . وواحد مؤلف من البافاريين والفرنسيين تحت قيادة أمير "بافاريا" "ومارسين" بالقرب من "أولم" ونهر الدنوب . وهذا الجيش الأخير كان مندفعا الى الأمام من بافاريا يهدد "فينا" . فرسم "مارلبورو" خطة تنطوى على تحويل القسم الانجليزى من

جيشه عن وجهته من نهر "الموز" الى نهر " الدنوب " ، تاركا الهولنديين وراءه . ثم انزال ضربة حاسمة بالبافاريين الذين هم الشريك الأصغر فى العدو . فهذه الحركة البعيدة المرمى المتجهة نحو نقطة تبعد عن قاعدته هذه المسافة الشاسعة ، كما تبعد عن المصالح المباشرة التى كان يحافظ عليها جهة الشمال ، كانت حركة جريئة بموجب كل قاعدة . ولكنها كانت أكثر جراءة بموجب الاستراتيجية المبنية على الحذر التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . أما سلامتها فكانت منحصرة فى التأثير الذى أحدثته مفاجأتها للعدو فزحزحته . ولما تحرك نحو الجنوب هابطا نهر "الرين" كان الظاهر أنه يقصد الجنود الفرنسية الموجودة فى ذلك الميدان . وقد أيد هذا الايهام الطبيعى بأن قام باستعدادات تدل فى ظاهرها على اقامة (أى بناء) جسر (كوبرى) على نهر "الرين" فى " فيلبسبورج " . ولكن عند وصوله الى " مانهايم " حيث يكون من الواضح أنه يتجه منها نحو الجنوب الغربى ، خالف ذلك الاتجاه واتجه نحو الجنوب الشرقى ثم اختفى فى وادى " النكار " صعدا . ومن هناك عبر قاعدة المثلث المكون من نهرى "الرين" "والدنوب" متجها نحو "اولم" . وبعد أن اتصل "بمارجراف" "بادن" و"أوجين" ، تحرك مع قوات الأول منهما بينما عاد الثانى ليعوق تقدم الفرنسيين أو ، على الأقل ، ليؤخرهم على نهر "الرين" — حيث كان "فيللروى" قد اقتفى أثر "مالبورو" من "فلاندرز" متأخرا .

على أن "مارلبورو" ولو أنه كان قد وضع نفسه على مؤخرة الجيش الفرنسى — البافارى بالنسبة لفرنسا ، فانه كان ما يزال أمام ذلك الجيش بالنسبة "لبافاريا" . فهذا الجوار الجغرافى الذى يكاد يكون تماسا هو وظروف ذلك العهد حالا دون استثماره مزايا خطته الاستراتيجية . وأحد هذه الظروف هو صلابة التنظيم التكتيكى للجيوش ، التى تجعل اتمام المناورة الاستراتيجية أمرا صعبا . فان القائد فى استطاعته أن يجر العدو الى الماء ولكنه لا يستطيع أن يرغمه على الشرب — أى انه لا يمكنه أن يرغمه على قبول المعركة على غير ارادته . وظرف آخر هو أن "مارلبورو" كان عليه أن يتبادل القيادة ، يوما بعد يوم ، مع "مارجراف" "بادن" الشديد الحذر .

وكان العدو مستحكما فى موقع قوى فى "أولم" على نهر الدنوب . فأراد "مارلبورو" فى بادئ الأمر أن يجد ممرا شرقى هذا الموقع يكون بغير حراسة ليمر منه ويأتى من وراء العدو . ولكنه بدلا من أن يجازف بزيادة التأخير بسبب حذر " المارجراف " اختار اليوم الذى يتولى فيه القيادة وقام فيه باقتحام أقسام العدو التى كانت تستر معبر "دوناو ويرث" اقتحاما كلل بالفوز وان كان غالى الثمن . على أن جيش العدو الرئيسى رجع سالما الى "أوجسبورج" . وعندها أخذ "مارلبورو" يخرب البلاد ليكون تخريبه لها دافعا لأمير بافاريا لقبول الشروط التى يفرضها عليه ، أو أن يقبل دخول معركة فى ظروف ليست فى صالحه . وهذه النية أفسدها ظرف آخر

من ظروف تلك الأزمان — ذلك هو أن الحرب من شؤون الحكام لا من شؤون الاهالى ، ولم يهتم الأمير بالمضايقات التى هى فى الدرجة الثانية . وعلى ذلك توافر الوقت لدى "تالارد" ليصل قادما من " الرين " . على أن وصوله قابله وصول " أوجين " الذى تجرأ وتسلل من أمام "فلليروى" لينضم الى "مارلبورو" . فتحرك كل من " مارلبورو " و"أوجين" زاحفين على الجيش المشترك بين "تالارد" و" مارسين " والأمير على غير انتظار . ومع أن المفاجأة لم تكن تامة ، الا أنهما صادفاهم فى " بلنهايم " وهم بأوضاع مرتكبة كان من شأنها أن أتاحت "لمارلبورو" الفرصة لزحزحتهم تكتيكيا . فكان من ثمرة هذا النصر أن استبعد الشريك الأصغر الذى هو " بافاريا " من الحرب نهائيا . فضلا عن تشتت جيشين فرنسيين وتمزيق "مناعة" جنودهم .

وبعد ذلك رجع "مارلبورو" الى "فلندرز" فانسحب منها الجيش الفرنساوى الى ماوراء "خطوط جيت" الجديدة — من "انتورب" الى "نامور". وفى سنة ١٧٠٥ أيضا جر الجيش الفرنسى وأبعده فى اتجاه ضال ثم رجع مسرعا واخترق قطاعا ضعيفا ولم يحل بينه وبين النصر سوى تثاقل الهولنديين . وفى حملة السنة التالية ابتكر " مارلبورو " اقترابا غير مباشر أبعد غورا من سابقه — لينضم الى "أوجين" فى ايطاليا ولكن جبن الهولنديين قيده فى "فلاندرز". ومع ذلك فان نوبة الجراءة التى استولت على "فلليروى" فجأة فدفعته الى المغامرة بالخروج من خطوطه المستحكمة قد مكنت "مارلبورو" من مقاطعته فى الطريق قبل أن يتمكن من الالتجاء الى قلاع "الموز" . وقد فعل ذلك "مارلبورو" دون أن ينتظر جنود حلفائه ليخرجوا معه . وفاز بالنصر فى "راميليز" بفضل اقتراب تكتيكى غير مباشر باهر . واستغل هذا النصر بأن تعقب العدو تعقبا أدى الى سقوط كل بلاد " فلاندرز" و "برابانت" فى قبضة يده . وفى نفس هذه السنة انتهى الحرب فى ايطاليا فعلا بمثال آخر من الاقتراب غير المباشر . ذلك أن "أوجين" أرغم فى بادئ الأمر على التقهقر حتى وصل الى بحيرة "جاردا" ومنها الى الجبال ، بينما كان حليفه ، دوق "سافوى" محصورا فى "تورينو" . " فأوجين " بدلا من أن يحاول أن يشق طريقة حربا تفوق على خصمه فى المناورات وتسلل منه وانفصل من قاعدته وتركها ثم والى الضغط حتى نفذ من " لومبارديا " الى "بيمونت" . وفى " تورينو " أنزل بالعدو هزيمة حاسمة مع أنه كان متفوقا عددا على "أوجين" ولكن عقليته كانت قد تزعزعت .

وفى ذلك الحين كانت الحرب قد انكمشت واقتصرت على الحدود الفرنساوية شمالا وجنوبا غير أنه فى سنة ١٧٠٧ قام الخلاف بين الحلفاء فتوافر الوقت لدى فرنسا لتستجمع قواها . وفى السنة التالية حشدت قواتها الرئيسية ضد " مارلبورو " . ولما كان " مارلبورو " مقيدا فى "فلاندرز" وكان العدو يتفوق عليه عددا بكثير ، فانه تبادل مع " أوجين " عكس حركة "الدنوب" بأن تحول جيش "أوجين" من الرين لينضم الى "مارلبورو" . على أن الفرنسيين

كان يقودهم الآن قائد قدير هو " فيـدوم " فتقدموا قبل أن يصل " أوجين " . وبعد أن أغرى "فيدوم مارلبورو" على التقهقر الى "لوفان" بهذا التهديد المباشر ، تذرع بالحيلة لأول مرة وتحول فجأة نحو الغرب فاسترجع "غنت" و "بروجز" وفى الواقع كل "فلاندرز" غربى نهر "الشلت" دون أن يكلفه ذلك شيئا . على أن "مارلبورو" بدلا من أن يسير اليه ويقاومه مباشرة جازف بالاندفاع نحو الجنوب الغربى ليحول بينه وبين الحدود الفرنسية . وفى "أودينار" والى الضغط الى نهايته فزحزح العدو تكتيكيا على أثر الميزة الأولى التى اكتسبها بزحزحته استراتيجيا .

فلو أن " مارلبورو " كان فى استطاعته أن ينفذ رغبته فى التحرك الى باريس على الفور لكان من المحتمل أن تنتهى الحرب . فان "لويس" حتى مع ما كانت عليه الحالة اضطر لأن يطلب الصلح فى ذلك الشتاء وعرض على الحلفاء شروطا فيها مايكفى مقاصدهم . ولكنهم رفضوها فرفضوا المسادة فى سبيل الخيال الذى هو اتمام اذلاله . ولهذه الأسباب تجدد الحرب ثانيا فى سنة ١٧٠٩ . فكان مشروع " مارلبورو " عبارة عن اقتراب عسكرى غير مباشر الى غرض سياسى فيه الحل المطلوب — وكانت فكرته تنطوى على التسلل من وراء قوات العدو وتغطية قلاعه ثم اتخاذ " باريس " هدفا . على أن هذه الحركة تتجاوز الحد فى الجراءة حتى عند أوجين وعلى ذلك فانها عدلت الى خطة تنطوى على التفادى من الهجوم المباشر على " الخطوط " المستحكمة التى تستر الحدود بين " دووای " و " بيتون " . ولكنها بدلا من ذلك كانت ترمى الى الحصول على القلعتين الجانبيتين " طورناى " " ومون " تمهيدا للزحف الى داخل فرنسا على طريق شرقى المنطقة المستحكمة . وهنا أيضا تمكنت عبقرية " مارلبورو " من خداع العدو . فان تهديده بالهجوم المباشر على الخطوط أدى بهم الى سحب معظم جنود حامية " طورناى " لتعزيزها . وعند ذلك رجع " مارلبورو " على جناح السرعة وضيق على " طورناى " ولكنها مع ذلك استبسلت فى المقاومة حتى أخرته مدة شهرين . غير أنه تمكن بهجمة جديدة صوبها الى « خطوط لاباسيه » من الانقضاض على " مون " ومحاصرتها دون أن يعوقه عائق . على أن الفرنساويين تحركوا مجتازين الفضاء بدرجة من السرعة كافية لسد طريقه والحيلولة دون تنفيذ خطته . وهنا تورط " مارلبورو " لأول مرة فى اقتراب مباشر ، أقل حكمة من اقتراب "كرومول" من "دنبار" . ومع أن اقتحامه العدو الذى كان مستعدا فى متاريس جيدة وكان يحافظ على « بوابة » " ماليلاكيت " انتهى بالنصر فانه كلفه من الأنفس ماجعل "فيللارد" القائد المهزوم يكتب الى لويس يقول : « لو أن الله أعطانا هزيمة أخرى مثل هذه لأبيد أعداء جلالتكم » وقد كان لقوله صدق النبوة فان انتصار " ماليلاكيت " كلف الحلفاء آمالهم فى النصر فى تلك الحرب .

وفى سنة ١٧١٠ سادت حالة « مات الشاه » وأصبح " مارلبورو " محبوسا كأنه فى قفص وراء الخطوط « النهائية » التى كان الفرنسيون أقاموها من " فالنسيين " الى البحر

فكانت فرصة لأعدائه السياسيين فى وطنه اتخذوها حجة لتقويض مركزه . ثم ان الحظ تنكر أيضا للذين فقدوا رعايته ، ففى سنة ١٧١١ استدعى جيش أوجين الى بلاده بسبب موقفها السياسى وبقى مارلبورو مواجها لعدو يتفوق عليه كثيرا . ولما كان بدرجة من الضعف لايستطيع معها أن يحاول أو ينفذ أى عملية حاسمة فانه استطاع على الأقل أن يثبت مقدرته بتفنيد ما كان الفرنسيون يفتخرون به مما أسموه الخطوط « التى ليس بعدها خطوط » وقدفعل ذلك باقترابه غير المباشر الذى كان أكثر دهاء وأبعد حيلة من كل ما قام به من الاقتراب فأخذ يخدع العدو ، ويحول أفكاره . ويسرع فى السير مرارا متوالية حتى تمكن من الانسلال من الخطوط ونفذ منها دون أن يطلق طلقة . ولكنه استدعى بعد ذلك بشهرين الى انجلترا ليلقى الاذلال والعار . وفى سنة ١٧١٢ هجرت انجلترا حلفاءها وتركتهم يقاتلون وحدهم . فبقى النمساويون والهولنديون تحت قيادة أوجين محافظين على موقفهم مدة من الزمن ثم أخذ التعب والاعياء يستولى على كلا الفريقين المتحاربين . غير أنه فى سنة ١٧١٢ قام "فيللار" بمناورة مشتركة كان ما انطوت عليه من الخداع ، والتكتم ، والسرعة مما يليق "بمارلبورو" . وفى نهاية الأمر فاز بنصر حاسم على كل الحلفاء فى "دينين" لم يكلفه الا القليل . وبذلك تم انحلال الائتلاف وتمكن "لويس" من عقد صلح يختلف كل الاختلاف عما كان يكون من نصيبه قبل معركة "مالپلاكيت" . ففيها حصل اقتراب مباشر أضاع كل الفوائد التى اكتسبتها الاقترابات غير المباشرة . والأمر الذى لا يقل عن ذلك مغزى هو أن النضال انتهى أخيرا بعكس ما انتهت اليه تلك المعركة . وكان ذلك بمثال آخر من الاقتراب غير المباشر .

ومع أن الحلفاء حرموا من غرضهم الأصلى وهو منع "لويس" الرابع عشر من ايجاد اتحاد فعلى بين فرنسا وأسبانيا فان انجلترا خرجت من الحرب رابحة فى الممتلكات . والفضل فى ذلك يرجع الى بعد نظر "مارلبورو" وامتداده الى ماوراء حدود مسرح عملياته الضيق . فانه جمع بين العمليات البعيدة المدى فى البحر الأبيض المتوسط والعمليات الخاصة به فى "فلاندرز" كوسيلة لتشتيت فكر العدو من الوجهة العسكرية ، وميزة تبقى فى جانبه من الوجهة السياسية . فتجريدتا سنة ١٧٠٢ وسنة ١٨٠٣ ساعدتا على استبعاد بلاد البرتغال "وسافوى" من جانب العدو ومهدتا الطريق لحركة موجهة ضد "سنده" الأكبر وهو أسبانيا وتجريدة سنة ١٧٠٤ التالية ربحت جبل طارق . ثم ان "بيتر بورو" قام بدور مشتت لفكر العدو فى أسبانيا يدل على المقدرة ، وفى سنة ١٧٠٨ استولت تجريدة أخرى على جزيرة "مينورقة" . فاذا كانت العمليات التى أجريت فى أسبانيا بعد ذلك أسيئت ادارتها وكانت أقل حظا فى نتائجها ، فانجلترا خرجت من الحرب تملك جبل طارق وجزيرة مينورقة وهما مفتاحان لسيادة البحر الأبيض المتوسط ، "ونوفاسكوشيا" و"نيفوندلند" فى المحيط الاطلنطى الشمالى .

ثم ان نتائج حرب ارتقاء عرش النمسا التي وقعت فى سنة ١٧٤٠ — ١٧٤٨ ولم تكن حاسمة، لا يمكن التعبير عنها بأفصح من العبارة التي أصبحت دارجة بين الأمة التي كانت أكثر الأمم فلاحا من الوجهة العسكرية — الأمة الفرنسية — وهى قولهم "انك لبليد بلادة الصلح" فهذه الكلمة كانت توجه الى المواطنين الذين هم موضع الكراهية . والحاكم الوحيد الذى استفاد منها بالوسائل المشروعة أو غير المشروعة هو فردريك الأكبر . فانه ربح "سليسيا" مبكرا ثم انسحب من المباراة . ومع أنه عاد اليها فيما بعد فانه جازف بخسارة الشيء الكثير دون أن يربح أكثر مما ربحه سوى حق تطريز بنوده بأسماء بعض الانتصارات الشهيرة . غير أن هذه الحرب علاوة على ذلك وطدت نفوذ بروسيا كدولة عظمى . والحوادث التي قضت بترك "سليسيا" لبروسيا فى معاهدة الصلح الأولى التي عقدت فى "برسلاو" سنة ١٧٤٢ هى من الحوادث التي تستحق الذكر لأن الآمال فى بدء هذا العام كان يظهر أنها قريبة من الخيبة . فقد تم الاتفاق بين الفرنسيين والبروسيين على الزحف على الجيش النمساوى الرئيسى بالاشتراك معا. ولكن سرعان ما أرغم الفرنسيون على التوقف فى أماكنهم . فما كان من "فردريك" الا أنه بدلا من موالاة السير غربا لينضم على حليفته اتجه فجأة نحو الجنوب قاصدا "فينا" . ومع أن مقدمة جنوده ظهرت أمام عاصمة العدو فانه أسرع بالرجعة وسار جيش العدو ليقطع عليه رجعته ويفصله عن قاعدته . وهذا الزحف الذى زحفه "فردريك" اعتاد الناس أن يعيبوه عليه بأنه مجرد مظاهرة طائشة . ومع ذلك فقد تكون هذه التهمة قاسية اذا روعيت نتيجة هذا الزحف . فانه بهذا التقهقر السريع ، الذى كان فى ظاهره طلبا للنجاة . جر النمساويين وراءه متعقبين الى مسافة بعيدة حتى توغلوا فى سليسيا . وعندها انقلب كارا عليهم فهزمهم ثم استغل الهزيمة بشدة تعقبه لهم . ولم يمض على هذا الحادث سوى ثلاثة أسابيع حتى عقد النمساويون صلحا منفصلا مع "فردريك" من شرائطه تنازلهم له عن سليسيا . وقد لا يكون من الحكمة التبسط فى الاستنتاج من هذا الحادث . ولكن أقل ما هناك هو أن الشيء العجيب فى ذلك أن هذا الميل الفجائى لعقد صلح مع التضحية قد جاء على أثر الاقتراب الوحيد غير المباشر الذى حصل فى هذا المسرح مدة الحرب . مع أن هذا الاقتراب لا يتضمن شيئا أكثر من مجرد الظهور أمام "فينا" ونصر تكتيكى صغير استخلص ، على ما يظهر ، من بين أنياب الهزيمة . فضلا عن أنه كان أقل تظاهرا من انتصارات "فردريك" الكثيرة الأخرى .

واذا كانت حرب ارتقاء عرش النمسا ليست حاسمة فى نتائجها العامة، فان الحرب الكبرى الأخرى التي وقعت بعدها فى منتصف القرن الثامن عشر لم تكن أحسن منها — من وجهة نظر السياسة الأوربية . فان المملكة الوحيدة التي أحرزت نتائج وكانت حاسمة فى التأثير على مجرى التاريخ الأوربى هى انجلترا . ولم تكن انجلترا اذ ذاك شريكا غير مباشر فى حرب السبع السنين (١٧٥٦ — ١٧٦٣) فحسب ، بل انها ساهمت فيها وحصلت على ربحها منها

بطرق غير مباشرة أيضا . لأنه فى الحين الذى كانت فيه جيوش أوربا تنهك قواها وتستنفد موارد بلادها فى قتال مباشر . كانت أقسام صغيرة من الجنود المرسلة من انجلترا تستغل ذلك الضعف لفائدتها بأن أوجدت الامبراطورية البريطانية . وفضلا عن ذلك فان حصول بروسيا على صلح غير حاسم بدلا من صلح مذل ، وهى مشرفة على التضعضع ، كان الفضل فيه لزحزحة قوة فرنسا الهجومية زحزحة غير مباشرة بسبب ما حل بمستعمراتها من الكوارث ، وزحزحة "الضربة القاضية" التى كان فى نية روسيا أن تنزلها ببروسيا ، بسبب وفاة زوجة القيصر فان سلسلة الانتصارات الباهرة الكثيرة التى أحرزها فردريك الأكبر فى المعارك لم يكن من نتائجها الا أنها تركته وقد تجرد من موارده بوجه التقريب ، فأصبح فى سنة ١٧٦٢ عاجزا عن موالاة المقاومة .

وعلى ذلك فليس فى الحملات الأوربية التى توالت وراء بعضها بعضا بين الجنود الأوربية فى هذه السلسلة الطويلة ما يسمى حاسما بحق ، سواء فى نتائجها العسكرية والسياسية ، الا حملة "كويبك" . وهذه الحملة لم تكن أقصر الحملات أجلا فحسب . بل انها وقعت فى مسرح ثانوى . فكما أن الاستيلاء على "كويبك" والتغلب على السيادة الفرنسية "بكندا" صارا فى حيز الامكان بفضل المقدرة على الاقتراب غير المباشر المؤسس على الاستراتيجية العظمى ، المتوفرة فى القوة البحرية ، كذلك كان الحسم والفصل فى الحملة من وجهة مجراها الحربى راجعا الى الاقتراب الاستراتيجى غير المباشر . وفضلا عن ذلك فان الدرس المستفاد له مغزى أكبر بسبب أن هذا الاقتراب غير المباشر الذى يظهر أنه محفوف بالأخطار لم ينتج الا بعد أن أخفق الاقتراب المباشر الى خط نهر "المونتمورانسى" بخسائر فادحة فى الانفس وأكثر منها فى القوة المعنوية . وانصافا "لوولف" لا بد من التنويه بأنه لم يستسلم لهذا الاقتراب المباشر الا بعد أن فشل الطعم الذى ألقاه للعدو — من ضرب "كويبك" بالمدافع وتعريض أقسام منفصلة فى "بوينت ليفى" وبالقرب من شلالات "مونتمورانسى" — فى استدراج الفرنسيين للخروج من موقعهم القوى . على أن هناك درسا يستفاد من اخفاق هذه الوسائل متى قورنت بالنجاح الذى صادفته أخيرا المخاطرة بانزال جنوده الى البر على مؤخرة الفرنسيين صعدا من "كويبك" . فاستدراج العدو لم يكف . وكان من الضرورى أن يجره الى الخارج . وكذا أيضا اخفاق الهجمات الكاذبة التى حاول "وولف" بها أن يهيئ اقترابه المباشر . فان تضليل العدو لم يكن كافيا . فلا بد من تحويل أفكاره — وذلك معناه الجمع بين مخادعة عقل العدو ، وحرمانه من حرية التحرك ليقوم بعمل مضاد ، وانتشار جنوده . ومع أن حركة "وولف" النهائية كانت تظهر للناظر اليها سطحيا انها آخر رمية يلقيها المقامر ، فان كل هذه الشروط قد توفرت فيها — وكانت النتيجة النصر . وحتى عند الذين من عادتهم أن يدرسوا التاريخ الحربى من وجهة مقدار القوة المسلحة يظهر أن درجة

ما أصاب القوات الفرنساوية من الزحزحة لم تكن مبررة لدرجة سقوطهم . ولقد كتبت عجالات كثيرة تبين ما كان فى استطاعتهم أن يعملوه . وكيف كان ينبغى لهم أن يصلحوا موقفهم . ولكن معركة "كويبك" هى مثال بارز على صدق القول بأن الحسم يحصل بزحزحة جيش عقليا ومعنويا أكثر مما يحصل بزحزحة جنوده جثمانيا . وهذه النتائج تفوق على التقديرات الجغرافية والاحصائية التى تملأ تسعة أعشار كتاب عادى فى موضوع التاريخ الحربى .

ولكن اذا كان المجرى الرئيسى لحرب السبع السنين فى أوربا لم يكن ثابتا فى سيره ، كما يدلنا التاريخ ، بالرغم من كثرة الانتصارات التكتيكية ، فان البحث عن السبب أمر يستحق العناية . فاذا كان عدد أعداء "فردريك" هو التفسير المعتاد لذلك فان جملة ما أحرزه من المزايا يقابله ويزيد عليه بدرجة تجعل هذا التفسير غير واف . فعلينا اذن أن نتعمق فى البحث .

" فردريك " مثل " الاسكندر " و" نابليون " وعلى عكس " مارلبورو " كان غير مقيد بالمسئولية ولا بالحدود الملزم بهما الاستراتيجى بالمعنى الصحيح . وكان يجمع فى شخصه وظائف الاستراتيجية والاستراتيجية العظمى . وفضلا عن ذلك فان اجتماعه بجيشه على الدوام بصفته ملكا أمكنه من إعداد وسائله والتوسع فيها لتلائم الغاية التى يختارها . ثم ان قلة القلاع نسبيا فى مسارح حربه كان ميزة أخرى له .

ومع أن " فردريك " كان يواجه دول الائتلاف المكون من النمسا ، وفرنسا ، وروسيا ، والسويد ، وسكسونيا وليس له حليف سوى انجلترا فانه كان متفوقا على أعدائه من حيث عدد الجنود الموجودة فعلا من أول الحرب الى منتصف الحملة الثانية . وزيادة على ذلك كانت له ميزتان عظيمتان الأولى آلته التكتيكية (جيشه) التى كانت تفوق آلة أى عدو من أعدائه . والثانية مركزه المتوسط وهذا المركز مكنه من ممارسة ما يسمى عادة استراتيجية " الخطوط الداخلية " فينزل ضرباته من مركزه المتوسط الى الخارج موجها اياها الى احدى القوات الموجودة على المحيط . وينتفع بأقصر مسافة فيسير للاحتشاد ضد احدى قوات أعدائه قبل أن تستمد العون من الآخر . فبحسب الظاهر يلوح أنه كلما بعدت بعض هذه القوات المعادية عن بعض سهل الحصول على نجاح حاسم . وهذه حقيقة لاشك فيها متى روعى الزمن والمسافة وعدد الجنود على أن العنصر المعنوى يدخل هنا أيضا . فعند ما تكون قوات الأعداء متباعدة بعضها عن بعض بمسافات كبيرة يكون كل منها فيه كفايته ويميل لأن يتوطد بالضغط . واذا كانت منضمة معا فانها تميل الى الاتحاد " ويصير كل منها عضوا من الآخر " وتعتمد كل منها على الأخرى بالتبادل عقليا ، ومعنويا ، وماديا ، فتتأثر عقول القادة بعضها ببعض والتأثيرات الأدبية سريعة الانتقال من شخص الى آخر . حتى انه يبقى من السهل أن حركات كل قوة تعوق حركات القوات الأخرى أو تفكك نظامها . وعلى ذلك

فان كان الوقت والمسافة عنـد الخصم أقل مما يلزمه للقيام بعمله ، فان نتائج زحزحته تظهر بدرجة أسرع وأسهل . وأيضا عندما تكون القوات متقاربة بعضها من بعض فان مجرد تحول اقتراب العدو من واحدة منها قد لا تتوقعه الأخرى وحينئذ يصير فى الحقيقة اقترابا غير مباشر بالنسبة لهـا . وعلى النقيض من ذلك اذا كانت القوات متباعدة بعضها عن بعض بمسافات كبيرة يتوافر لديها الوقت للاسـتعداد لملاقاة الضربة الثانية التى يريد الجيش الذى يسـتغل مركزه المتوسط انزالها أو للتفادى منها .

فاستخدام " الخطوط الداخلية " كما استخدمها " مارلبورو " فى سيره الى نهر الدنوب هى صورة أخرى للاقتراب غير المباشر . ولكن ولو انه اقتراب غير مباشر بالنسبة للقوات المعادية بأجمعها فانه ليس كذلك بالنسبة للقوة التى هى الهدف المقصود فعلا الا اذا أخذت على غرة منها . والا فلا بد من اتمـامه باقتراب غير مباشر آخر — للغرض نفسه .

وكان فردريك يستخدم مركزه المتوسط دائمـا ليحشد جنوده ضد جزء من العدو . وكان دائمـا يستخدم تكتيكات الاقتراب غير المباشر . و بهذه الوسيلة فاز بانتصارات كثيرة . على أن اقترابه التكتيكى غير المباشر كان من نوع هندسى لا من نوع مؤسس على دراسة علم النفس — أى لم يسبقه تمهيد من نوع صور المفاجأة التى هى أكثر دهاء والتى كان "سيبو" يميل اليها — فكانت مناوراته ضيقة النطاق وان كان تنفيذها يشف عن المهارة . فقد يكون العدو عاجزا عن تلقى الضربة لقلة مرونته العقلية أو لقلة مرونة تشكيلاته . ولكن الضربة ذاتها لم تكن غير منتظرة عند العدو .

ففى " پراج " ابتدأ الاقتراب بصورة غير مباشرة ولكنه صار مباشرا قبل أن تتم المناورة ولم يرجح كفته فى المعركة الا وصول فرسان " تسايتن " الذين كانوا داروا دورة شاسـعة . ولم يكن وصولهم منتظرا عند النمساويين . وفى " كولن " كانت المناورة ضيقة بدرجة أن جنود فردريك لمـا ضايقتهم النيران غيروا طريق سيرهم وهجموا هجوما مباشرا فأخفقوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة . وفى " روسباخ " كانت قوة الفرنساويين وحلفائهم ضعف قوة فردريك فحاولوا أن يقلدوا مناورة فردريك و يقابلوه بها . فلم يكن من ضيق المناورة أن أشعره بها فى وقت كاف فحسب ، بل ان افتراضهـم ، على عجل ، أنه كان متقهقرا قبل ضـياع الوقت أدى بهم الى تشتيت أفكار جنودهم و " تحويلها " لكى يلحقوا به حتى انه لمـا قام بمناورة مضادة ليقع على جناحهم الأبعد ، لا ليقابلهم وجها لوجه ، تزحزحوا حالا . وهنا أحرز فردريك اقترابا حقيقيا غير مباشر بواسطة المفاجأة . وليس فقط بواسطة خفة الحركة . وقـد كان هذا الانتصار أكثر كل انتصاراته اقتصادا . لأنه فى مقابل خسارة ٥٠٠ جندى بين قتيل وجريح أوقع بالعدو خسارة ٧,٧٠٠ وشتت جيشا يبلغ عدده ٦٤,٠٠٠ . ولسوء حظه كان قد استنفد قوته بدرجة كبيرة فى المعارك السابقة حالت بينه و بين جنى ثمـار هذا النصر

بالكامل . وصار عليه الآن أن يعالج الجيش النمساوى الذى عجز عن تسوية حسابه معه فى "براج" و"كولن" . ومع أنه فاز فى "لوبثن" فان النصر الذى أحرزه فيها بواسطة اقتراب باهر ، وان كان غير مباشر فى ظاهره ، كلفه ما لا طاقة له به . وعلى هذا المنوال استمر استخدام فردريك "للخطوط الداخلية" فى سنة ١٧٥٨ وكان الطابع يزداد عبوسا . فابتدأ باقتراب غير مباشر حقيق ، بأن سار أمام جبهة النمساويين واجتاز جناحهم حتى وصل الى "أولمتس" أى مسافة ٢٠ ميلا فى أراضى العدو . ولم يتقهقر حتى بعد أن ضاعت له قافلة نقل عظيمة كانت تحمل مؤنا ، بل استمر فى سيره مجتازا "بوهيميا" دائرا حول مؤخرة النمساويين الى أن دخل قاعدتهم المحصنة "كونيجراتس" . ولكنه صار الآن ملزما مرة أخرى لأن يتحمل غرم الفرص التى أضاعها فى "براج" و"كولن" لأن "الآلة البخارية الساحقة" الروسية كانت الآن قد استعدت وتقدمت سائرة الى "پوزن" فى طريقها الى "برلين" . فقرر قرار فردريك على أن يتجاوز عن اكمال حملته البوهيمية ويسير شمالا لوقف الروسيين . وقد نجح فى ذلك الا أن "تسورندورف" كانت "براج" أخرى ولعبت فرسان "سيدلتس" دور الملاك الحارس وهو الدور الذى سبق أن لعبه "تسايتن" بصورة غير مباشرة . وعلى ذلك اضطر فردريك لأن يترك الروسيين وشأنهم ليستعيدوا قواهم وقفل راجعا للقاء النمساويين . وقد قل رأس ماله فى الرجال أكثر مما كان — فلاقاهم فى "هوخكرش" وكانت جنوده لم تزدد نقصا فحسب بل انه لاقى الهزيمة بسبب تجاوزه الحد فى الثقة بأن خصمه النمساوى القديم "داون" لا يبادره بقوته الانشائية مطلقا (أى انه لا يكون البادئ بالعمل) . وعلى هذه الصورة فوجئ فردريك مفاجأة مزدوجة وحوصر ليلا فلم ينجه من الهلاك سوى فرسان "تسايتن" اذ أبقوا ممرا مفتوحا ليتقهقر منه . وعلى هذا المثال استمرت الحرب فى سنة ١٧٥٩ وفردريك آخذ فى التدهور . وفى "كونزدورف" لاقى أشد هزيمة عرفها فى حياته ، على يد الروسيين . ولاقى فى "ماكسن" هزيمة أخرى من "داون" — وهذه أيضا كانت بسبب وضع الثقة فى غير موضعها — ومن ذلك الحين لم يعمل شيئا سوى مقاومة العدو مقاومة سلبية بسد الطريق أمامه . على أنه فى الوقت الذى كان فيه نجم بروسيا آخذا فى الأفول كان نجم السعد آخذا فى الاشراق فى "كويبك" . وكان النصر الذى أحرزه "وولف" مشجعا لانجلترا ومساعدا لها على ارسال جنود الى ألمانيا مباشرة . وهذه الجنود عوضت المصائب التى حلت بفردريك بانتصارها على الفرنسيين فى "مندن" . ومع ذلك ففى سنة ١٧٦٠ ظهر ضعف فردريك أكثر مما فى أى وقت آخر . واستراح فترة من الضغط الواقع عليه من الشرق بحيلة دبرها بأن أوقع فى أيدى الروس رسالة منه منطوقها أن "النمساويين قد انهزموا اليوم هزيمة تامة . والآن لنتجه نحو الروسيين . فافعلوا ماتفقنا عليه" . ومع أن الروسيين دخلت عليهم الحيلة وتقهقروا فان الهزيمة التى أصابت النمساويين فيما بعد فى "طورجاو" كانت نصرا آخر لفردريك من نوع المقامرة . ولما ارتبك فكره من جراء ما أصابه من الخسائر ولم يبق لديه

سوى ٦٠,٠٠٠ جندى . لم يجرؤ على الاشتباك فى معركة ، حتى أصبح منقطعا فى سليسيا وليس بينه و بين بروسيا اتصال . فمن حسن حظه كانت استراتيجية الجيش النمساوى على أشد ما هو معهود فيها من الجمود . ثم ان خدمات مؤخرة الجيش الروسى أخفقت وأصابها العطل كما هى عادتها . وفى ابان هذه الأزمة توفيت القيصرة (زوجة القيصر) وجاءت التى أخلفتها فلم تكتف بعقد الصلح بل أخذت أيضا تفكر فى معاونة فردريك . و بقيت كل من فرنسا والنمسا مدة بضعة أشهر فى حرب متقطعة . على أن قوة فرنسا كانت قد تقوضت بسبب ما حل بمستعمراتها من المصائب . وأصبحت النمسا فضلا عن فتور الهمة فى حالة من الاعياء عجلت عقد الصلح . فكانت كل البلاد التى اشتركت فى الحرب فى غاية الضعف . وهذه السنين السبع التى انقضت فى سفك الدماء لم يستفد منها سوى انجلترا .

واذا كان فى حملات فردريك الكثير من نخبة الدروس فان الدرس الرئيسى منها على ما يظهر هو أنه كان يعتبر الاقتراب غير المباشر مسألة خفة فى الحركة فقط بدلا من اشتراك خفة الحركة مع المفاجأة . ولذلك فان اقتصاده فى القوى خاب بالرغم مما كان عليه من النباهة والذكاء .

الباب السابع

الثورة الفرنساوية ونابليون بونابرت

انسلخت فترة ثلاثين سنة ثم رفع الستار عن "الحرب العظمى" التى أضاءتها عبقرية نابليون بونابرت . فكما كانت فرنسا منذ قرن . كانت فى ذلك الحين أيضا الخطر المهدد الذى تألبت عليه دول أوربا . ولكن مجرى النضال فى هذه المرة كان مخالفا لما كان عليه منذ قرن . فان فرنسا الثائرة قد يكون لها كثيرون من المشاركين لها فى احساسها ولكنهم ليسوا حكومات الأمم ، وليسوا هم المسيطرين على قوات دولهم المسلحة . ومع ذلك فانها لما بدأت الحرب بمفردها وهى منفصلة قهرا عن غيرها من الدول كما لو كانت تحمل جراثيم مرض معد تمكنت لامن صد المساعى المشتركة التى بذلت فى سبيل اخماد أنفاسها فحسب ، بل انها بعد أن غيرت صورتها أصبحت تهدد كل بقية أوربا تهديدا عسكريا متزايدا . وانتهت أخيرا بأن صارت السائدة حربيا على القسم الأعظم من أوربا . والسر فى ذلك يرجع بعضه الى ظروف طبيعية و بعضه الى ظروف شخصية . فأما الأولى فقد نشأت عن الروح الوطنية والثورية التى كانت مستولية على جيوش فرنسا الوطنية . وهى التى أطلقت العنان للشعور التكتيكى والقوة الانشائية فى الأفراد ليحلا محل التدريب الدقيق الذى أصبح غير ممكن مع وجود تلك . وهذه التكتيكات الحديثة السيالة كانت قائمة على أساس بسيط ولكنه حيوى وهو أن الفرنساويين صاروا الآن يمشون ويقاتلون بسرعة تبلغ ١٢٠ خطوة فى الدقيقة فى حين أن اعدادهم كانوا ما يزالون محافظين على طريقتهم الأصولية وهى ٧٠ خطوة فى الدقيقة . وهذا الفرق الأساسى فى الوقت الذى سبق ما قدمه العلم الميكانيكى للجيوش من وسائل التنقل بسرعة تزيد على سرعة السير على الأقدام ، صير سرعة انتقال قوة انزل الضربة واعادة حشدها مع "تغيير أوضاع" الوحدات والتشكيلات أمرا فى حيز الامكان . و بذا تمكن الفرنسيون ، على قول نابليون ، من عملية ضرب "الكتلة فى السرعة" استراتيجيا وتكتيكيا .

والظرف الطبيعى الثانى هو تنظيم الجيش الى فرق مستديمة . أى تجزئته الى أقسام كل منها به كفايته ، مستقل بذاته و يعمل على حدة . وهذا التجديد ابتكره " دو — بروجلى " وكان موجودا حتى قبل الثورة . ولكن فى ذلك الحين ابتكر " كارنو " وجوب تعاون هذه الفرق معا بينما تقوم كل منها بعملياتها على حدة بأن ترمى كلها الى غاية واحد مشتركة وجاء "بونابرت" فتوسع فى هذه الفكرة وتطورت على يديه .

والظرف الثالث ، المرتبط بالثانى ، هو أن فوضى طريقة التموين ، وعدم النظام (الضبط والربط) فى جيوش الثورة الموروث من طبيعة تكوينها قد صيرا الرجوع الى العادة القديمة

أمرا ضروريا وهى " اعاشة الجنود من البلاد " . فكان توزيع الجيش الى فرق معناه أن هذه العادة كانت تنقص من فعالية الجيش مقدارا أقل مما كانت تنقصه فى الأيام السالفة فبينما كانت هذه الأجزاء فى الزمن الماضى مضطرة الى التجمع قبل أن تستطيع القيام بعملية ما صارت الآن تؤدى خدمة عسكرية أثناء اعاشتها لنفسها أى اطعام نفسها بنفسها .

وفضلا عن ذلك "فان السير بدون أثقال" كان من شأنه أن يزيد سرعة حركاتها، و يمكنها من حرية التحرك فى البلاد الجبلية أو ذات الغابات . وكذلك لما كانت لا تستطيع الاعتماد على المخازن والمستودعات وقوافل أى قطر نقل مؤن لتأخذ منها حاجتها من الطعام واللوازم (المهمات) كان الجياع من الجنود والذين بهم حاجة الى الملابس يجدون حافزا يدفعهم للانقضاض على مؤخرة العدو الذى يعتمد على ما لديه من وسائل التموين المباشر .

اما الظروف الشخصية فكان محورها الذى تدور حوله هو عبقرية قائد — نابليون بونابرت — تغذت مقدرته العقلية بدراسة التاريخ الحربى دراسة عميقة وأجال فيه نظره مستقصيا فلما كان متحصنا بهذه الدراسة تمكن من استغلال قوة نظام " الفرق " الجديد استغلالا تاما . وأهم ما أداه نابليون لفن الاستراتيجية يتحصر فى ترقية المجال الأوسع لاستخدام الاشتراكات الاستراتيجية ترقية صارت ممكنة بوجود هذا النظام .

أما الدهشة التى سببها فشل الغزو الجزئى الأول الذى حصل فى سنة ١٧٩٢ وهزيمته فى "فالمى" و "جيماب" فكان من شأنها أن أخفت عن الفرنسيين حقيقة الخطر الذى كان يتهدد كلا من فرنسا والثورة فيما بعد لأن أول ائتلاف تكون ضد فرنسا — من انجلترا ، وهولندا ، والنمسا ، و بروسيا ، واسبانيا ، وسردينيا — لم يتم الا بعد اعدام لويس السادس عشر . ولم تلق هذه الدول ما لديها من صدق العزيمة وموارد الرجال والمواد فى كفة الحرب الا فى ذلك الحين . واذا كانت ادارة الحرب من جانب الغزاة كان ينقصها الارشاد المثمر المقرون بالمهارة ، فان موقف الفرنسيين كان يزداد حرجا على تمادى الأيام الى أن تغير الحظ بغتة فى سنة ١٧٩٤ وأخذ سيل الغزاة يتراجع الى الوراء . ومن ذلك الحين أصبحت فرنسا هى الجانب المعتدى بعد أن كانت الفريق المقاوم ، فما هى أسباب هذا الجزر بعد المد . من المؤكد أنها لم تكن براعة استراتيجية . ومع كل فان مغزى هذه الحادثة ، مع ما كانت عليه من الابهام و بالرغم من انحصار غايتها فى نطاق محدود هو أن الجسم الذى حصل فيها نشأ عن اقتراب استراتيجى لا شك فى أنه كان غير مباشر . ففى الحين الذى كان فيه الجيشان الرئيسيان يناضل أحدهما الآخر بالقرب من " ليل " نضالا تسيل فيه الدماء من غير فصل أو بت ، صدر الأمر لجيش "الموز" الذى يقوده " جوردان " وهو على مسافة بعيدة جدا أن يحشد على ميسرته قوة للهجوم و بعد أن يزحف نحو الغرب مجتازا مقاطعة "الاردين" يقوم بالعمليات فى اتجاه " لياج " و " نامور " . ولما وصل " جوردان " الى " نامور " عقب سير جاع

فى أثنائه جنوده فكانوا يعيشون على ما يستطيعون الحصول عليه من المؤن أثناء الطريق ، سمع دوى المدافع وجاءته رسالة تخبره بأن الجناح الأيمن من الجيش الرئيسى مشتبك فى قتال لا نجاح فيه أمام " شارلروا " . ومع ذلك فانه بدلا من أن يحاصر "نامور" تحرك نحو الجنوب الغربى فى اتجاه " شارلروا " والجناح الخلفى للعدو . فأرهب وصوله القلعة فسلمت . على أن الظاهر أن " جوردان " لم يكن يرمى الى غرض أبعد . وعلى كل حال فان التأثير الأدبى الذى أحدثته هذه الحركة الموجهة الى مؤخرة العدو أماله ما كان نابليون وغيره من كبار القادة يسعى اليه كنتيجة مقصودة . فما كان من " كوبورج " القائد العام لجيش العدو الا أن أسرع بالرجوع نحو الشرق وأخذ فى جمع ما وجده من الجنود فى طريقه ثم هجم بهم على "جوردان" وهو مستحكم فى متاريس يغطى بها " شارلروا " . ومع أن القتال الذى نشب بينهما كان عنيفا حتى اشتهر باسم معركة " فلوروس " فان الفرنسيين كانت فى جانبهم تلك الميزة التى لا تقدر وهى ميزة زحزحة العدو استراتيجيا وجره الى الهجوم بجزء من قوته . فانهزم هذا الجزء وعلى أثر هزيمته تقهقر الحلفاء .

ولكن لما جاء دور الفرنسيين وكانوا هم الغزاة فانهم بالرغم من تفوقهم العددى عجزوا عن الحصول على أية نتيجة حاسمة فى الحملة الرئيسية عبر نهر " الرين " . وفى الواقع كانت حملة ليست عقيمة الخاتمة فحسب ، بل كانت سيئة العاقبة — وذلك نتيجة اقتراب غير مباشر . ففى يوليه سنة ١٧٩٦ لما وجد الأرشدوق "تشارلس" نفسه مجابها للزحف الذى استأنفه كل من الجيشين المتفوقين عليه وهما جيشا "جوردان" و "مورو" قرر قراره بحسب أقواله ، على « أن يقهقر الجيشين (جيشه وجيش وارتنزلبن) خطوة خطوة دون أن يتورط فى معركة ثم ينتهز أول فرصة تسنح لضمهما معا لكى يلقى بنفسه على أحد جيشى العدو وهو متفوق عليه أو مساوله على الأقل » . على أن ضغط هذين الجيشين لم يسمح له بفرصة ينفذ فيها هذه الاستراتيجية « الخطوط الداخلية » التى هى عادية ومباشرة الا اذا كانت بفكرة ترك أراضى — الى أن تحولت الى اقتراب غير مباشر حقيق بفعل بريجا دير الفرسان " نوبندرف " الذى قام به من تلقاء نفسه . فان استطلاع هذا الضابط الذى توسع فيه أراد أن الفرنسيين يقومون بحركة تحول ليتلاقوا بعدها و يتجمعوا على "وارتنزلبن" ليبيدوه . فأرسل الرسالة الالهامية القائلة « اذا شاء سموكم الملوكى أو استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندى ليزحفوا على مؤخرة جوردان لكان فى ذلك ضياعه » . واذا كان تنفيذ الأرشدوق لم يكن بالجرأة التى قامت عليها فكرة مرءوسه فانها كانت كافية لاحباط حركة الفرنسيين التعرضية . وكان من أثر تقهقر جيش " جوردان " الذى تمزق شمله ورجوعه بغير انتظام الى نهر " الرين " وعبوره الى الجانب الآخر ، أن اضطر "مورو" لأن يترك أعماله الموفقة فى " بافاريا " ويرجع كما رجع هو .

ولكن بينما خاب المسعى الرئيسى على نهر "الرين". وخاب ايضا مرة أخرى فيما بعد، فان الحسم جاء من مسرح ثانوى — هو ايطاليا — حيث تمكن بونابارت من تحويل حركات دفاعية مشكوك فيها الى اقتراب حاسم غير مباشر أدى الى اختتام الحرب بالنصر. والخطة التى انتهجها كانت جاهزة فى عقله منذ سنتين حينما كان من ضباط أركان الحرب فى هذه المنطقة وصارت بعدها جزءا فى نظريته عن الحرب لما كان فى باريس. فقد كان ككبار المتنبئين يعبر عن أفكاره الهادئة بالأحاجى وكان أتباعه كأتباعهم من عادتهم أن يفسروا هذه الأحاجى على غير حقيقتها. فمثلا قال فيما قال من أقواله المأثورة، وربما كان أكثرها مغزى: «مبادئ فن الحرب هى نفس مبادئ الحصار. فيجب فيها تركيز النيران (أى جمعها) فى نقطة واحدة وبمجرد شق ثغرة يختل التوازن. أما الباقى فهو لاشىء». أما النظرية العسكرية التى أتت بعده فقد وضعت نبرة التوكيد على الشطر الأول من هذه العبارة بدلا عن الشطر الثانى. وعلى الخصوص على كلمة «نقطة واحدة» بدلا من «التوازن». فالأول لا يخرج من كونه كناية، فى حين ان الثانى يعبر عن النتيجة النفسية التى تحقق «ان الباقى لاشىء». وهذا التوكيد يشاهد فى المجرى الاستراتيجى لحملاته الحربية.

أما لفظة «نقطة» فقد بلغت بها الحالة أن أصبحت منشأ ارتباك كثير وجدل أكثر. فطائفة تقول ان الذى يقصده نابليون هو أن الضربة المركزة يجب أن توجه الى أقوى نقطة لدى العدو بحجة أن هذا، وهذا وحده، هو الذى يكفل النتائج الحاسمة. لانه متى انكسرت مقاومة العدو الرئيسية فان انكسارها يسرى على أية مقاومة أقل منها. وهذا القول يغفل عامل الكلفة كما يغفل الواقع. وهو أن المنتصر قد يكون من الضعف فى درجة لايستطيع معها استغلال ما ناله من الفوز — حتى ان المقاومة التى هى أقل قد تتطلب قوة مقاومة أعظم مما تطلبته المقاومة الأصلية. والطائفة الأخرى وهى المتشبعة بفكرة الاقتصاد فى القوة أكثر من الفريق الأول ولكن بدرجة محدودة فيما يختص بالتكاليف الأولى فقط. (هذه الطائفة تقول ان الغرض المقصود يجب أن يكون هو أضعف نقطة عند العدو. على أن النقطة التى يظهر أنها تركت فى حالة ضعف تكون عادة تركت كذلك لبعدها عن أى شريان حيوى أو أى مركز حساس. أو أنها تترك ضعيفة قصدا لتجر العدو الى شرك منصوب.

وهنا أيضا نجد التفسير فى الحملة التى نفذ فيها نابليون هذا القول فعلا. وفيها يتضح بجلاء أن الذى قصده نابليون ليس فى الحقيقة كلمة «نقطة» بل «منفصل» أى نقطة الاتصال. وأنه فى هذه المرحلة من مراحل حياته العسكرية كان متشبعا بفكرة الاقتصاد فى القوة بدرجة لا يستطيع معها التفريط فى قوته المحدودة فيستخدمها كالمطرقة يطرق بها نقطة العدو القوية. أما المفصل فهو حيوى من جهة. وعرضة للأضرار من جهة أخرى.

وفى ذلك الحين ايضا قال نابليون عبارة أخرى اعتبرت فيما بعد مبررا لأكثر الطرائق تهورا وطيشا وهى تركيز الجهود ضد قوات العدو المسلحة الرئيسية . تلك هى قوله : "النمسا هى العدو الكبير فمتى سحقت النمسا سقط كل من ألمانيا ، وأسبانيا ، وايطاليا من تلقاء نفسها . فيجب علينا ألا نتفرق ، بل نركز هجومنا" . غير أن تنفيذه لهذه الفكرة يبين لنا أنه لم يقصد بها الهجوم على النمسا مباشرة . بل قصد بها اقترابا غير مباشر عن طريق ايطاليا . وحتى فى هذا المسرح الثانوى جعل هدفه ضرب الشريك الأصغر وهو جيش سردينيا . واخراجه من الحرب قبل أن يلتفت الى الشريك الأكبر .

وكان بونابارت فى "رفيرا" و"جنوا" . والنمساويون والسردينيون على الجانب الآخر من الجبال الواقعة شمالا . فربح بونابارت الميزة الافتتاحية . وكان الفضل فى ذلك للحظ وللتصميم سواء بسواء ، وعلى كل حال فان ذلك لم ينقص من مغزاها ، فانه غرر بالنمساويين فحولهم الى جهة الشرق وبالسردينيين فحولهم الى جهة الغرب . ثم أنزل ضربته بالمفصل ، أى مكان اتصال الجيشين ، الذى أصبح ضعيفا . ثم ضغط النمساويين فأرجعهم مرة أخرى نحو الشرق فتوافر لديه الوقت والمسافة اللازمين لحشد جنوده نحو الغرب ضد السردينيين . "فاختلت الموازنة" فكان لذلك من التأثير النفسانى على السردينيين أكثر من تأثير الهزيمة المادية فرفعوا أصواتهم طالبين عقد هدنة أخرجتهم من الحرب .

فأصبح الآن متفوقا على النمساويين عددا وهم بمفردهم (٣٥,٠٠٠ مقابل ٢٥,٠٠٠) . فهل هو زحف عليهم مباشرة ؟ كلا . فانه فى اليوم التالى لعقد الهدنة مع السردينيين اتخذ "ميلانو" غرضا له . غير أن طريقه اليها غير المباشر كان طريق "تورتونا" و"بياشنزا" أو هو الطريق الموصل الى مؤخرتها فى الحقيقة . وبعد أن خدع النمساويين وجعلهم يحتشدون فى "فالنزا" لمقاومة زحفه المنتظر شمالا — بشرق ، سار شرقا بدلا من سيره على طول الشاطئ الجنوبى لنهر "البو" . وبذا عند ما وصل الى "بياشنزا" كان قد دار حول كل خطوط المقاومة التى كان فى امكان النمساويين أن يهيئوها . غير أن عدم وجود معدات انشاء الجسور (قطر الكبارى) معه أخره فى "بياشنزا" حينما اتجه شمالا . فأسرع النمساويون بالرجعة ونجوا والتجأوا الى "مانتاو" ومربع القلاع المشهور قبل أن يتمكن بونابارت من استخدام نهر "الادا" لسد خط رجعتهم . وحتى فى هذه الحالة كان قد استولى على "ميلانو" ومعظم لومبارديا الغنية واكتسبها بلا ثمن لجنوده الذين كانوا جياعا عراة .

وبعد ذلك أنف وترفع عن الزحف نحو النمسا مباشرة التى هى العدو الرئيسى ، كما كانت تستوجبه الدواعى العسكرية الأصولية . ثم أبى أن يسير الى ايطاليا الوسطى امتثالا لأمر (الديركتوار) الذى صدر له لأسباب سياسية . وبدلا من هذا أوذلك وفق بين الغاية التى يقصدها والوسائل التى لديه توفيقا يشف عن الدهاء واستخدم "مانتا" وبمثابة طعم لجر قوات الاعتقاد

النمساوية التي كانت تتوارد على التوالي . وابعادها عن قاعدتها لتقع في يده . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يستحكم في متاريس ينشئها في موقع ساتركما كانت عادة القادة التقليدية . بل أبقى قواته جوالة خفيفة الحركة متخذة من الأوضاع مجموعات طليقة الارتباط مترامية الأبعاد يستطاع حشدها في أي اتجاه كان . ففي أول محاولة قام بها النمساويون لخلاص "مانتاو" تعرضت طريقة "بونابارت" للخطر بسبب عدم رغبته في ترك حصار "مانتاو" والتجاوز عنه . ولذلك فهو لم يتمكن من استخدام خفة حركاته للتغلب على النمساويين في "كاستليوني" الا بعد أن تخلص من هذه الربطة . وفي ذلك الحين صدر له أمر (الديركتوار) بالزحف واجتياز مقاطعة "التيرول" والتعاون مع جيش "الرين" الرئيسي . فانتفع النمساويون بهذا الزحف المباشر وانسلوا متجهين شرقا بكتلة قوتهم مجتازين وادي "سوجانا" وهبطوا سهل فينيسيا (البندقية) ثم اتجهوا غربا الى "مانتاو" . على أن بونابارت بدلا من موالاته الزحف نحو الشمال . أو رجوعه ليحرس "مانتاو" . انقلب وراء النمساويين وطارد مؤخرتهم مطاردة حارة من خلال الجبال . وبذلك أجاب على اقتراب العدو غير المباشر بمثله ولكن اقترابه هو كان له غاية حاسمة ، في حين أن الآخر كانت غايته محدودة . فلحق مؤخرتهم وسحقها في "باسانو" ولما برز الى سهل فينيسيا متعقبا بقيتهم كان مما هو جدير بالذكر أنه أرشد المطاردين الى الحيلولة بين العدو "وتريستا" ، وقطع خط رجعتهم الى النمسا . وأن لا يمنعوهم من المسير الى "مانتاو" . وبهذه الوسيلة انضموا الى الموجودين بمستودع "بونابارت" في "مانتاو" . فحبس هذا المقدار من رأس مال النمسا العسكري اضطرها الى البذل من جديد . وفي هذه المرة ، وهي ليست المرة الأخيرة كان من شأن اقتراب تكتيكات "بونابارت" اقترابا مباشرا ، أن جعل اقترابه الاستراتيجي غير المباشر في خطر بعد ان صادف نجاحا . فلما قرب النمساويون من "فيرونا" وهي المركز الذي كان يحرس منه "مانتاو" ألقى بنفسه على طليعة قولاتهم الرئيسية فصدته صدة عنيفة . ولكنه بدلا من أن يتقهقر اختار القيام بمناورة متسعة ، منطوية على الجرأة ، حول جناحهم الجنوبي ليأتي على مؤخرتهم . وقد زاد الخطر على مناورته بسبب المستنقعات ومجاري المياه التي أعاقت سيره . ولكن اتجاهها ، على الأقل ، أوقع العدو في حيرة . ولما كانت كفتا المعركة معلقتين بالميزان في "اركولا" . لجأ بونابارت الى حيلة تكتيكية حاسمة ، ندر أن استعملها — هي أنه أرسل بضعة من نافخي الأبواق (بروجية) الى مؤخرة النمساويين ليتفخوا نوبة الهجوم . وبعدها ببضع دقائق اندفعت الجنود النمساوية التي كانت ثابتة القدم في القتال ، وانسابت كالسيل لاجئة للفرار . وبعد ذلك بشهرين في يناير سنة ١٧٩٧ حاول النمساويون للمرة الرابعة والأخيرة أن ينقذوا "مانتاو" ، ولكنها خابت في "رفولي" حيث أدت جنود بونابارت بتشكيلها المؤلف من مجموعات غير مرتبط بعضها ببعض ، عملها على وجه يكاد يبلغ غاية الدقة ، فكانت كشبكة منتشرة ، أركانها مثقلة بأحجار ، متى اصطدم بها قول من قولات العدو انضمت حول

نقطة الضغط واصطدمت الأحجار بعضها على العدو . وهذا التشكيل الواقى لنفسه بنفسه الذى يصير تشكيلا هجوميا مركزا عند الاصطدام كما مر بيانه ، كان نتيجة ترقية بونابارت لنظام الفرق الحديث الذى بموجبه ينقسم الجيش دائما الى أجزاء يتحرك كل منها مستقلا عن غيره ، بدلا من بقائه كتلة واحدة كما كان سابقا ، تنفصل عنه الأقسام الصغيرة موقتا فقط . أما تشكيل المجموعات فى حملات بونابارت الايطالية فقد صار عبارة عن "مربعات الأورط" التى تطورت بدرجة أرقى . ثم حل الفيلق محل الفرقة فى حروبه التى جاءت بعدها . ولكن بالرغم من أن هذه الشبكة كانت هى الوسيلة التى سحقت جناح النمساويين الذى كان يقوم بالمناورة فان مما يستحق التنويه هو أن قهر مقاومتهم الرئيسية جاء من جرأة بونابارت وارساله آلايا واحدا مؤلفا من ٢٠٠٠ جندى فعبر بحيرة "جاردا" فى القوارب واستقر على خط رجعة جيش بأكمله . فعند ذلك سلمت "مانتاو" . ثم ان النمساويين الذين أضاعوا جيوشهم فى المجهود الذى بذلوه لانقاذ هذا الباب الخارجى لبلادهم اضطروا الآن . ولا حيلة فى يدهم ، أن يراقبوا اقتراب "بونابارت" السريع من الباب الداخلى المجرد من وسائل الدفاع . فأدى هذا الحال الى اغتصاب الصلح من النمسا بينما كانت الجيوش الفرنسية مازالت لم تتجاوز الجانب الآخر من نهر "الرين" الا ببضع أميال .

وفى خريف سنة ١٧٩٨ تكون الائتلاف الثانى من الروسيا ، والنمسا ، وانجلترا ، وتركيا ، والبرتغال ، ونابولى ، والبابا ، لفك قيود معاهدة هذا الصلح . وكان بونابارت غائبا فى مصر ولما عاد كانت فرنسا قد أفل نجم سعدها . فكانت جيوش الميدان ناقصة نقصا كبيرا ، وكانت الخزينة خاوية . وأفواج المجندين آخذة فى التناقص . أما "بونابارت" فانه بعد أن قلب الديركتوار على أثر عودته وصار أول قنصل فانه أمر بتشكيل جيش من الجنود الاحتياطية فى "ديجون" يتألف ممن يستطاع جمعهم من الجنود الموجودين بأرض الوطن . فهل هو استخدم هذا الجيش لتعزيز مسرح الحرب الرئيسى والجيش الرئيسى على نهر "الرين" ؟ كلا . فانه بدلا من ذلك رسم خطة هى أكثر كل اقتراباته غير المباشرة جراءة — هى حركة كاسحة على قوس مهول تصل الى مؤخرة الجيش النمساوى بايطاليا . فان هذا الجيش كان قد طرد الجيش الفرنسى الصغير «جيش ايطاليا» وأرجعه الى الحدود الفرنسية بوجه التقريب ثم حجزه فى الركن الشمالى الغربى من ايطاليا . وكان بونابارت ينوى أن يجتاز "سويسرا" الى "لوسيرن" أو "زوريخ" ثم يهبط الى ايطاليا فى مكان يبعد نحو الشرق بعد ممر "سان جوتارد" بل وبعد التيرول . غير أن أخبار مضايقة جيش ايطاليا مضايقة شديدة أدت به لأن يسلك طريق "سان برنار" الذى هو الطريق الأقصر . وعلى ذلك فانه لما برز من جبال "الألب" فى "ايفريا" فى آخر أسبوع من شهر مايو سنة ١٨٠٠ كان ما يزال على جبهة الجيش النمساوى الحقيقية . فبدلا من أن يندفع نحو الجنوب الشرقى لنجدة "ماسينا" مباشرة اذ كان منحبسا

فى "جنووا" ، أرسل حرسه الأمامى جنوبا الى "شيراسكو" ثم استتر هو بنفسه ومعه الجيش الرئيسى وراء هذا «التحويل» وتسلل نحو الشرق الى "ميلانو" . وعلى ذلك فانه بدلا من أن يزحف لملاقاة العدو «فى موقعه الطبيعى» ، اتجه نحو الغرب فى "الساندرية" وتوصل الى «موقع طبيعى» يعترض مؤخرة النمساويين — وذلك هو الحاجز الاستراتيجى الذى كان الغرض الافتتاحى فى أشد مناوراته خطرا على مؤخرة العدو . لأن هذا الموقع بما فيه من الموانع الطبيعية يهيئ له مركزا أمينا يستعد منه لتلقى العدو بين ذراعيه ،ذلك العدو الذى يكون ميله «الطبيعى» حينما ينقطع عليه خط رجعته وتموينه أن ينقلب راجعا نحوه فى جماعات صغيرة بحكم العادة . وقد كانت هذه الفكرة ، فكرة الحاجز الاستراتيجى ، أعظم ما قدمه بونابارت لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر .

وفى "ميلانو" كان قد سد أحد طريقى رجعة النمساويين . والآن بعد أن مدّ حاجزة جنوبى نهر "البو" حتى مضيق "سترادللا" فانه سدّ الطريق الآخر . على أن فكرته هنا كانت قد تجاوزت حدود وسائله فى ذلك الحين بعض التجاوز . لأنه كان لديه ٣٤٠٠٠ جندى فقط وبسبب عدم رضاء "مورو" تأخر وصول الفيلق البالغ عدده ١٥,٠٠٠ جندى الذى كان "بونابارت" أمر جيش "الرين" بارساله اليه عن طريق "سان جوتارد" . فازداد القلق من جراء رقة هذا الحاجز . وفى ذلك الحين سلمت "جنووا" فزال بسقوطها العامل "الثابت" ثم ان عدم التأكد من الطريق الذى قد يسلكه النمساويون الآن ، وخصوصا الخوف من أنهم قد يقعون محصورين فى "جنووا" حيث تستطيع البحرية البريطانية تجديد تموينهم كانا سببا فى ضياع قسم كبير من الميزة التى كان حصل عليها . لأنه قدر لأعدائه من القوة الانشائية أكثر مما لهم . فترك "موقعه الطبيعى" فى "استرادللا" واندفع نحو الغرب ليستطلع طلعهم . ويقطع الطريق من "الساندريه" الى "جنووا" . فباغته العدو فى ظرف ليس فى صالحه ولم يكن معه اذ ذاك الا جزء من جيشه حينما خرج النمساويون من "الساندرية" فجأة وزحفوا لملاقاته فى سهول "مارنجو" (فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠) وبقيت المعركة بينهما فى شك مدة طويلة وحتى حينما رجع القسم الذى كان تحت قيادة "دسيه" الذى كان أرسل الى طريق "جنووا" لم يزد التأثير عن ارجاع النمساويين الى الوراء . على ان موقع بونابارت الاستراتيجى ظهر تأثيره ومكنه من انتزاع هدنة من القائد النمساوى الذى خارت قواه المعنوية ، من شروطها جلاء النمساويين عن "لومبارديا" ورجوعهم الى ما وراء نهر "المنشيو" . ومع أن الحرب استؤنفت واستمرت متقطعة وراء "المنشيو" فان رد الفعل الذى أحدثته معركة "مارنجو" ظهرت آثاره فى شروط الهدنة التى اختتمت بها حرب الائتلاف الثانية بعدها بستة أشهر .

وبعد انقضاء عدة سنين فى صلح مزعزع ارتفع الستار الذى كان أسدل على حروب الثورة الفرنساوية عن فصل جديد — هو الحروب النابليونية . ففى سنة ١٨٠٥ تجمع جيش نابليون

البالغ عدده ٢٠٠,٠٠٠ جندى فى "بولونيه" مهددا بالهبوط على الشاطئ الانجليزى ، واذا هو يتجه بغاءة نحو نهر " الرين" بالسير الجبرى . ولم يتأكد بعد ، ما اذا كان نابليون ينوى غزو بلاد الانجليز مباشرة بصورة جدية . أو أن تهديده كان مجرد الحركة الأولى فى اقترابه الى النمسا اقترابا غير مباشر . فكان حسابه أن النمساويين يرسلون جيشا الى "بافاريا" ، كما هى عادتهم . لسد منافذ الخروج من الغابة السوداء . وعلى هذا الأساس رسم خطة مناورته المتسعة النطاق للالتفاف حول جناحهم الشمالى عبر نهر "الدنوب" ومنه الى نهر " اللخ" — الذى هو الحاجز الاستراتيجى الذى ينوى ايجاده ليعترض مؤخرتهم . فكان تكرارا لمناورة "استرادللا" ، فى نطاق أعظم . وقد أكد ذلك نابليون نفسه لجنوده . وفضلا عن ذلك فان تفوقه فى القوة مكنه من تحويل هذا الحاجز بمجرد تأسيسه الى حاجز متحرك . وهذا الحاجز بتضييقه على مؤخرة الجيش النمساوى أدى الى تسليمه فى "أولم" تسليما يكاد يكون دون سفك دماء . وبعد أن أجهز نابليون على هذا "الشريك الأضعف" اضطر أن يعالج الجيش الروسى الذى كان تحت قيادة "كوتوزوف" الذى كان قد وصل اذ ذاك الى نهر "الإن" بعد أن اجتاز بلاد النمسا وجمع أقساما نمساوية صغيرة . وكان هناك اذ ذاك تهديد آخر يقل قربا عن تهديد الروس . ذلك هو عودة الجيوش النمساوية الأخرى من ايطاليا "والتيرول" . وفى ذلك الحين صار حجم قوات نابليون ، لأول مرة وان لم تكن الأخيرة ، مما يسلبه راحة البال . فان المسافة الكائنة بين نهر الدنوب والجبال الواقعة الى الجنوب الغربى كانت تضيق بجيوشه الجرارة لدرجة تعوق اقترابه من العدو محليا اقترابا غير مباشر . ولم يكن لديه وقت كاف للقيام بحركة متسعة النطاق كمناورته فى " أولم " . غير أنه طالما أن الروس يبقون على نهر " الإن " فهم فى «موقع طبيعى» لا يدرأون منه عن الأراضى النمساوية فحسب ، بل يكونون بمثابة وقاية تستتر وراءها الجيوش النمساوية الأخرى وهى قادمة من الجنوب مخترقة "كارنثيا" لتنضم اليهم فيتعاونون معا على اقامة سد منيع يقاوم نابليون . فلما رأى نابليون نفسه أمام هذه المسألة قام بسلسلة من التغييرات الدالة على منتهى الدهاء فى الاقتراب غير المباشر . فكانت غايته الأولى دفع الروس الى جهة الشرق بقدر ما فى امكانه حتى يفصلهم عن الجيوش النمساوية التى كانت عائدة إذ ذاك من ايطاليا . وعلى ذلك بينما كان هو يزحف نحو الشرق تماما فى اتجاه "كوتوزوف" و"فينا" أرسل فيلق "مورتيير" ليسير على طول الشاطئ الشمالى لنهر الدنوب . فهذا التهديد الموجه الى مواصلات "كوتوزوف" مع بلاد الروسيا كان كافيا لتحريض "كوتوزوف" على التقهقر بالميل نحو الشمال الشرقى الى " كرمز " على الدنوب . وعند ذلك بعث نابليون قائده "موراث" ليسرع فى سيره قاصدا "فينا" مارا أمام الجبهة الجديدة التى اتخذها "كوتوزوف" .

ولما وصل "موراث" الى فينا جاءته تعليمات بالتوجه شمالا نحو "هولابرون" . وبهذه الكيفية بعد أن هدد نابليون جناح الروس الأيمن فى بادئ الأمر أصبح مهددا لميسرة مؤخرتهم .

فهذه الحركة وان كانت قد اخفقت فى فصل الروس عن بلادهم وقطع مواصلاتهم اليها بسبب الخطأ الذى وقع فيه "موراث" واتفاقه معهم على عقد هدنة وقتية ، إلا أنها طردتهم فتقهقروا مسرعين نحو الشمال الشرقى ، أكثر مما كانوا ، حتى وصلوا الى "أولمتس" بالقرب من حدودهم. على أنهم وان كانوا الان قد "تحولوا" عن الامدادات النمساوية وابتعدوا عنها ، فانهم ازدادوا قربا من امداداتهم الروسية وجاءهم قسم كبير منها فى أولمتس فعلا . فزيادة الضغط عليهم وارجاعهم الى الوراء لاتؤدى الا الى توطيد قوتهم فضلا عن أن الوقت قد أزف وأصبح دخول بروسيا الحرب قريبا . ولذلك فان نابليون بلأ الى "اقتراب" غير مباشر هو اغراء الروس على انتهاج خطة التعرض بأن استعمل الدهاء وتظاهر بمظهر الضعف . فحشد ٥٠,٠٠٠ جندى فى "برون" لمواجهة ٨٠,٠٠٠ من جيش العدو . ومنها بعث أقساما منفصلة نحو أولمتس . ثم انه عزز الاعتقاد بضعفه بأن أرسل "رسل الصلح" الى كل من قيصر الروسيا وامبراطور النمسا . ولما جازت هذه الحيلة على العدو ارتد من أمامه و رجع الى موقع فى "أوسترلتز" هيئته الطبيعة للشرك الذى نصبه . وفى المعركة التى نشبت على أثر ذلك استخدم ضربا من أمثلته النادرة فى الاقتراب التكتيكى غير المباشر ليستعيض به عن ضعفه العددى الذى كان هو أيضا نادرا فى ميدان المعركة . واستدرج العدو لأن يمد ميسرته ليهجم على خط رجعته ثم دار حول مركزه وقابل "المفصل" الضعيف ففاز بنصر حاسم لدرجة أن امبراطور النمسا طلب الصلح فى ظرف ٢٤ ساعة .

ولما التفت نابليون الى بروسيا بعد ذلك ببضعة أشهر ليناقشها الحساب كانت لديه الكثرة العددية بنسبة اثنين الى واحد تقريبا ، اذ كان لديه جيش «عظيم» من وجهتى الكم والنوع ، يقابله جيش ناقص التعليم ذو منظر عتيق مهجور . فكان تأثير هذا التفوق المضمون لنابليون ظاهر الأثر فى استراتيجيته وكان لهذا الأثر مفعول أخذ يزداد وضوحا فى ادارة حملاته الأخيرة . ففى سنة ١٨٠٦ كان ما يزال يبحث عن مزية المفاجأة الافتتاحية وقد أحرزها . فهو لهذه الغاية كان قد أسكن جنوده بالقرب من نهر الدنوب . ومن هناك حشدها على عجل الى جهة الشمال وراء الستار الطبيعى المكون من غابة تورنجن . ثم خرج بغتة من منطقة الغابات وبرز الى الأرض الفضاء الواقعة وراءها . واندفعت جنوده وهى بتشكيل «مربعات الأورط» قاصدة قلب بلاد العدو . وبهذه الكيفية وجد نابليون نفسه — لا وضع نفسه — وراء قوات البروسيين . ولما دار دورته ليسحقها فى "جينا" كان يظهر أنه اعتمد مبدئيا على مجرد قوته الدافعة . أما التأثير الأدبى لموقعه الذى كان فيه فقد جاء عرضا عن غير قصد وان كان من الأهمية بمكان .

وكذلك أيضا فى الحملة التى قام بها ضد الروسيين فى بولندا ، وفى بروسيا الشرقية كان هم نابليون الرئيسى والغاية الوحيدة التى كان يرمى اليها ، على ما يظهر ، هو استدراج عدوه الى

الاشتباك فى معركة ، لثقته بأنه لو تم له ذلك كان فى امكان آلته (أى جيشه) أن تتغلب على العدو . فكان ما يزال يستخدم المناورات التى يقصد بها مؤخرة العدو . على أن ذلك كان وسيلة يرمى بها الى توثيق قبضته على العدو حتى يجذبه ويجعله بين فكيه أكثر منه وسيلة لاذابة قوته المعنوية حتى يسهل ازدراده .

فالاقتراب غير المباشر هنا هو وسيلة لتشتيت أفكار العدو وتحويلها الى جهة غير الجهة المقصودة ، ووسيلة « لجره » من الوجهة المادية أكثر من كونه لتشتيت أفكاره وزحزحته من الوجهة المعنوية .

وهكذا كان يقصد بالمناورة التى قام بها فى "بولتوسك" أن يجر الروس نحو الغرب حتى انه متى زحف شمالا من بولندا يتيسر له أن يقطع خط رجعتهم الى روسية ويفصلهم عنها . ولكن الروس أفلتوا من بين فكيه . وفى يناير سنة ١٨٠٧ تحرك الروسيون نحو الغرب بمحض ارادتهم متجهين نحو البقية الباقية من حلفائهم البروسيين الموجودين "بدانتسج" فأسرع نابليون واتهز هذه الفرصة لقطع مواصلاتهم مع بروسيا . على أن التعليمات التى أصدرها وقعت فى أيدى جنود القوزاق فتقهقر الجيش الروسى قبل فوات الأوان . وعند ذلك اتبعهم نابليون فى الحال . فلما وجدهم متخذين موقعا جبهيا فى "إيلاو" ومستعدين لقبول المعركة لجأ الى مناورة تكتيكية بحتة وجهها الى مؤخرتهم . على أن العواصف الثلجية تدخلت فى أعمال جيشه وأعاقتها فلم يزدرد الروسيين بالرغم مما تكبدوه من الأضرار . وبعد ذلك بأربعة أشهر كان كل من الفريقين قد استعاد نشاطه وتحرك الروسيون فجأة نحو الجنوب قاصدين "هايلزبورج" زاحفين عليها . فما كان من نابليون الا أن أدار "مربعات أورطة" نحو الشرق ليحول بينهم وبين "كونيجزبرج" التى كانت قاعدتهم القريبة . ولكنه على ما يظهر كان فى تلك المرة متشبعا بفكرة المعركة لدرجة أنه لما جاءه بلاغ من فرسانه الذين كانوا يقومون باستطلاع جناح طريقه بأن الروس موجودون فى موقع قوى فى "فريد لند" . أدار قوته نحوهم وقصدهم فى الحال . ففاز بالنصر التكتيكى لا بفضل المفاجأة أو خفة الحركة بل بالقوة الهجومية المحض .

والذى يفسر ذلك هو حشد كتلة من المدافع فى نقطة مختارة طبق تكتيكات المدفعية التى وضعها نابليون حديثا . وكان مقدرا لهذه التكتيكات أن تصير القوة الدافعة لآلته التكتيكية أكثر فأكثر على مدى الأيام . وهى وان كانت قد كفلت النصر فى "فريد لند" كما كفلته مرارا بعدها الا أنها لم تكن ذات أثر يذكر فى نجاة الأنفس . ومن الغريب أن مفعول السلطة المطلقة فى تجنيد الجنود فى سنة ١٨٠٧ — ١٨١٤ وجد له شبيها فى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ومن الغريب أيضا أن كلتا هاتين الحالتين كانت مقترنة بطريقة استخدام ضرب المدافع بشدة متناهية .

فهل الذى يفسر ذلك هو أن التبذير يؤدى الى الطيش وتجاوز الحد، على نقيض الاقتصاد فى القوة من الوجهة العقلية — الاقتصاد الذى يقوم على وسيلتين هما المفاجأة وخفة الحركة ؟

هذه الفكرة يؤيدها تشابه النتائج ، كما نشهد فى سياسة نابليون .

فقد تمكن نابليون من استخدام أبهة النصر الذى أحرزه فى "فريدلند" لتعزيز أبهته الشخصية فى التغرير بقيصر روسيا وفصله عن رفقائه فى الائتلاف الرابع . على أنه جازف حينذاك بالميزة التى كانت له وأخيرا جازف بامبراطوريته بتجاوزه الحد فى استغلاله ذلك الحادث . ذلك أن صرامة الشروط التى وضعها لبروسيا قوضت أركان السلم . أما سياسته مع انجلترا فكانت لا ترمى الى شىء أقل من دمارها . ثم ان اعتداءاته أضافت كلا من اسبانيا والبرتغال الى أعدائه . وانه لجدير بالذكر فى هذا المقام أن "الهجمات المتقطعة" التى قام بها "سير جون مور" القصيرة الأجل الموجهة الى "بورغوس" ومواصلات القوات الفرنسية فى أسبانيا كانت اقترابا غير مباشر فزحزحت خطط نابليون فى أسبانيا ومهدت السبيل للثورة الوطنية وأوجدت لها الزمان والمكان لاستجماع قوتها . ومن ثم جعلت شبه جزيرة "ايبريا" شوكة فى خاصرة نابليون من ذلك الحين فما بعد . وفوق كل ذلك فان التأثير الأدبى لهذه الخيبة التى صادفها نابليون لأول مرة بعد ان كان لا يقاوم ، كان لها معنى خاص . أما نابليون فلم يكن لديه أقل أمل فى استرجاع مركزه لأنه رجع بسبب تهديد بروسيا بالثورة والنمسا بدخول الحرب من جديد . أما تهديد النمسا فقد صار أمرا واقعا . واننا نرى نابليون فى حملة سنة ١٨٠٩ يحاول مرة أخرى القيام بمناورة ليصل بها الى مؤخرة العدو فى "لاندسهوت" و"فينا" غير أن نابليون اذا صادفته عوائق أثناء تنفيذه هذه المناورات ينفد صبره و يغامر باقتراب مباشر تتلوه معركة . وهكذا أصابته أول هزيمة كبرى فى "أسبرن — إسلنج" من جراء ذلك . واذا كان نابليون قد انتقم لها بالنصر الذى أحرزه فى "واغرام" فى نفس النقطة بعد ستة أسابيع فانه دفع ثمنا غاليا فضلا عن أن الصلح الذى أعقبه لم يستقر على أساس ثابت .

حرب شبه الجزيرة

على أن نابليون توافرت لديه مهلة سنتين قضاها فى معالجة تلك "القرحة الاسبانية" وكما أن تدخل "مور" خيب مساعى نابليون لاخماد نار الثورة فى أوائل مراحلها ، كذلك أعاق "وانجتون" فى السنين التى أعقبت ذلك كل تدابير علاجها حتى تقيح الجرح ودب فيه الفساد وسرى منه السم الى سائر أجسام النظام النابليونى . نعم ان الفرنسيين كانوا قد تغلبوا وما زالوا يتغلبون على أية قوة نظامية أسبانية . على أن شدة هذه الهزائم جاءت بأعظم الفوائد — للمهزومين . لانها كفلت تحول مساعى الاسبانيين الرئيسية الى حرب العصابات حتى تغيرت الحال وحلت محل الجنود النظامية التى كانت تؤلف أهدافا عسكرية عرضة للاصابات ، عصابات كان يقودها قادة ممتلئون نشاطا لايذعنون لنظم خاصة فكانوا يقومون بالعمليات بدلا عن الجزالات

الاسبانيين الذين كانوا يخضعون لأشد درجات التقييد . أما كارثة الكوارث التى نزلت بأسبانيا ، وبانجلترا بالتالى ، فكانت فى النجاح الموقت الذى صادفته محاولة تشكيل قوات نظامية من جديد . ولكن لحسن الحظ لم يلبث الفرنسيون أن تغلبوا على هذه القوات وشتتوا شملها فشتتوا معها حسن حظهم وانتشر السم مرة أخرى بدلا من تجمعه فى نقطة واحدة . وفى هذه الحروب العجيبة بذلت انجلترا أقصى ما لها من النفوذ فى مضاعفة هذه المتاعب وتشجيع بواعثها . فقد ندر أن سببت لخصومها "تشتيتا" لأفكارهم أكثر مما سببته لهم فى هذه الحرب بمثل هذا الثمن الضئيل من المجهود العسكرى . ثم ان النتائج التى حصلت فى أسبانيا كانت ذات مغزى خاص متى قورنت بالنتائج التى جاءت على نقيضها . تلك النتائج الضئيلة ، بل النتائج السيئة ، التى نتجت عن محاولة انجلترا التعاون مباشرة مع حلفائها فى القارة الأوربية من جهة . ومن تجريداتها التى أرسلتها الى نقط غير المحيط الاتلنطى من جهة أخرى . فقد كانت تلك النقط بعيدة بدرجة لا تؤثر على خصمها من الوجهتين الجغرافية والنفسية . ومع ذلك فقد كان لتجريدات النوع الثانى ما يبررها من وجهة نظر السياسة القومية والرخاء فانها أضافت للامبراطورية البريطانية مستعمرة الكاب ، وجزيرة موريتيوس ، وسيلان ، وعدة جزائر من جزر الهند الغربية .

على ان النتيجة الحقيقية للاقتراب غير المباشر المؤسس على الاستراتيجية العظمى الذى قامت به انجلترا فى اسبانيا قد ألقى عليها المؤرخون حجابا من الغموض بسبب نزعاتهم التقليدية . اذ كان الذى يملك عليهم مشاعرهم انما هى المعارك . وفى الواقع فانهم بمعالجتهم حرب شبه الجزيرة بصفتها بيانا تاريخيا لمعارك "ولنجتون" وحصاراته قد جعلوها عديمة المعنى . ولقد جاهد سير "جون فورتسكيو" فى اصلاح هذه النزعة وهذه السفسطة بالرغم من أن مهمته الرئيسية كانت قاصرة على وضع "تاريخ الجيش البريطانى" . ومما له مغزى خاص أنه حينما تعمق فى أبحاثه أخذ ينوه بلهجة التأكد ، أكثر فأكثر ، بما كان للعصابات الأسبانية من الأثر الظاهر فى النتيجة التى انتهى اليها النضال .

فاذا كان وجود قوة التجريدة البريطانية هو الأساس الجوهرى لذلك الأثر ، فمن المحتمل أن معارك "ولنجتون" كانت هى القسم الذى كان أقل أثرا فى عملياته . أى الشطر الذى كان أقل تأثيرا فى تلك العمليات . فهو بهذه العمليات قد أوقع بالفرنسيين خسائر لا تزيد على ٤٥,٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير فى مدة السنين الخمس التى قضاها فى الحملة الى أن طردهم من أسبانيا ؛ فى حين أن الجنرال "ماربوت" قدر عدد الموتى فقط من الفرنسيين فى تلك المدة بمعدل مائة فى اليوم . ومن ثم يستنتج استنتاجا لا غموض فيه ولا ابهام أن الكمية الساحقة من الخسائر التى استنزفت قوة الفرنسيين العددية وأكثر منها قوتهم المعنوية ترجع الى عمليات حرب العصابات والى "ولنجتون" نفسه باستعجاله الفرنسيين وأتلافه كل شىء فى البلاد حتى أصبحت

صحراء لايلقون بها سوى الموت جوعا لو بقوا . وما لا يقل عن ذلك مغزى هو أن "ولنجتون" فى كل هذه الحملات الطويلة لم يشتبك الا فى قليل من المعارك. فهل كان ذلك يرجع الى ما اتصف به من " سلامة الذوق " التى قال عنها كاتبو تاريخ حياته انها كانت سر أخلاقه وأمانيه . فقد قال عنه أحدث واضعى تاريخه "ان الاعتقاد بالحقائق الثابتة اعتقادا مباشرا ضيق الحدود كان روح ولنجتون الخلقى . واليه ترجع عيوبه ومناقصه . ولكنه فى المراحل الكبرى من حياته العامة بلغ حد العبقرية " فهذا التشخيص يتفق تمام الاتفاق مع الأعراض التى ظهرت على استراتيجية ولنجتون فى شبه الجزيرة ، جيدة كانت أو سيئة .

ثم ان التجريدة التى قُدرها من النتائج مابلغ هذا الشأو البعيد كانت فى حد ذاتها قسما من القوة التى وجهت عبثا للقيام بالمجهود الرئيسى على نهر "الشلت"، وكان الباعث على المجهود هو الأمل فى انقاذ بلاد البرتغال أكثر من مراعاة ماله من القيمة من وجهة الاستراتيجية العظمى وماتستطيع أن تؤديه مما يزيد "القرحة الاسبانية" وخامة . فان الدفاع الشاق الذى قام به "كاسلريه" (وزير الحربية) أيده الرأى الذى أبداه "وليزلى" وهو أنه لو أن الجيش والليشيا البرتغاليين عززتا بـ ٢٠,٠٠٠ من الجنود البريطانية لاحتاج الفرنسيون الى ١٠٠,٠٠٠ جندى لفتح البرتغال . وليس فى استطاعتهم الاستغناء عن هذا العدد اذا استمر الاسبانيون على المقاومة. وبعبارة أخرى معنى ذلك هو أن ٢٠,٠٠٠ من البريطانيين تكفى (لتشتيت) أى تحويل مايقرب من ١٠٠,٠٠٠ من الفرنسيين قسم منهم على أقل تقدير يأتى من المسرح الرئيسى للحرب فى بلاد النمسا .

فأما من وجهة معاونة النمسا فقد كانت هذه التجريدة على غير جدوى . وأما بصفتها وقاية تقى البرتغال فلم تكن مقبولة ومرضيا عنها تماما من وجهة نظر البرتغاليين . وأما من وجهة كونها مضايقة لنابليون ومفيدة لانجلترا فانها قد أثمرت عشرة أضعاف ما كان مقدرا لها .

فأخذ "وليزلى" ٢٦,٠٠٠ جندى وفى أبريل سنة ١٨٠٩ وصل الى "لزبون" . وكان الفرنسيون مشتتين فى كل أنحاء شبه الجزيرة بسبب الثورة الأسبانية من جهة ، وبسبب زحف "مور" على "بورغوس" ثم رجوعه الى "كورونا" ، من جهة أخرى . وكان "نى" يحاول عبثا اخضاع "غاليسيا" فى منتهى الركن الشمالى — الغربى . وكان "صولت" فى "اوبورتو" الواقعة جنوبى "نى" ولكنها فى شمال البرتغال وكان جيشه ذاته مقسما أقساما مشتتا بعضها عن بعض . أما "فكتور" فكان حوالى "مريدة" متجها نحو الطريق الجنوبى الموصل الى البرتغال .

أما "وليزلى" فانه استفاد من موقعه المتوسط ، ومن حضوره على غير انتظار ، ومن تشتت العدو ، وتحرك نحو الشمال قاصدا "صولت" . ومع أنه أخفق فى فصل أبعد أقسام "صولت" الى جهة الجنوب عن بقية جيشه طبقا للخطة التى رسمها ، الا أنه فاجأ "د ـ ـلت"

نفسه قبل أن يتمكن من جمع قوته ، فقلب أوضاعه رأسا على عقب بأن عبر نهر "الدورو" فى مكان أعلى . ثم توسع فى هذه الزحزحة الابتدائية بأن أبعد "صولت" عن خط رجعته الطبيعى . وتمثل "بتورين" فى سنة ١٦٧٥ فكان يذيب المقاومة دون أن يتيح لها فرصة تتجمد فيها وتتصلب . وفى نهاية الرجعة التى رجعها "صولت" مرغما مجتازا الجبال السوداء شمالا الى "غاليسيا" تكبد جيشه من الخسائر والمشاق ما لا يتعادل مع ما قام به من القتال .

على أن العملية الثانية التى قام بها "وليزلى" لم تعد بالفائدة الموجوة كما لم تكن قائمة على فكرة صائبة من وجهة التوفيق بين الغاية والوسائل . أما "فكتور" الذى بقى "بمريدة" لايبدى حراكا فانه استدعى الى "طالافيرا" بعد (اختفاء) "صولت" ، لتغطية طريق الاقتراب المباشر الى "مدريد". وبعد ذلك بشهر صمم "وليزلى" على السير الى "مدريد" من هذا الطريق مندفعا فى قلب أسبانيا وملقيا بنفسه بين فكى الأسد . لأنه كان هدفا تستطيع كل الجيوش الفرنسية أن تتجمع عليه بسلوكها أسهل الطرق . وفضلا عن ذلك فان هذه الجيوش بتجمعها على مركزها المتوسط بهذه الكيفية توفرت لديها الفرصة لربط المواصلات بين بعضها بعد أن كادت تكون أعظم أسباب ضعفها وهى متفرقة . فزحف "وليزلى" ومعه ٢٣,٠٠٠ جندى مضافا اليها مثلها من الأسبانيين تحت قيادة "كويستا" الضعيف فى حين أن "فكتور" أثناء رجعته كان قد اقترب من المدد الذى يصله من قوتين فرنسيتين آخريين قريبتين من "مدريد" ثم انه من جهة أخرى كان المتوقع أن يبلغ حشد العدو ماينوف على ١٠٠,٠٠٠ لأنه كما قال "فورتسكيو" (قد حصل عرضا لا قصدا) أن قوات "نى" و "صولت" و "مورتييه" كانت قد انحدرت من الشمال نحو "مدريد" . واذا كان الحظ يبسم للجاسب الجسور ، فانه يتنكر أحيانا للطائش . أما "وليزلى" فانه لم يتمكن من الاتصال "بفكتور" الا بعد أن انضم اليه "جوسف بونابارت" قادما من مدريد . والسبب فى ذلك هو أن "وليزلى" كان مثقلا بمؤنه من جهة وتردد "كويستا" من جهة أخرى . ولما اضطر "وليزلى" لأن يتقهقر هو الآخر بدوره كان خارجا بشىء من الحظ من معركة دفاعية نشبت فى "طالافيرا" ولكنه كان ينوى أن يزحف مرة أخرى لولا امتناع "كويستا" . فكان ذلك من حسن حظه لأن "صولت" كان هابطا على مؤخرته . فلما انفصل "وليزلى" عن الطريق الذى سلكه فى زحفه نجا بالتسلل جنوبى نهر "التاجوس" ولكنه لم يتمكن من الوصول الى حمى الحدود البرتغالية الا بعد مقاساة رجعة كلفته كثيرا وزعزعت قوى جنوده المعنوية ونهكتهم . أما الفرنسيون فان قلة الطعام شلت حركة تعقبهم . وهذه كانت خاتمة حملة سنة ١٨٠٩ التى علمت "وليزلى" أن الجنود الأسبانية النظامية عديمة القيمة — وهو درس كان يجدر به أن يتعلمه من تجارب "مور". وقد كوفئ على ذلك بأن صار "فيكونت ولنجتون" . وكان مقدرا له أن يحرز هذا اللقب بدرجة أكثر جدارة فى السنة المقبلة .

ففى سنة ١٨١٠ بعد أن أرغمت النمسا على الصلح انطلقت يد نابليون واستطاع أن يحول كل التفاته الى أسبانيا والبرتغال حتى سنة ١٨١٢ ، وهاتان السنتان هما أشد الأوقات حرجا فى حرب شبه الجزيرة . فعجز الفرنسيين عن ادراك مقصدهم له مغزى من الوجهة التاريخية أكثر بكثير مما أصابهم من الهزائم فيما بعد ، ومن الانتصارات التى أحرزها ولنجتون فى سنتى ١٨١٢ و ١٨١٣ . أما أساس ما أحرزه البريطانيون من الفوز فهو الحساب الدقيق المبنى على الفطنة والدهاء الذى حسبه " ولنجتون " للعامل الاقتصادى — وهو قلة ما لدى الفرنسيين من وسائل الاعاشة — ثم انشاؤه خطوط "طورس فدراس" . فكانت استراتيجيته فى جوهرها عبارة عن اقتراب غير مباشر الى قصد وغرض عسكريين اقتصاديين . ففى الفصل الأول من الرواية عاونته القوات الأسبانية النظامية على طريقتها المعتادة . فابتدأوا بحملة فى فصل الشتاء وسحقهم الفرنسيون سحقا بدد شملهم لدرجة أن الفرنسيين لما لم يجدوا هدفا ينزلون به ضرباتهم تدرجوا الى الانتشار فى كل أنحاء أسبانيا وغزوا أقاليم " اندلوسيا " النهرى الواقع جهة الجنوب .

وهنا تسلم نابليون السيطرة ولو أنه كان يمارسها عن بعد ، ولم يخل آخر فبراير من سنة ١٨١٠ حتى كان قد حشد فى أسبانيا ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ جندى يأتى بعدهم غيرهم . تتخصص من هؤلاء الجنود "لمسينا" ٦٥,٠٠٠ مهمتهم طرد البريطانيين من بلاد البرتغال . فهذا العدد وان كان كبيرا يتفوق على جنود " ولنجتون " الا أن صغره بالنسبة للجموع فيه الدليل القاطع على ما لحرب العصابات فى أسبانيا من الخطر . ثم ان " ولنجتون " أخذ يدمج معه البرتغاليين ويدربهم على التعليم البريطانى حتى أوجد قوة يبلغ عددها ٥٠,٠٠٠

أما غزو " مسينا " بجاء من الشمال مارا " بكو يداد رودريجو " فهيأ " لولنجتون " أطول وقت وأبعد مسافة تعمل فيها استراتيجيته . وأصبحت الخيطة التى احتاطها بتجريد البلاد من كل ما بها من المؤن بمثابة "فرملة تجريل" لزحف "مسينا" بينما كانت وقفته التى وقفها فى منتصف الطريق فى "بوساكو" بمثابة فرملة القدم . وهذه الفرملة قواها "مسينا" بحماقته اذ ورط جنوده فى اقتحام مباشر لا مبرر له . وبعد ذلك تقهقر "ولنجتون" الى خطوط "طورس فدراس" التى كان قد أنشأها بعرض شبه الجزيرة الجبلية المكونة من نهر " التاجوس " والبحر لسنتر " لزبون " وفى ١٤ أكتوبر أشرف " مسينا " على هذه الخطوط بعد أن قضى أربعة أشهر قطع فيها ما لا يزيد عن مائتى ميل . فلما شاهدها وقع منظرها لديه موقع الدهشة . ولما كان عاجزا عن اقتحامها بقى يحوم بالقرب منها مدة شهر الى أن اضطره الجوع الى الرجوع الى " سانتارم " الواقعة على نهر " التاجوس " على مسافة ثلاثين ميلا الى الوراء . أما "ولنجتون" فانه التزم الدهاء ولم يحاول الضغط عليه أثناء رجعته أو يتسبب فى نشوب معركة . بل جعل همه التضييق على " مسينا " وحصره فى حدود أقل مساحة ممكنة حتى يبعد أشد الصعوبات

(٦)

فى الحصول على طعام لجنوده . وقد حافظ "ولنجتون" على هـذه الاستراتيجية بكل ثبات بالرغم عن خطر غير مباشر هو تغير الحكومة فى بلاده ، وخطر آخر مباشر هو زحف "صولت" فى الجنوب بطريق "باداجوس" فى حركة تحويلية يخفف بها عن "مسينا" ثم انه قاوم كل مساعى "مسينا" لاستدراجه للهجوم . وقد بررت الحوادث سلوكه وكوفئ عليه لأن "مسينا" اضطر أخيرا الى الرجوع فى شهر مارس . ولما أعادت انقاض جيشه الجائع اجتياز الحدود كان قد خسر ٢٥٠٠٠ لم يزد عدد من سقط منهم فى القتال عن ٢٠٠٠

وفى نفس الوقت كانت العصابات الأسبانية تزداد نشاطا وعددا . ففى "أراجون وقطالونيا" وحدهما شل بضعة آلاف من رجال العصابات والجنود المستخدمة فى قتال العصابات حركات فيلقين فرنسيين كاملين يبلغ مجموع رجالها ٦٠٠٠٠ شللا تاما بدلا من أن يعاون هذان الفيلقان جيش مسينا فى البرتغال ، واستمر ذلك عدة أشهر . وفى الجنوب أيضا حيث كان الفرنسيون يحاصرون مدينة "قادس" قصر الحلفاء فى استغلال النصر الذى أحرزوه فى "باروسا" ولم يفكوا الحصار . فعاد ذلك عليهم بفائدة اذ بقى المحاصرون حيث كانوا فى مهمة لاطائل تحتها . وفى أثناء تلك السنين كان هناك عامل مستديم يشتت الأفكار ويحولها هو تهديد البريطانيين بانزال جنودهم الى البر ونزولهم فعلا مرارا عديدة فى نقط على السواحل المترامية الأطراف بفضل قوتهم البحرية .

ومن ثم كان أعظم نفوذ ناله "ولنجتون" ناشئا عن تهديده أكثر منه عن ضرباته . لأنه كلما هدد نقطة اضطر الفرنسيون لأن يسحبوا جنودا من جهات أخرى ليوجهوهم اليها فيتسع بذلك المجال أمام العصابات فى تلك الجهات . ومع كل فان "ولنجتون" لم يكتف بالتهديد بل انه اتبع "مسينا" فى تقهقره الى "سلامانكا" واستخدم جيشه لتغطية الحصر المضروب على قلعة "الميضا" على الحدود من جهة الشمال بينما بعث "بيرزفورد" ليحاصر "باداجوس" فى الجنوب . فهو بذلك قيد حركاته وقسم قوته الى شطرين متساويين تقريبا . على أن الحظ ابتسم له . فان "مسينا" بعد أن جمع شتات جيشه وعززه بشىء من الامداد رجع ليخلص "الميضا" ويفك عنها الحصار . ولكن "ولنجتون" تمكن فى "فيونتس — دو — أونيورو" من صد الهجوم مع أن قوته أقل فضلا عما كان يحيط به من الأخطار الجسيمة . وكذلك خرج "بيرزفورد" ليلاقى قوة الخلاص التى كانت قادمة تحت قيادة "صولت" الذى بعد أن أساء ادارة القتال واعترف بالهزيمة فى "البويرا" (البحيرة) كان الفضل فى انقاذ موقفه لمرؤوسيه وجنوده بعد أن كلفهم ذلك ثمنا فاحشا . وعند ذلك صمم "ولنجتون" على محاصرة "باداجوز" دون أن يكون معه معدات الحصار (قطار الحصار) الى أن اضطر الى رفع الحصار بسبب تحرك جيش "مسينا" نحو الجنوب من غير أن يلقى معارضة . وكان هذا الجيش حينذاك

تحت قيادة "مارمونت" ليتضم الى "صولت" فوضع الاثنان خطة للزحف معا على "ولنجتون" ولكن لحسن الحظ لما اجتمعا دب بينهما دبيب الشقاق وداخل "صولت" الفزع بسبب اشتداد حرب العصابات واضطرام لهيبها من جديد فى مقاطعة "اندلوسيا" فرجع اليها بقسم من جيشه تاركا السيطرة "لمارمونت" وبفضل تطرف "مارمونت" فى التزام الحيطة والحذر انتهت حملة سنة ١٨١١ فى سكون .

"فولنجتون" باشتباكه فى المعارك كان يجازف بشىء كثير ، بل كان فى الواقع مجازفا بكل شىء . ومن الصعب أن يقال ان هذه المعارك أكسبته مزية فوق المزية التى أوجدتها استراتيجيته السابقة والتى كانت مؤملة منها . فهى لم تكن من قبيل البذل المثمر اذا روعى ما كانت عليه قوته الاحتياطية من رقة الحال . فان خسائره فيها كانت أقل من خسائر الفرنسيين بشىء يسير ولكنها كانت أعظم منها كثيرا اذا روعيت النسبة العددية . غير أنه قد تدارك الفترة التى كانت أشد الأوقات حروجة . أما الآن فان نابليون والأسبانيين جاؤوه بالعون وساعدوه على احراز ميزته . أما نابليون فكان يتأهب لغزو الروسيا . فحول اليها التفاته وقوته ابتداء من ذلك الحين . فهذا التطور الحديث والموقف الذى أكسبته أعمال العصابات شدة كانا سببا فى تغيير الخطة فى أسبانيا حيث غير الفرنسيون خط مساعيهم الرئيسية الى محاولة اخضاع اقليمى "فالنشيا واندلوسيا" تماما قبل أن يحتشدوا من جديد للزحف على البرتغال . فالجنود الفرنسية نقص عددها ٧٠٠٠٠ عما كانت عليه فى سنة ١٨١٠ والذين بقوا استخدم منهم ما لا يقل عن ٩٠٠٠٠ جندى فى خدمة قاصرة فى الواقع على المحافظة على خط المواصلات مع فرنسا ، كانوا موزعين من "طاراجونا" على ساحل البحر الأبيض المتوسط الى "أوفيدا" على ساحل المحيط الاتلانطى لصيانتها من العصابات .

فلما أصبح المجال حرا أمام "ولنجتون" وضعفت أمامه المقاومة وثب بجأة الى "كو يداد رودريجو" واقتحمها بينما كان قسم تحت قيادة "هل" يحرس جناحه ومؤخرته الاستراتيجيتين . أما "مارمونت" فكان عاجزا عن التدخل ، عاجزا عن استرجاع القلعة لأن معدات حصاره (قطار حصاره) كان قد سبق الاستيلاء عليها هناك ، عاجزا عن اقتفاء أثر "ولنجتون" بسبب خلو البلاد الواقعة بينهما التى سبق تجريدها من كل مواد الغذاء . فانتهز "ولنجتون" فرصة وجود هذا الساتر الذى أقامه الجوع وتسلل جنوبا واقتحم "باداجوز" واستولى عليها بدورها وان كان استيلاؤه عليها كلفه أكثر مما كلفه استيلاؤه على الأولى بكثير ولم يترك له من الوقت الا شيئا يسيرا . وفى "باداجوز" استولى على معدات الفرنسيين لانشاء الجسور (قطر الكبارى الطافية) . ثم انه لم يتمهل بل أعقب هذا الربح باتلاف الجسر (الكوبرى) الفرنسى المؤلف من قوارب مصفوفة عبر نهر "التاجوس" فى (المعرض) "المارز" ففصل بذلك جيش "مارمونت" عن جيش "صولت" فصلا استراتيجيا قطعيا

فأصبحت أقرب مواصلات "صولت" عن طريق الجسر (الكوبرى) الموجود فى "توليدو" (طليطلة) وهى تربو مسافتها على ثلثمائة ميل من مصب نهر التاجوس . ويقطع النظر عن ذلك فان "صولت" صار مقيدا فى "اندلوسيا" بسبب قلة المؤن من جهة وازدياد العصابات ازديادا فوق الطاقة من جهة أخرى . وغدا "ولنجتون" حرا يستطيع القيام بالعمليات وهو آمن شر التدخل . فحشد ثلثى قوته للزحف على "مارمونت" فى "سلامانكا" على أن اقترابه من "مارمونت" اقترابا مباشرا رد "مارمونت" نحو مورد امداداته فتعادلت بينهما الموازنة العددية . فشرع "مارمونت" فى المناورات قاصدا مواصلات "ولنجتون" ولديه الميزة الكبرى بسبب عدم وجود مواصلات له تقلق باله وتشغله . على أن افراطه فى الثقة أدى به الى هفوة زحزحت قوته موقتا فانتهزها "ولنجتون" على الفور واستغلها وعززها باقتراب تكتيكى غير مباشر كان سببا فى هزيمة الجيش الفرنسى هزيمة صارمة قبل أن تصله امدادات أخرى . على أن ولنجتون لم يتمكن من تشتيته تماما وكان ما يزال أضعف من الفرنسيين فى شبه الجزيرة بأجمعها . وقد وجه اليه اللوم بسبب عدم تعقبه للفرنسيين الذين صاروا الآن تحت قيادة "كلاوزل" ولكن بما أن الفرصة الوقتية أفلتت من يده فلم يكن محتملا أنه كان يتمكن من تشتيتهم قبل أن يصلوا الى "بورغوس" فيلجأون اليها . فضلا عن أن مثل هذه الحركة كانت تعرضه الى خطر هبوط "جوسف" (بونابارت) فى أية لحظة على مؤخرته ومواصلاته قادما من "مدريد" ولكنه بدلا عن ذلك صمم أن يزحف على "مدريد" لما لهذه الحركة من التأثير المعنوى والسياسى . فكان دخوله عاصمة أسبانيا رمزا مشجعا للأسبانيين ، وخرج "جوسف" منها خروج الهارب . على أن عيب هذه الضربة هو فى أن بقاء "ولنجتون" فى "مدريد" لا يكون الا التجاء اذا تجمعت قوة الفرنسيين . وليس هناك شىء أكثر احتمالا لأن يدعو جيوشهم المتفرقة فى شكل محيط دائرة الى التجمع على الوسط من ضياع "مدريد" أما "ولنجتون" فانه جعل اقامته فى "مدريد" قصيرة وخرج منها طائعا مختارا وسار الى "بورغوس" . غير أن الطريقة الفرنسية وهى "اعاشة الجنود من البلاد" كانت لا تجعل لأية ضربة توجه الى مواصلاتهم مع فرنسا تأثيرا على موقفهم . وحتى التأثير الضعيف كان منعدما نظرا لعدم كفاية طرائق الحصار ووسائله الموجودة مع "ولنجتون" فانها كانت تقتضى استغراق وقت ليس فى مقدوره أن يضيعه . لأن ما أحرزه من الفوز فى معركة "سلامانكا" وبعدها حرض الفرنسيين على ترك مهامهم وأراضيهم فى أسبانيا لكى يتجمعوا عليه من كل حدب وصوب . فموقفه بالنسبة لجيوشهم كان أشد خطرا من موقف "مور" الذى سبقه . على أنه تقهقر قبل فوات الأوان . وما انضم اليه "دل" حتى شعر بالاطمئنان بدرجة جعلته يدعو الجيوش الفرنسية المتحدة الى نزاله فى معركة "بسلامانكا" أما ميزتهم العددية فكانت طفيفة اذا قورنت بما كانت عليه فى الأيام الماضية . اذ كانت ٩٠٠٠٠ مقابل ٦٨٠٠٠ فلم

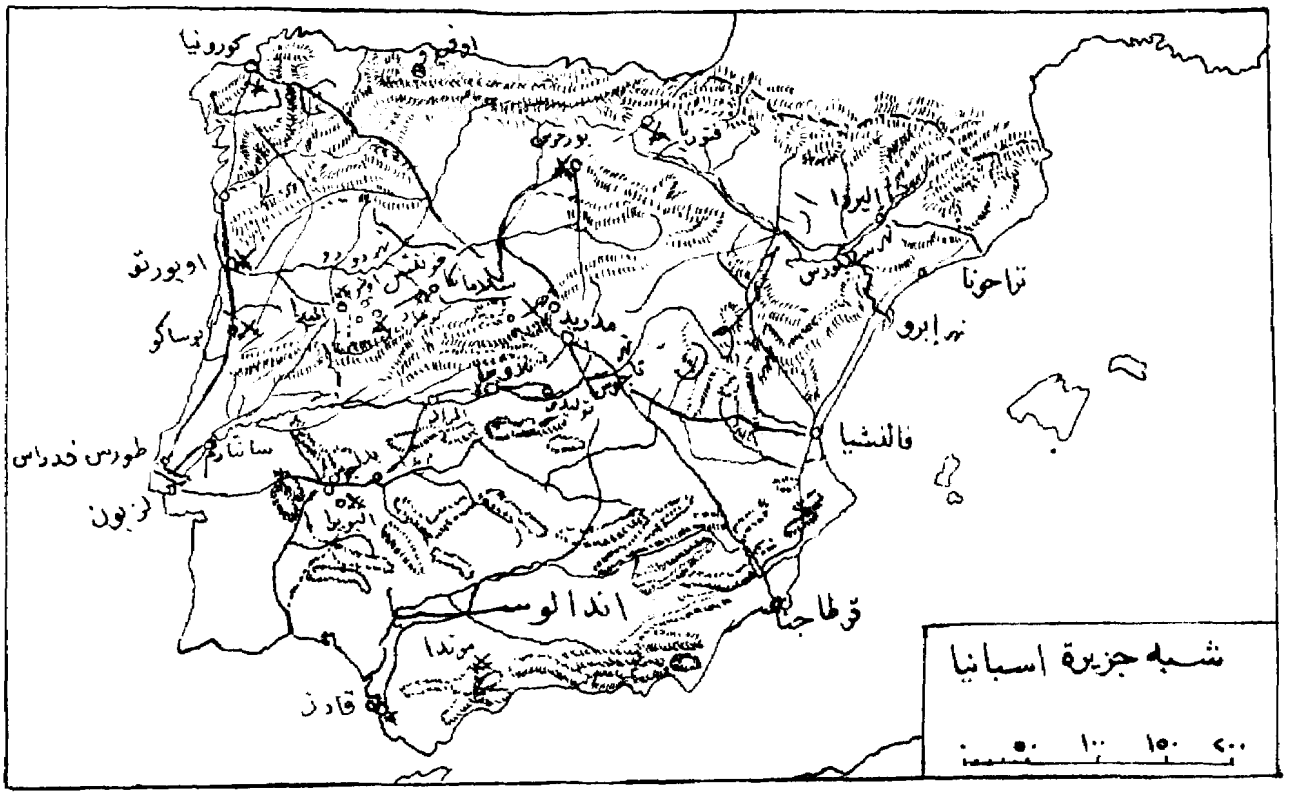
كورونيا
اوفيدو
بورجوس
فتوريا
البرقا
اوپورتو
بورتو
سلامانكا
مدريد
كودس
تاجونا
نهر ابرو
بوساكو
طورس فدراس
سانتارم
فالنشيا
لزبون
البورقا
اندالوسيا
قرطاجنة
موندا
قادز
شبه جزيرة اسبانيا

يشعروا بميل الى قبول تحديه اياهم الى معركة فى ميدان اختاره "ولنجتون" ولذلك والى "ولنجتون" تقهقره الى "كويداد رودريجو" وبوصوله أسدل الستار على حملة سنة ١٨١٢ .

فمع أنه رجع بالثانى الى الحدود البرتغالية ولم يتجاوزها الى الأمام بحسب الظواهر ، الا أن حرب شبه الجزيرة كانت قد فصل فيها فعلا . لأن الفرنسيين بتركهم القسم الأعظم من أسبانيا ليتجمعوا عليه أخلودا للعصابات ولم يبق لديهم أى أمل فى زحزحتها . ثم زاد الطين بلة أن جاءت فوق هذه الكارثة أخبار رجوع نابليون من "موسكو" وما ترتب عليها من انسحاب جنود فرنسية أخرى من أسبانيا . وعلى ذلك لما افتتحت الحملة التالية كان الموقف قد تغير تغيرا كليا . فالآن جاء المدد الى "ولنجتون" حتى بلغ عدد جنوده ١٠٠٠٠٠ أقل من نصفهم بريطانيون . فبادر بالعداء والتحدى وكان هو المتفوق فى حين أن الفرنسيين بعد أن زعزعت حرب العصابات التى لم تنقطع قواهم المعنوية أكثر مما زعزعتها الهزائم العسكرية اضطروا لأن يسرعوا بالرجوع الى ماوراء نهر "الابرو" واكتفوا بمحاولة البقاء بأطراف أسبانيا الشمالية . بل حتى فى هذه الأطراف رجحت كفة العصابات على كفتهم فانها كانت تضغط عليهم من الخلف فى نواحى "بسكاى" "والبرينيس" ، واضطر الفرنسيون لأن يفصلوا من قوتهم الضعيفة أربع فرق لمقاومة الضغط الآتى من الخلف ، ثم ان زحف ولنجتون تدريجيا على جبال "البرينيس" ومنها على فرنسا ، وان كان لا يخلو من حوادث سيئة كانت تقع أحيانا و يؤخذ ثأرها بنجاح . كل ذلك لم يكن سوى خاتمة استراتيجية لقصة حرب شبه الجزيرة .

فهذه النتيجة الميمونة ما كان من السهل أن تتأتى لولا العون الأدبى والمادى الذى كان الفضل فيه لوجود "ولنجتون" فى شبه الجزيرة . فان نشاطه فى استجلاب انتباه الفرنسيين وتحويل أفكارهم نحوه بقدرما ، كثيرا ما سهل انتشار حرب العصابات . ومع ذلك فهناك مسألة موضوع تضارب آراء يهتم لها أصحابها . تلك هى : ألم تكن انتصاراته التى أحرزها فى سنة ١٨١٢ وكان من شأنها أن تستحث الفرنسيين على ترك ما فقدوه وتضييق منطقة أعمالهم ، مما جعل آمالهم أقرب من التحقيق ، وزادت زحفه صعوبة فى سنة ١٨١٣ ؟ لأنهم كلما اتسعوا فى الانتشار فى جميع أنحاء اسبانيا وبقوا مشتتين فيها كانت هزيمتهم فى نهاية الأمر تامة ومحققة . فحرب شبه الجزيرة كانت مثالا تاريخيا بارزا لفقدته سلامة الذوق الغريزية أكثر مما فقد عن قصد ، باستراتيجية من الطراز الذى أخرجه "لورنس" (الكلونيل لورنس) وحوله الى نظرية معقولة طبقت فعلا وان كانت لم تتم على وجه قطعى .

ولندع الآن "القرحة الأسبانية" ونرجع الى فحص طراز آخر من طرز الاستراتيجية كان يغو فى مخلة نابليون بصورة خادعة .

نابليون من "فلنا" الى "ووترلو"

كانت الحملة الروسية فى سنة ١٨١٢ هى الغاية الطبيعية التى انتهت اليها النزعات التى شوهد تطورها وازديادها فى استراتيجية نابليون — وهى اعتماده بالأكثر على الكتلة لا على خفة الحركة . وعلى التشكيل الاستراتيجى أكثر من اعتماده على المفاجأة . ثم جاءت الظروف الجغرافية فأبانت أوجه ضعفها وأكدتها .

فحجم قوات نابليون التى بلغ عددها ٤٥٠,٠٠٠ يدعوه الى اتخاذ توزيع خطى يوجه التقريب . وهذا التوزيع يستلزم اقترابا مباشرا على طول خط الانتظار الطبيعى . نعم انه فعل ما فعله الألمان فى سنة ١٩١٤ ، فقوى أحد طرفى خطه — الطرف الأيسر — وأراد أن يدور به دورة واسعة النطاق فيكتسح الروس الموجودين فى فلنا . ولكن هذه المناورة كانت متعبة وفى اتجاه مباشر بدرجة متجاوزة الحد تجعلها لا تصلح لأن تكون وسيلة مؤثرة فى تشتيت أفكار العدو وزحزحته الا اذا كان غبيا بدرجة فوق المعتاد ، حتى بقطع النظر عن ضعف همة أخيه "جيروم" وعجزه عن الدور الذى كلف به وهو تثبيت العدو فى مكانه . وفى هذه الحالة ظهر ضعفها بانتهاج الروس استراتيجية التفادى والالتواء . ولما تمادى نابليون وتوغل فى بلاد الروسيا بعد أن ضرب ضربته الأولى "فى الهواء" ضم خطه واتخذ تشكيل "مربعات الأورط" وحاول أن يدور به تكتيكيا الى مؤخرة العدو . ولكن حتى حينما استبدل الروس بخطتهم الأولى سياسة قبول "المعارك" وأظهروا حماقتهم بأن دفعوا رؤوسهم نحو فكى نابليون فان هذين الفكين انطبقا فى "سمولنسك" ، على ما يظهر ، حتى ان الروس أفلتوا منهما ، فى حين أن فى "بورودينو" حطم الفكان أسنانهما . فكان ذلك أحسن مثال لاظهار عيوب حركة التجمع والتلاقى من اتجاهات مختلفة اذا قورنت باقتراب غير مباشر حقا . أما النتائج الأليمة التى كانت لرجوعه من موسكو على أثر ذلك فكانت بسبب خور قوى الجيش الفرنسى المعنوية ، أكثر من كونها مسببة عن صرامة الطقس — لأن الصقيع فى تلك السنة جاء متأخرا عن المعتاد — والذى سبب ذلك هو أن الروس بانتهاجهم استراتيجية التفادى من المعارك قد أفسدوا استراتيجية الفرنسيين التى كانت ترمى الى نشوب المعارك مباشرة . فكانت خطة الروس عبارة عن طريقة استراتيجية اتبعوها فى تنفيذ سياسة حربية تنطوى على اقتراب غير مباشر .

وفضلا عن ذلك فان ما أصاب نابليون من سوء الطالع بسبب هزيمته فى روسيا زاد اضعافا بسبب النتائج الأدبية والمادية التى نتجت عن اخفاق جيوشه فى اسبانيا . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام مع تقدير التأثير المهلك الذى كان لعمل انجلترا ، هو ان انجلترا بهذا العمل كانت متبعة سياستها الحربية التقليدية التى هى عبارة عن استئصال الجذور .

وفى سنة ١٨١٢ لما وجد نابليون نفسه بقواته الجديدة التى كانت أكبر حجما وأثقل حركة من كل ما سبقها ، أمام ثورة بروسيا ، والجيوش الروسية الغازية ، أراد أن يسحق أعداءه بطريقته التى أصبحت الآن عادة له أى بثقل " مربعات أورطه " المتجمعة من اتجاهات مختلفة متلاقيــة فى نقطة واحدة . ولكن لامعركة "لوتسن" ولا معركة " باوتسن " كانت حاسمة فى نتائجها . ولذلك فان الحلفاء خيبوا كل مساعى نابليون لاستدراجهم الى الاشتباك فى معركة ، اذ أخذوا يتقهقرون تقهقرا يزداد طولا مرة بعد أخرى . وهذا " التفادى " دعا نابليون لأن يطلب وقف الحرب لمدة ستة أسابيع وفى نهاية هــذه المدة انضمت النمسا أيضا الى أعدائه . ثم ان حملة الخريف التى أعقبت ذلك ألقت ضوءا عجيبا على ماطرأ على عقلية نابليون من التغير . فكان معه ٤٠٠,٠٠٠ جندى وهذا العدد يعادل مجموع جنود أعدائه بوجه التقريب . فاســتخدم منهم ١٠٠,٠٠٠ فى الزحف على برلين من طرق متفرقة بحيث يلتقون فى برلين . غير أن هذا الضغط المباشر لم يؤد الا الى توطيد المقاومة التى أبدتها قوات "برنادوت" فى تلك الساحة وارتد الفرنسيون مدحورين . وفى نفس الوقت كان نابليون نفسه قد أخذ موقعا متوسطا ساترا " درزدن " فى " سكسونيا " بالجيش الرئيسى . ولكنه لم يصبر وشرع بفجاءة فى الزحف نحو الشرق مباشرة قاصدا قوة " بلوخر " البالغ عددها ٩٥,٠٠٠ فتقهقر " بلوخر " أمامه خدعة واستدرجه الى داخل " سليسيا " فى حين أن "شوارتسنبرج" ومعه ١٨٥,٠٠٠ شرع فى التحرك شمالا هابطا على نهر " الإلبه " من " بوهيميا " واجتاز جبال " بوهيميا " ودخل " سكسونيا " وأتى على مؤخرة نابليون فى " درزدن " . فترك نابليون قسما من جيشه فى موقعه وأسرع بالرجوع بنية مقابلة هــذا الاقتراب غير المباشر بآخر من مثله أشد منه خطرا . فكانت خطته أن يتحرك جنوبا غربا ، ويجتاز جبال "بوهيميا" ثم يضع نفسه فى حاجز (أى سدّ) استراتيجى بالغ حد الكمال يعترض خط رجعة "شوارتسنبرج" حينما يخترق الجبال متقهقرا . غير ان أخبار قرب العدو منه أهاجته فصمم فى آخر لحظة على أن يستبدل خطته باقتراب مباشر على " درزدن " و " شوارتسنبرج " . فأدى هذ التصميم الى معركة انتصر فيهــا . ولكن هــذا النصر لم يكن حاسمــا الا من الوجهة التكتيكية ورجع " شوارتسنبرج " نحــو الجنوب فى أمان مجتازا الجبال . وبعــد ذلك بشهر شرعت الجيوش الثلاثة المتحالفة تطبق على نابليون وكان قد رجع من " درزدن " الى " دوبن " بالقرب من "لايبسج" بعــد أن أضعفته المعارك . أما " شوارتسنبرج " فكان فى الجنوب " و بلوخر " كان فى الشمال . ثم ان " برنادوت " كان قد دار حول جناح نابليون الواقع الى جهة الشمال وأتى وراءه بوجه التقريب دون أن يعلم به نابليون . فصمم نابليون على أن يقترب اقترابا مباشرا يعقبه اقتراب غير مباشر — ليسحق " بلوخر " أولا ثم يقطع مواصلات " شوارتسنبرج " مع " بوهيميا " . فالذى يظهر على ضوء التجاريب التاريخية بحسب ما مر بيانه فى هذا الكتاب هو أن هذا الترتيب خطأ . فان حركة زحف نابليون على " بلوخر " مباشرة لم تؤد الى ارغامه

على الدخول فى معركة. ومع ذلك فقد كانت لهـا نتيجة عجيبة ومـما يجعل لهذه النتيجة مغزى خاصا هو أنها جاءت عفوا لا قصدا . لأن الزحف على بلوخر مباشرة تصادف أنه كان زحفا غير مباشر على مؤخرة " برنادوت " . فلما شعر " برنادوت " بضعف مركزه أسرع بالتقهقر نحو الشمال فانزاح عن خط رجعة نابليون . وبهـذه الكيفية نجا نابليون من كارثة جائحة تامة بعد ذلك ببضع أيام والذى نجاه منها هى ضربته التى قصد بها "بلوخر" وجاءت فى الهواء. لانه لمـا أطبق عليه كل من " بلوخر " و" شوارتسنبرج " فى " لايبسج " قبل تحديهما واشتبك معهما فى معركة انهزم فيها . ولكنه لمـا ضاق به الحـال وجد أمامه طريقا للنجاة فانسحب فى سلام وعاد الى فرنسا .

وفى سـنة ١٨١٤ لمـا كان الحلفاء متفوقين عددا بدرجة كبيرة وقاموا بغزو فرنسا متلاقين فى نقطة واحدة بعد تفرق ، اضطر نابليون لأن يلجأ الى سلاحيه القديمين وهما المفاجأة وخفة الحركة ، بسبب قلة جنوده التى كان قد استهلكها — بثقته الامبراطورية فى قوة الكل — ومع أنه قد أحسن استخدامهما الا أن لهجة التوكيد يجب وضعها على كلمة « سلاحيه » لأنه كان قليل الصبر وقد تملكت فكرة المعارك عليه مشاعره بدرجة كان لا يستطيع معها استخدام هـذين السلاحين بدهاء " هانبـال " أو " سبيو " أو "كرومول " أو " مارلبورو " . وعلى كل حال فانه باستخدامهما أجل ما كان مكتوبا له فى لوح القدر ، فترة طويلة . ولمـا استخدمهما وفق بين غايته ووسائله بمـا يشف عن بعد النظر . فانه لمـا أدرك أن وسائله قد تضعضعت بدرجة لا يسـتطيع معها الحصول على حسم عسـكرى ، وجه مساعيه الى زعزعة التعاون بين الحلفاء واستغل خفة الحركة لهذه الغاية بدرجة مدهشة ليس لهـا نظير فى أعماله السابقة . ومع كل فان نجاحه فى اعاقة العـدو عن بلوغ غايتـه وان كان يستحق التنويه ، الا أنه من المحتمل أنه كان يبقى أعظم أثرا وأكثر ثباتا لولا أن مقدرته على الاستمرار فى هـذه الاستراتيجية قد نقصت بسبب نزعته الطبيعية لأن يتم كل فوز استراتيجى بآخر تكتيكى . فهو بحشده جنوده عدة مرات ليلاقى بهـا أقسام العدو المتفرقة — وقد امتازت خمس من هـذه المرات بمناورات « أصابت » الهدف من الخلف — قد أنزل بها سلسلة من الهزائم الى أن داخله الطيش لدرجة أنه قام باقتراب وهجوم مبـاشرين على " بلوخر " فى " لاون " فانهزم هزيمة لا طاقة له بها . ثم انه بعد ان لم يبق معه سوى ٣٠,٠٠٠ جندى صمم على أن يطلق آخر سهم فى كنانته وتحرك شرقا الى " سان دزييه " وجمع ما اسـتطاع جمعه من الحاميات التى وجدها وأثار أهالى البـلاد على الغزاة . فبهـذه الحركة كان يصبح معترضا مواصـلات " شوارتسنبرج ". ولكنه كان مضطرا لأن لا يكتفى بأن يكون على مؤخرة العدو ، بل لا بد له من تأليف جيش وهو فى مكانه قبل أن يشرع فى العمل. ثم ان المسألة تعقدت لا من جراء قلة الجنود وقلة الوقت فحسب بل بسبب ما للقاعدة التى كشفها بحركته من الحساسية الأدبية

الخاصة أيضا . لأن باريس ليست كبقية قواعد التمرين العادية . وزاد الطين بلة أن وقعت تعليماته فى يد العـدو فضاعت منه كل من المفاجأة والوقت . ومع ذلك فقد بلغ « المجهود » الاستراتيجى لحركته درجة جعلت الحلفاء يتناقشون مناقشة حادة قر قرارهم بعدها على أن يسيروا الى باريس — لينزلوا ضربتهم الأدبية « القاضية » — بدلا عن أن يرجعوا لملاقاة نابليون . ولقد قيل ان العامل الذى أثر عليهم فى هذا القرار هو خشية أن يتحرك " ولنجتون " من الحدود الأسبانية فيصـل باريس قبلهم . فاذا كان ما قيل هو الحقيقة فيالها من خاتمة ساخرة مؤيدة لانتصار استراتيجية الاقتراب غير المباشر « ومجهوده » الحاسم .

وفى سنة ١٨١٥ بعد أن رجع نابليون من جزيرة " إلبا " كان يظهر أن قواته قد بلغت حجما أثار « الدم » الى رأسه مرة ثانيـة على ما يظهر . ومع ذلك فانه كان يستخدم كلا من المفاجأة وخفـة الحركة ، على طريقته الخاصة وبسبب ذلك كان على مقربة من احراز نتيجة حاسمة . واذا كان اقترابه من جيشى " بلوخر " و " ولنجتون " وقع مباشرا من الوجهة الجغرافيـة فان توقيته كان مفاجأة . ثم ان اتجاهه زحزح « وصلة » (أى نقطة الاتصال بين الجيشين) العـدو . على ان " ني " قصر فى " لينى " فى القيام بالدور الذى كان مطلوبا منـه فى المناورة — وهو اقتراب تكتيكى غير مباشر — فأفلت البروسيون من الهزيمة الحاسمة . ولما رجع نابليون على " ولنجتون " فى " ووترلو " كان اقترابه مباشرا محضا وبذا أدى الى خسارة فى الوقت وفى الرجال زادت المشاق التى نشأت عن تقصير " جروشى " فى ابقاء " بلوخر " بعيدا عن ميدان المعركة « بتحويل » فكره . وعلى ذلك فان ظهور " بلوخر " كان اقترابا غير مباشر من الوجهة النفسية لأنه كان على غير انتظار ، حتى ولو أنه لم يصـل الا الى جناح نابليون . وبهذه الصفة كان حاسما ضد نابليون .

الباب الثامن

من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٩١٤

لما كان المعرض الأكبر الذى أقيم «للصلح» فى سنة ١٨٥١ فاتحة عصر جديد كثرت فيه الحروب، كانت أول حرب من سلسلة الحروب الجديدة غير حاسمة لا فى مجراها العسكرى ولا فى غايتها السياسية. ومع ذلك ففى الامكان اقتباس دروس سلبية، على الأقل، من حرب "القريم" وما كانت عليه من الوخامة والحماقة. ومن أشهر هذه الدروس عقم الاقتراب المباشر. فمتى وضع الجنرالات غمائم على أعينهم كان من الطبيعى أن يقوم أحد (الياوران) رجال الحاشية بتوجيه اللواء الخفيف (من فرسان البريطانيين) ودفعه الى مدافع الروس مباشرة. فقد كان كل شىء فى الجيش البريطانى فى كل دائرة من دوائر العمل يجرى على طريقة مباشرة مطابقة للأصول بدرجة متناهية دهش لها القائد الفرنساوى "كانروبير" حتى انه لما حضر حفلة راقصة فى بلاط ملوكى بعد الحرب ببضع سنين، تذكر فصاح قائلا «البريطانيون يحاربون كما ترقص فكتوريا». ولكن من حسن الحظ كان الروسيون متشبعين بغريزة اجراء أعمالهم بطريقة مباشرة أيضا — لدرجة أنهم اذا حاولوا القيام بمناورة بخائية فان الآلاى من آلاياتهم بعد أن يمشى طول النهار كان يعود فيجد نفسه أمام "سيواستوبول" كما كان وقت الفجر.

وإنا فى فحص أدلة حرب "القريم" المكدرة يجب ألا يفوتنا الواقع، والا نبالغ فيه، وهو أن فى الأربعين سنة التى انقضت منذ معركة "ووترلو" كانت كل جيوش أوربا قد أصبحت جيوشا محترفة بأدق معنى للكلمة. وذلك لا يعنى الاعتراض على الجيوش المحترفة، ولكن فيه تصوير لما ينطوى عليه جو الاحتراف من الأخطار. وهذه الأخطار تتأكد فى المقامات العالية، لامحالة، ومع طول مدة الخدمة مالم تقاوم بالاتصال بعالم الأعمال والأفكار الخارجى اتصالا يعيد النشاط ويجدده. ومن جهة أخرى فان المراحل الأولى من الحرب الأهلية الأميركية قد أبانت ضعف الجيش الذى لايكون محترفا. فان التعليم جوهرى لصوغ آلة فعالة يديرها الجنرال. فالحرب المستطيلة الأجل أو السلم القصيرة الأجل هما أكثر الظروف ملاءمة لانتاج آلة من هذا القبيل. ولكن اذا كانت الآلة أرقى من رجل الفن الذى يديرها كان هناك عيب فى النظام. والحرب الأهلية الأميركية التى وقعت فى ١٨٦١ — ١٨٦٥ تبين لنا العكس بكل وضوح سواء فى ذلك وفى غيره. فالقادة العسكريون، خصوصا فى جيوش الجنوب، كان القسم الأعظم منهم ممن اتخذ الجندية مهنة. على أن ممارسة هذه المهنة كانت قد تخالطها فى أغلب الحالات ممارسة الأعمال المدنية أو الفراغ الذى انقضى فى الدراسة الفردية. ولم تكن ساحة التعليم هى الأرض التى ربت فيهم الأفكار الاستراتيجية ولا كانت هذه التربية محدودة بهذه الأرض. ومع ذلك فبالرغم من اتساع دائرة الاطلاع المنعش وغزارة المادة التى

استقوا منها ماقد يسمى بالاستراتيجية المحلية فان العمليات الكبرى كانت تدار فى بادئ الأمر طبقا للغاية المتفق عليها بحكم العادة . ففى الحملة الافتتاحية كانت الجيوش المتحاربة يقصد الواحد منها خصمه و يزحف عليه مباشرة . فكانت النتيجة غير حاسمة كما حصل فى (ولاية) "فرجينيا" وفى (ولاية) "ميزورى". ثم ان "ماككليلان" لما تعين قائدا عاما لجيوش الشمال فكر فى سنة ١٨٦٢ وابتكر خطة الانتفاع بالقوة البحرية لنقل جيشه الى الجناح الاستراتيجى لعدوه — لا الى مؤخرته . فهذه الحركة وان كان لاشك فى أنها مما يؤمل فيه النجاح أكثر من الزحف على العدو مباشرة بطريق البر، الا أنها على مايظهر، ابتكرت كوسيلة للاقتراب من "رتشموند" عاصمة العدو من طريق أقصر، أكثر من كونها اقترابا غير مباشر بالمعنى الحقيقى. على أن هذه الآمال خيبها الرئيس "لنكلن" بامتناعه عن قبول مجازفة مقصودة . وبناء على ذلك أبقى فيلق "ماكدوويل" لوقاية "واشنطن" مباشرة وبذلك حرم "ماككليلان" لامن قسم من قوته فحسب ، بل حرمه من عنصر تشتيت أفكار العدو الذى هو جوهرى لنجاح خطته . ومن ثم فانه بعد إنزال جنوده الى البر ضاع منه شهر وهو أمام "يوركتاون واضطر لتغيير خطته بجعلها اقترابا بالتقاء جنوده فى نقطة واحدة بعد السير متفرقة أى اقترابا شبه مباشر بالاتحاد مع "ماكدوويل" الذى لم يسمح له الا بالزحف برا على طول الطريق الموصل من "وشنطن" الى "رتشموند" مباشرة . ومع ذلك فان العمليات غير المباشرة التى قام بها "ستونوول" جاكسون فى وادى "الشننذو" كان لها من التأثير الأدبى فى حكومة "واشنطن" ماجعلها تؤجل مرة أخرى حصة "ماكدوويل" فى الزحف الرئيسى . وحتى مع ذلك كانت مقدمة جنود "ماككليلان" على مسافة أربعة أميال من "رتشموند" على قدم الاستعداد للوثبة النهائية قبل أن يتقوى "لى" بالدرجة الكافية لأن يتدخل . ثم ان الميزة الاستراتيجية كانت فى جانب "ماككليلان" حتى بعد فشله تكتيكيا فى المعارك التى استمرت سبعة أيام . ور بما كانت هذه الميزة أعظم مما كانت قبلا لأن تعطيل سيره الجانبى لم يمنعه من تحويل قاعدته نحو الجنوب الى نهر "الجيمس". فهو والحالة هذه لم يكفل سلامة مواصلاته فقط ، بل انه اقترب من مواصلات العدو المتجهة جنوبا من "رتشموند"، بدرجة خطرة. غير أن هذه الميزة زالت بتغيير الاستراتيجية . فان "هليك" تعين قائدا عاما متخطيا "ماككليلان" لأسباب سياسية، وأمر باعادة أركاب جيش "ماككليلان" بالسفن والانسحاب الى جهة الشمال ليتحد مع جيش "پوپ" فى زحف مباشر بطريق البر. فكما يحصل كثيرا فى التاريخ، ليس معنى ازدواج القوة ازدواجا مباشرا أنها تصبح أقوى مما كانت بمثلين، بل انه ينقص تأثيرها بمقدار النصف لأنه يجعل «خطوط انتظار» العدو أبسط. ومع ذلك فان استراتيجية "هليك" تطابق التفسير الظاهرى لمبدأ الاحتشاد فيتبين منها الزلل الذى يقع فيه الذين يستسهلون هذا العلاج المألوف لكل الحالات العسكرية . أما استراتيجية الاقتراب المباشر التى كانت سائدة طول النصف الثانى لسنة ١٨٦٢ وما كان يلازمها من العجز، فقد انتهى أمرها بالخيبة التى صادفتها فى المعركة

الدموية التى نشبت فى١٣ ديسمبر "بفردريكسبورج". ثم ان استمرار هذه الاستراتيجية ودوامها فى سنة ١٨٦٣ لم يؤد الى زيادة الاقتراب من "رتشموند"، بل انه أدى الى غزو الجنوب بين أراضى الشمال على أثر انهيار الحركات التعرضية التى قام بها جنود الشمال . ثم ان هـذا الغزو المباشر صدّ هو الآخر فى "جتزبورج". وفى نهاية السنة كانت الجيوش قد رجعت الى مواقعها، وكان كلا الطرفين قد سفك من دمائه ماأضعفه بدرجة لا يستطيع معها سوى الوقوف أمام خصمه وجها لوجه عبر نهرى "الراپيدان" و"راپاهانوك" ويحدق فيه بعين الحقد . ومما له دلالة خاصة هو أن فى هذه الحملات التى كان الطرفان يتبادلان فيها الاقتراب المباشر كان ما يحصل من المزايا يكون فى جانب الفريق الذى ينتهج خطة الدفاع مكتفيا بصد زحف خصمه . لأن فى مثل هذه الظروف الاستراتيجية يبقى الدفاع هو الصورة الأقل استقامة من الأخرى لأنها تقتصر على تجنب بذل مجهود لا طائل تحته .

والمتفق عليه بصفة عامة هو اعتبار صدّ الغزو الذى قام به "لى" فى "جتزبورج" مبدأ انقلاب حالة الحرب وتغيرها. على أن هذا الزعم لا مبرر له الا بالمعنى المسرحى . أما حكم الرأى التاريخى السـديد فقد أكد مرة بعد أخرى أن المؤثرات الحاسمة جاءت من جهة الغرب . وأولها كان فى أبريل سنة١٨٦٢ حينما مرت العمارة البحرية التى كانت تحت قيادة "فاراجوت" أمام الطوابى التى كانت تحرس مصب نهر "المسسيبى" وتمكن بها "فاراجوت" من الفوز بتسليم "نيواورليز" بدون سفك دماء . فكانت هذه فى الواقع رأس السهم الذى نفذ بين شطرى ولايات الجنوب على طول الخط الحيوى المكون من هـذا النهر العظيم صعدا على مجراه .

أما المؤثر الحاسم الثانى فقد أحرز أبعد من ذلك صعدا فى "المسسيبى" فى نفس ذلك اليوم أى ٤ يوليه ، عند ماشرع "لى" فى رجعته من "جتزبورج" . وهو استيلاء "جرانت" على "فيكزبورج" التى أعطت الشمال السيطرة التامة على هـذا الشريان الحيوى . وبذلك أصبحت ولايات الجنوب محرومة حرمانا دائما من تغذية جنودها بالامدادات والمؤن من الولايات الواقعة وراء "المسسيبى" . على أن تأثير هذا الاحتشاد ، القائم على الاستراتيجية العظمى ، ضد الشريك الأصغر ، يجب ألا يغطى على الوسائل الاستراتيجية التى أوجدته . فان أول اقتراب الى "فيكزبورج" فى ديسمبر سنة ١٨٦٢ كان مباشرا فى جوهره وقد أخفق . وفى فبراير ومارس سنة ١٨٦٣ حاولوا عبثا أربع مرات الوصـول الى الغاية بمناورات ضيقة ترمى الى تجاوز الجناح . وبعد ذلك لجأ "جرانت" الى اقتراب غير مباشر واسع النطاق كان شبيها بحركة "وولف" النهائية فى "كويبك" (كندا) لا من حيث جرأتها فقط . فمر قسم من أسطول الشمال ونقالاته من أمام بطاريات "فيكزبورج" ليلا وسار نحو الجنوب الى نقطة تبعد عن القلعة بمسافة ثلاثين ميلا . ثم تحرك معظم الجيش الى تلك النقطة برا بطريق الشاطئ الغربى

"لمسيسيبي" وتحت ستر الحركات التى كان قام بها "شيرمن" لتشتيت أفكار العدو متجها نحو الشمال — الشرق من "فيكزبورج" . ثم نقل الجيش الى الشاطئ الشرقى فى مواجهة مقاومة ضعيفة . ولما انضم "شيرمن" الى "جرانت" ثانيا قام هذا بمجازفة مقصودة هى انفصاله عن قاعدته الوقتية الجديدة وتحرك شمالا متوغلا فى أراضى العدو ، ووضع نفسه على مؤخرة "فيكزبورج" معترضا مواصلاتها مع الولايات الشرقية الرئيسية من بلاد حكومة الجنوب بعد أن دار من النقطة التى بدأ منها دورة تكاد تكون تامة . فكان الظاهر والحالة هذه أنه وضع نفسه فى منتصف المسافة الكائنة بين فكى العدو — لأن قواته كانت محتشدة فى "فيكزبورج" وفى "جاكسون" . وعلى مسافة أربعين ميلا شرقا توجد نقطة اتصال السكة الحديدية الجانبية الجارية شمالا وجنوبا بالخط الرئيسى المار شرقا فغربا . ولكنه فى الواقع زحزح عمل هذين الفكين . ومما هو جدير بالذكر أنه حينما وصل الى هذه السكة الحديدية رأى من المستحسن أن يبدأ بنقل جيشه بأجمعه نحو الشرق ليلجئ العدو الى اخلاء "جاكسون" . وفى ذلك بيان للتغيير التى طرأ على الظروف الاستراتيجية بسبب تطور السكك الحديدية . لأنه بينما كان نابليون يستخدم خط نهر أو سلسلة تلال كحاجز (سده) الاستراتيجى . كان حاجز "جرانت" الاستراتيجى ينشأ عن تملكه نقطة واحدة — نقطة اتصال الخطوط الحديدية . وبعد أن استولى على هذه النقطة دار الى الوراء وتحرك زاحفا على "فيكزبورج" وكانت اذ ذاك قد انفصلت وبقيت منفصلة مدة من الزمن كانت كافية لتسليمها بعد ذلك بسبعة أسابيع . وكانت النتيجة الاستراتيجية على أثر ذلك فتح طريق "تشاتانوجا" الى "جورجيا" التى هى مورد الغلال لولايات الجنوب . ومنها الى الولايات الشرقية بأجمعها .

فكانت هزيمة الجنوب حينذاك تكاد تكون أمرا لامفر منه . ومع ذلك فان جنود الشمال كادوا يفقدون النصر الذى كان مضمونا لهم . لأن ولايات الشمال استولى عليها الملل فى سنة ١٨٦٤ تحت تأثير الشدة وأصبحت الكلمة للعنصر الأدبى وأخذ حزب الصلح يزداد يوما بعد يوم بانضمام الذين ملوا الحرب الى صفوفه . وكان موعد انتخاب الرئيس فى نوفمبر فكان لابد من اعطاء وعد صريح بتعجيل النصر وإلا ينتخب رئيس غير "لنكلن" يسعى للاتفاق مع العدو على عقد الصلح . ولهذا السبب استدعى "جرانت" من الغرب ليتولى القيادة العليا . فكيف كان سعيه فى الحصول على النصر المطلوب عاجلا؟ بالاستراتيجية التى كان يتبعها دائما أولئك القادة المتمسكون بالأصول العتيقة المتفق عليها بين رجال الجندية — أى باستخدام قوته المتفوقة على العدو تفوقا هائلا بأن يلقى ثقله على جيش العدو فيحطمه تحطيما، أو أن ينهكه « بالطرق المستمر » . فقد شاهدنا أنه فى حملة "فيكزبورج" لم يستخدم الاقتراب غير المباشر المتطرف الا بعد أن انتهج الاقتراب المباشر أكثر من مرة ثم فشل . وعندها نفذه بمهارة الأستاذ . ولكن يظهر أن ذلك الدرس لم ينطبع على ذهنه .

فالآن وهو فى منصب القيادة العليا جاءت أعماله مطابقة لطبيعته . فقد صمم على انتهاج الاقتراب المباشر القديم نحو الجنوب من نهر "الرباهانوك" متجها نحو "فرجينيا" . على أن ذلك كان يرمى الى شيء آخر — لأن غرضه الحقيق هو جيش العدو أكثر من كونه عاصمة العدو . فوجه مرؤوسه "ميد" وزوده بقوله "أينما يذهب" لى "عليك أنت أيضا أن تذهب" وانصافا "لجرانت" أيضا يجب القول انه وان كان اقترابه مباشرا بالمعنى الشامل فهو لم يكن بمعنى مجرد اندفاع جبهى مطلقا ، وفى الحقيقة انه كان يسعى دائما للالتفاف حول جناح عدوه بالمناورات وان كانت فى محيط ضيق . وزيادة على ذلك فانه استوفى كل الأصول العسكرية الصحيحة من الاحتفاظ باحتشاد جيشه ،وملازمة ابقاء غرضه نصب عينيه لايحوله عنه فزع آت من جهة أخرى . وكانت "ارادته للنصر" لا تفوقها حتى ارادة "فوش" . ويحق للذين اتبعوا طريقته فى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ أن يحسدوه على ما لاقى من رئيسه السياسى من سخاء العون الذى أمده به والثقة التى لا تتقطع . فمن المؤكد أن ظروفه كانت من أكمل ظروف الاستراتيجية الأصولية بأحسن طرقها المنطوية على الاقتراب المباشر .

ومع ذلك ففى نهاية صيف سنة ١٨٦٤ ذبلت فى أيدى رجال الشمال ثمرة النصر التى كانت ناضجة . ففى الشمال كان الصبر والجلد قد بلغ النهاية حتى يئس "لنكلن" من اعادة انتخابه — وهذا جزاء مؤلم على الثقة المطلقة التى أودعها فى منفذه العسكرى وجزاء سخرى على صدق العزيمة التى أدار بها "جرانت" قوته المتفرقة التى انكمشت الآن بشكل مرعب على أثر المعارك الطاحنة التى وقعت فى "البرية" وفى "كولدهاربور" وفشلت فشلا تاما فى سحق جيش العدو . وفى حين أن النتيجة الرئيسية — وهى الميزة الجغرافية التى توفرت بالدوران الذى تم حتى بلغ ما يقرب من مؤخرة "رتشموند" ، أحرزتها المناورات التى لم تسفك فيها دماء والتى حصلت أثناء زحفه . وعلى ذلك فقد كان على شيء من الرضاء لوجوده بعد الخسائر الجسيمة فى الموقع الذى احتله "ماككليلان" فى سنة ١٨٦٢ . على ان الجو الذى كان يظهر أنه فى أشد درجات الحلوكة أضاء بغتة . فان "لنكلن" أعيد انتخابه فى نوفمبر وعاد الى مركز القوة . فما هو العامل الذى أغاثه وحال دون احتمال انتخاب "ماككليلان" مرشح الحزب الديمقراطى الذى كان يطلب الصلح ليحل محله ؟ ليست حملة "جرانت" التى لم تتقدم فى الواقع بين يوليه وديسمبر بل أخفقت اخفاقا مزدوجا فى منتصف أكتوبر كلفها كثيرا . انما العامل الذى كان سبب النجاة هو باقرار المؤرخين استيلاء . "شيرمن" على "اطلنتا" فى سبتمبر . فان "جرانت" عند ما استدعى ليتولى القيادة العليا . خلفه فى القيادة فى الغرب "شيرمن" الذى اشترك بمقدار غير يسير فى الفوز الذى أحرزه "جرانت" فى "فيكزبورج" . وكان هناك تناقض بين أمانى كل منهما . فبينما كان الغرض الأولى الذى يرمى اليه "جرانت" هو جيش العدو كان "شيرمن" يرمى الى الاستيلاء على النقط الاستراتيجية . وكانت "اطلنتا" التى هى قاعدة

جيش العدو الذى يقاومه ليست نقطة الاتصال بين أربعة خطوط من خطوط السكك الحديدية الهامة فحسب ، بل كانت أيضا مستودعا لمؤن حيوية . وكما قال "شيرمن" كانت "مليئة بدور صب المعادن (المسابك) ، والترسانات ، ودور الصناعة (الورش) الميكانيكية" . فضلا عن كونها رمزا أدبيا . وفى رأيه أن "الاستيلاء عليها يكون نذير الموت لولايات الجنوب" وسعى لأن يضربها بالمناورات بقدر الامكان بدلا عن ضربها بمعركة — اذ كان متشبعا بفكرة الفوز بأرخص ثمن ممكن . ومهما وجد من تشعب الآراء فى تقدير قيمة الغرض الذى قصده "جرانت" والغرض الذى قصده "شيرمن" فان الظاهر هو أن الأخير منهما أكثر ملاءمة للنفسية الديموقراطية . وربما كان الحاكم المطلق وحده الواثق من مركزه هو الذى فى وسعه أن يأمل أن يحافظ على المثل الأعلى للفكرة العسكرية بأن يجعل "القوات المسلحة" الغرض الذى يرمى اليه . وان كان حتى هو نفسه يلتزم الحكمة فيوفق بين هذا المثل الأعلى وحقائق الموقف . وبين الظروف المتوقعة لتنفيذه بميزان العقل . ولكن الاستراتيجى الذى يخدم حكومة ديموقراطية لا يتسع له المجال بهذا القدر . فهو يعتمد على ما يمده به مخدمه من العون وما يوليه من الثقة فيضطر لأن يعمل فى حدود من الوقت والتكاليف أقل من الحدود التى يعمل فيها الاستراتيجى "المطلق" . وتطلب منه مكاسب سريعة بالحاح أكثر . ومهما كان ما يأتى به المستقبل فى آخر الأمر فانه لا يستطيع تأجيل تقديم الحساب . ومن ثم قد تلجئه الضرورة لأن يحيد عن غرضه موقتا ، أو على الأقل ، يعطيه شكلا آخر بأن يغير خط عملياته . مع هذه العوائق التى لا مفر منها يجدر بنا التساؤل عما اذا لم يكن من الواجب أن تكون النظرية العسكرية فى مثلها العليا أكثر تطابقا مع الحقيقة المقلقة وهى أن المجهود العسكرى يقوم على الأساس الذى يرتضيه الشعب — أى أن تقديم الرجال والذخائر ، بل وحتى موالاة القتال أو قطعه كل ذلك يتوقف على رضاء "رجل الشارع" . فان الذى يأجر الزمار يختار النغمة . وليس ما يمنع أن يُعطى الاستراتيجيون أجرا ، من النوع والصنف ، أكثر اذا هم أصلحوا نغماتهم بقدر ما فى امكانهم حتى تقبلها أذن الشعب (يريد أن لا مانع من تقديم الجنود والذخائر مادام القائد يعمل ما يرضى الشعب) .

وقد كان اقتصاد "شيرمن" فى القوة بالمناورات أكثر ظهورا لأنه خلافا لما كان عليه "جرانت" فى "فرجينيا" ، كان مقيدا فعلا بخط حديدى واحد لاستيراد مؤنه . ومع ذلك فانه تجنبا لتوريط جنوده فى هجوم مباشر ترك هذا الخط وابتعد عنه . فلم يسمح بهجوم جبهى فى كل هذه الأسابيع التى انقضت فى المناورات الا مرة واحدة فى "جبل كنيصو" . ومما هو جدير بالذكر أنه سمح بهذا الهجوم ليوفر على جنوده مشقة موالاة السير الجانبى فوق طرق مغمورة بالمياه . وأن هذا الهجوم صُد — وقد خف تأثير هذه الصدمة لأن الهجوم أوقف

بمجرد اعاقته لأول مرة . وكانت هذه فى الواقع هى المرة الوحيدة التى حصلت أثناء الزحف الذى قطع فيه "شيرمن" ١٣٠ ميلا مجتازا بلادا جبلية تتقاطع فيها الأنهر وورط فيها جنوده فى معركة هجومية . وهو فى الحقيقة كان يقوم بالمناورات بمهارة استدرج بها جنود الجنوب المرة بعد المرة الى جهات لا طائل تحتها فان ارغامه عدوا متخذا خطة الدفاع الاستراتيجى على انتهاج سلسلة من الحركات التكتيكية التعرضية التى تكلفه خسائر كثيرة كان فوزا فى المهارة الفنية الاستراتيجية لم يسبق له مثال فى التاريخ . ومما يرفع من شأن هذه المهارة بصفة خاصة هو أن "شيرمن" كان مرتبطا فى مواصلاته بخط واحد لا غير . وحتى مع مراعاة أضيق قواعد القياس العسكرية ، وغض النظر عن التأثير الجسيم أدبيا واقتصاديا الذى أحدثه هذا العمل . فانه عمل مجيد لأن "شيرمن" أوقع بالعدو من الخسائر أكثر مما أصابه هو . وليس ذلك نسبيا فقط . بل فى الواقع — اذا "قورن" عمله بعمل "جرانت" فى فرجينيا . ثم ان "شيرمن" بعد استيلائه على "اطلانتا" جازف مجازفة لم يسبق له مثلها ، وانتقده عليها كثيرا الشراح العسكريون فقد فكر فى أنه اذا استطاع أن يخترق "جورجيا" سيرا و يدمر نظم سككها الحديدية بما أنها "مورد الغلال فى ولايات الجنوب" ، ومنها يسير الى "كارولاينا" الجنوبية "فكارولاينا" الشمالية فان التأثير الأدبى الذى يحدثه غزو بلاد الجنوب على هذه الصورة ، ووقف تسيير المؤن شمالا الى "رتشموند" والى جيش "لى" ، يحدثان انهيار مقاومة ولايات الجنوب . ولذلك فانه أهمل جيش "هود" الذى كان ألجأه الى الجلاء عن "اطلانتا" ثم شرع فى سيره المشهور "السير الى البحر" مخترقا "جورجيا" وهو يمون جيشه من البلاد و يدمر السكك الحديدية فقام من "اطلانتا" فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٤ وفى ١٠ ديسمبر وصل الى ضواحى "سافانا" وفيها أعاد فتح مواصلاته وجعلها هذه المرة بحرا ، وحرم الجنوب من ثغوره الشهيرة التى كانت باقية له . و بعد ذلك تحرك شمالا مجتازا ولايتى "كارولاينا" وجاء على مؤخرة "لى" أما "جرانت" فانه لم يستأنف الزحف الا بعد ذلك بثلاثة أشهر ونيف ، فى أوائل أبريل . وهذا الزحف أحرز فوزا مسرحيا . وتسليم "رتشموند" أعقبه تسليم جيش "لى" فى ظرف أسبوع . فأما من حيث الظاهر فان هذا التسليم جاء فوزا مبررا لاستراتيجية "جرانت" المباشرة واتخاذه "المعركة" غرضا . وأما من حيث الحكم الجدى المبنى على النظر والرأى السديد فان عامل الوقت من أهم العوامل . فان تدهور مقاومة ولايات الجنوب سببه الجوع الذى كان له رد فعل فى القوة المعنوية . فقد كان الاقتراب غير المباشر الى مؤخرة العدو الاقتصادية والمعنوية حاسما فى الطور الأخير كما كان فى التنقلات المتوالية التى مهدت للحسم فى جهة الغرب . وهذه الحقيقة تتضح لمن يدرس هذه الحرب دراسة دقيقة شاملة . وقد قدرها حق قدرها الجنرال "إدموندس" المؤرخ الحالى الرسمى الذى وضع تاريخ الحرب العالمية . وذلك منذ أكثر من عشرين سنة حيث قال فى قراره ما يأتى :

BIBLIOTHÈQUE ÉGYPTIENNE
دار الكتب المصرية
EGYPTIAN LIBRARY

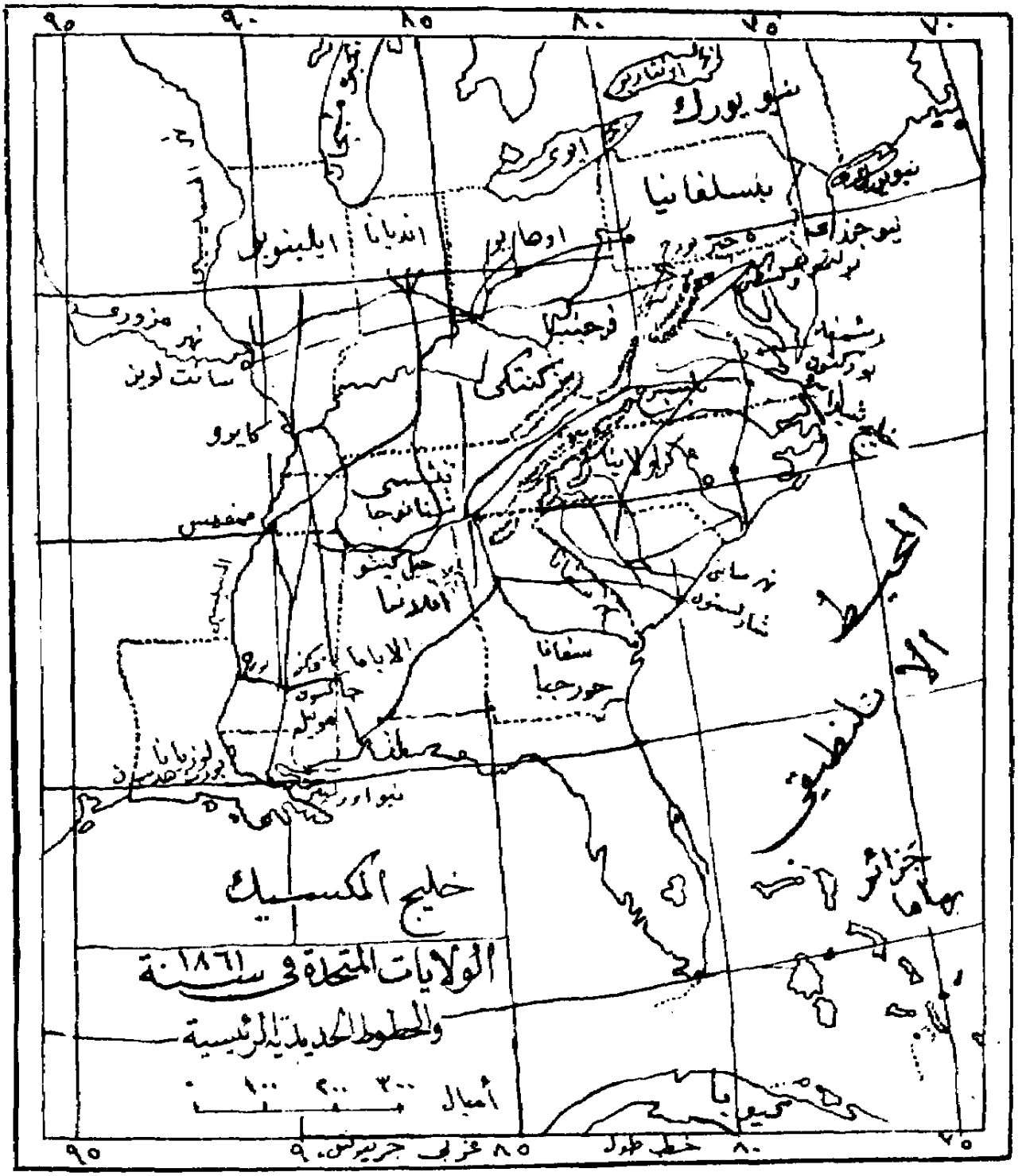
نيويورك
بنسلفانيا
انديانا
ايلينوي
اوهايو
ويسكنسن
ميزوري
سانت لويس
كنتكي
تنسي
ميسيسبي
الاباما
جورجيا
لويزيانا
تكساس
خليج المكسيك
البحر الاطلنطيقي
الولايات المتحدة في سنة ١٨٦١
والخطوط الحديدية الرئيسية
أميال
خط طول
غرب جرينتش

"ان العبقرية العسكرية التى اتصف بها قائدا الجنوب الكبيران "لى" و"جاكسون" والمقدرة الحربية التى اتصف بها جيش فرجينيا الشمالية التى لا مثيل لها . وقرب العاصمتين المتنافستين احداهما من الأخرى . كل ذلك كان سببا فى تركيز الالتفات على المسرح الشرق للحرب بدرجة لا مبرر لها . أما الدرجات الحاسمة فقد وقعت فى الغرب . فان الاستيلاء على "فيكزبورج" و"بورت هندرسون" فى يوليه سنة ١٨٦٣ كان النقطة الحقيقية التى طرأ فيها الانقلاب على الحرب كما كانت العمليات التى قام بها جيش "شيرمن" الغربى الأكبر هى التى أدت فى الحقيقة الى انهيار الجنوب فى "دار محكمة أبوماتوكس" — المكان الذى سلم فيه "لى" فى الشرق .

وذلك الالتفات الذى لامبرر له يرجع بعضه الى نخفخة المعارك التى تسحر الجندى العادى الذى يدرس التاريخ ، وبعضه الى تأثير حماسة "هندرسون" فى كتابه المسمى "ستونوول جاكسون" — الذى ربما كان شعرا حماسيا أكثر منه تاريخا . وذلك لم يقلل من قيمة الكتاب الحربية . بل على العكس فانه زادها . وربما كانت هذه الزيادة راجعة الى بيان آراء هندرسون فى الحرب أكثر منها الى سرد أعمال "جاكسون" التنفيذية ولكن هذا الكتاب قد اجتذب التفات الطالب الحربى البريطانى الى حملات "فرجينيا" بما حواه من البيانات الشيقة ، وأهمل المسارح الغربية حيث وقعت الأعمال الحاسمة . وفى مقدور الجنرال "أدموندس" بصفته واضع تاريخ حرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ أن يؤدى خدمة للأجيال المقبلة بتحليله للتأثير المتولد عن هذا "الالتفات الذى لا مبرر له" فى أفكار البريطانيين قبل سنة ١٩١٤ ، وبالتالى ما كان له من أثر فى الاستراتيجية البريطانية . فان كلاهما لم يكن متحيزا فقط بل كان قائما على قياس خاطئ .

وعند ما ننتقل من الحرب الأهلية الأمريكية الى الحروب الأوربية التى وقعت على أثرها فان الذى ينطبع على مخيلتنا أكثر من غيره هو وضوح التناقض بينها . فأول نقيض هو أن فى حربى سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ كان كلا الفريقين المتحاربين متأهبا للحرب ولو اسميا على الأقل . والنقيض الثانى أن النضال كان بين جيوش محترفة . والثالث أن الرياسة العليا لدى الفريقين كان عند كل منها كشف ببيان الأخطاء والزلات لم تتوصل اليه القيادة العليا فى الحرب الأمريكية . والرابع أن الاستراتيجية التى اتبعها كلا الطرفين فى كلا الحربين كانت ناقصة نقصا جوهريا فى الفن . والخامس أنه بالرغم من كل ما ذكر كان الحسم سريعا . فاستراتيجية "مولتكه" كانت فى جوهرها استراتيجية الاقتراب المباشر وليس فيها من الخدعة الا شىء يسير ، معتمدة على مجرد قوة التحطيم التى تتوافر فى تفوق القوة المحشودة . فهل نستنتج من ذلك أن هاتين الحربين هما الاستثناء الذى يضرب به المثل على اثبات القاعدة ؟ نعم انهما مستثنيان فى الواقع ولكن لا يمكن القول بأنهما استثناء للقاعدة التى تنجم عن الحالات الكثيرة

(٧)

التى سبق لخصها . لأنه ليس فى واحدة منهما ان كان كل من ضعف القوة و بلادة العقل كلاهما فى جانب الفريق المهزوم فكانا يثقلانه من أول الأمر . فكثيرا ما شوهد أحدهما أو الآخر (الضعف أو البلادة) ولكن لم يشاهدا كلاهما مطلقا . أما فى سنة ١٨٦٦ فكان ضعف قوة النمساويين من بادئ الأمر فى كون أسلحتهم أقل قيمة من أسلحة عدوهم — لأن البندقية التى تحشى من الخلف أعطت البروسيين ميزة على بندقية النمساويين التى تحشى من الفوهة كما ثبت فى ميدان القتال بما لا يدع شكا ، ولو أن آراء المجامع العلمية العسكرية فى الجيل التالى كانت تميل الى اغفال ذلك . وأما فى سنة ١٨٧٠ فكان ضعف قوة الفرنسيين يرجع بعضه الى أقليتهم العددية ، وبعضه الى انحطاط درجة التعليم كما فى سنة ١٨٦٦ ، فهذه الحالات المزدوجة فيها أكثر مما يكفى لتفسير أسباب حاسمية هزيمة النمساويين فى سنة ١٨٦٦ ، وأكثر منه لتفسير أسباب حاسمية هزيمة الفرنسيين فى سنة ١٨٧٠ ، أمام اقتراب مباشر . أما الدرس الحقيق المكتسب من هذه الأمثلة فهو ليس فى أن الاقتراب الاستراتيجى فيها كان استثناء للقاعدة ، بل ان الاستثناء من التجارب السالفة كان فى الظروف . فقد كانت ظروفا استثنائية حقا . وفى المناقشات أو الاستعدادات التى تسبق الحرب لا يجرؤ جندى على تأسيس خططه على افتراض أن عدوه سيكون ضعيفا عقلا وجسما كالنمساويين فى سنة ١٨٦٦ والفرنسيين فى سنة ١٨٧٠ ، ومع ذلك فان الواقع فى سنة ١٩١٤ هو أن الخطط التى وضعتها هيئات أركان الحرب المختلفة و بينت تفصيلاتها وقبلتها للحرب كانت مؤسسة على الاقتراب المباشر . ومن ثم فان الاستنتاج الوحيد الممكن ، وان كان لا يصدق ، هو انها افترضت دون أن تشعر أن ظروف سنة ١٨٧٠ كانت ظروفا عاديه لا استثنائية .

وفى نفس الوقت فان مما يستحق البيان قبل الانتهاء من هذه الأمثلة هو أن الاستراتيجية الألمانية وان كانت مباشرة فى تصميمها الا أنها كانت أقل من المباشرة فى تنفيذها . فان الحاجة الى توفير الوقت فى سنة ١٨٦٦ باستخدام كل السكك الحديدية الموجودة أدت "بمولتكه" لأن ينزل القوات البروسية من القطارات على جبهة متسعة جدا تزيد على ٢٥٠ ميلا وكان فى نيته أن يجمعها الى الداخل بأن تتلاقى معا بزحف سريع مجتازة منطقة الحدود الجبلية ويضم جيوشه فى بوهيميا الشمالية . ولكن ضياع الوقت بسبب امتناع ملك بروسيا عن أن يكون هو المعتدى خيب نية "مولتكه" وذلك أكسب استراتيجيته اقترابا غير مباشر لم يكن فى تصميمه . لأن الجيش النمساوى احتشد واندفع الى الأمام فى تلك الفترة فحرم "مولتكه" من الساحة التى كان يريد أن يحتشد فيها . ثم ان ولى عهد بروسيا ، لاعتقاده بأن زاوية "سليسيا" الخارجة مهددة انتزع منه اذنا على غير رضاه لتحريك جيشه الثانى نحو الجنوب لتأمين "سليسيا" وبذا ازداد انفصالا عن الجيوش الاخرى ، وبذا أيضا تحرك على طول

القسم العلوى لحرف L (الافرنجية) فوضع نفسه فى موقع يهدد جناح ومؤخرة الكتلة النمساوية وقد سكب الأدعياء كثيرا من المداد فى إدانة "مولتكه" على إذنه للأمير بهذا الانتشار المتسع مع أن هذا الامتداد كان فى الحقيقة عبارة عن بذور النصر الحاسم وان كان لم يبذره هو عن قصد .

فهذا القرب أخل بتوازن القيادة النمساوية العقلى بدرجة مكنت البروسيين ، بالرغم مما ارتكبوه من الأخطاء الجسيمة ، أن ينفذوا أولا من الجبال على كلا الجانبين . ثم يحرزوا النصر الذى أحرزوه فى "كونيجراتس" — حيث وقعت أخطاء أخرى صيرت الاقتراب غير مباشر فأصبح حاسما . غير أن القائد النمساوى غلب قبل افتتاح المعركة . فانه كان قد بعث الى امبراطوره رسالة برقية يلح فيها بطلب صلح عاجل .

وفى سنة ١٨٧٠ كان فى نية "مولتكه" أن يحدث معركة حاسمة على نهر "الصار" حيث تحتشد جيوشه الثلاثة مطبقة على الفرنسيين فتسحقهم سحقا . وهذه الخطة قلبت رأسا على عقب لا بفعل الفرنسيين ولكن بفعل الشلل الذى أصابهم . وسبب هذا الشلل هو مجرد وصول أخبار تنبىء بأن الجيش الألمانى الثالث الموجود فى نهاية الميسرة قد عبر الحدود مبتعدا نحو الشرق وأحرز فوزا تكتيكيا صغيرا على قسم فرنساوى فى "وايسنبورج" وفى النتيجة كان التأثير غير المباشر الذى أحدثه هذا الاشتباك الصغير حاسما بدرجة أعظم مما كان يحتمل أن يتأتى من المعركة الكبرى التى كان فى النية احداثها . لأن الجيش الثالث كان سمح له بأن يتخذ طريقا يسوده السكون متطرفا نحو الشرق خارج منطقة الجيوش الرئيسية المتناضلة بدلا من دورانه الى الداخل ليعزز الكتلة الرئيسية . ولذلك لم يشترك فى المعركتين الطاحنتين "فيونفيل" "وجرافيلوط" — فان موقع الفرنسيين كان فى وضع يجعل اشتراكه فيها اشتراكا مثمرا أمرا غير محتمل لو أنه كان أقرب مما كان — ولهذا السبب كان هو العامل الحيوى فى الطور التالى الحاسم . لأن الجيش الفرنسى الرئيسى — الذى كان قد ازداد نشاطا ، لا فتورا ، بنتيجة معركة جرافيلوط — لما تقهقر وارتد جناحه ودخل الى قلعة "متس" كان فى ميسوره أن يفلت من الجيشين الأول والثانى الألمانيين اللذين كان الاعياء قد أخذ منهما كل مأخذ . ولكن احتمال تدخل الجيش الثالث حرض "بازان" على البقاء آمنا فى "متس" وبذا توافر الوقت للألمان لجمعوا شتاتهم ، وللفرنسيين ليفقدوا اتصال بعضهم ببعض بجهودهم الذى أعقب تركهم الميدان المكشوف . وكانت نتيجة ذلك أن حرض "ماكماهون" محرض أو ضغط عليه سياسيا لأن يقوم بحركته لتخليص "متس" تلك الحركة الدالة على تدبير عقيم وادارة أكثر عقماً . وبهذه الكيفية تواجدت فرصة . لم تكن مقصودة ولا متوقعة ، للجيش الثالث الذى كان ما يزال مواليا سيره "حرا" نحو باريس ، أن يقترب من جيش "ماكماهون" اقترابا غير مباشر . فما كان منه الا أن غير اتجاهه تغييرا تاما من جهة الغرب الى جهة الشمال وتحرك

هابطا على جناح "ماكماهون" ومؤخرته فكانت نتيجة ذلك معركة "سيدان" فتى فى الحرب الذى كان فيه الاقتراب المباشر ظاهرا أكثر مما فى غيره كان الطور الحاسم ينطوى على أساليب غير مباشرة أكثر مما تدل عليه الظواهر . على أن المشاهد فى جملة الأبحاث النظرية العسكرية التى وضعت بعد سنة ١٨٧٠ ، أن الظواهر هى التى كانت تتأثر بها هذه الأبحاث ، دون الاستنتاجات العميقة . وهـذا التأثير هو الذى كان يسود الحرب التالية التى كانت فى نطاق واسع — وهى الحرب الروسية — اليابانية . فان الاستراتيجية اليابانية كانت تنطوى على الاقتراب المباشر الصرف اذ كانت تابعـة لمستشاريها الألمـانيين بغاية الدقة . فلم تحصل أية محاولة للاستفادة من الظروف التى كانت ملائمة بدرجة فوق المعتاد . ظروف كون مجهود الروسيا الحربى متوقفا على خط حديدى واحد، هو خط سكة حديد سبيريا . وليس فى التاريخ بأجمعه أن جيشا كان يتنفس الهواء من حنجرة طويلة ضيقة كما كان الجيش الروسى الذى كان حجمه يزيد تنفسه صعوبة . غير أن كل ما كان استراتيجيو اليابان يفكرون فيه هو ضربة ينزلونهـا بالجيش الروسى موجهة الى أسنانه مباشرة ، فأبقوا جنودهم متجمعة مجموعات أكثر تلاصقا مما كانت جنود مولتكه فى سنة ١٨٧٠ . نعم انهم حاولوا أن يقوموا باقتراب تتلاقى فيه جنودهم أمام "لياو — يانغ" ولما اتصلوا بالعدو سعوا مرارا لأن يتجاوزوا جناحه . ولكن اذا كانت هذه الحركات التى يقصد بها تجاوز الجناح تظهر على الخريطة كأنها متسعة نسبيا فانها فى منتهى الضيق بالنسبة لحجم القوات . ومع أنه لم يكن لديهم جيش "حر" ثالث كالذى كان لدى "مولتكه" لحسن حظه ، ولا طعم مغرى مثل "متس" ولا "ماكماهون" ليبتلع هذا الطعم — لأنهم ابتلعوا طعمهم بأخذهم "بورت أرثر" — فانهم كانوا ينتظرون "سيدان" فكانت النتيجة أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم بعد معركة "موكدن" النهائية التى لم تكن حاسمة لدرجة أنهم فرحوا ، وساعدهم الحظ ، لعقـد الصلح مع عدو مل النضـال مع أنه لم يشرك فيه عشر القوات الموجودة لديه بعد .

هذا التحليل التاريخى يعالج الحقائق ، لا الآراء الفرضية ، أى ما وقع فعلا وما نتج عنه لا ما كان يمكن أن يقع . فان نظرية الاقتراب غير المباشر البارزة منـه يجب أن تستقر على الأدلة المجسمة المأخوذة من التجارب الفعلية بأن الاقتراب المباشر غير حاسم وهذا التحليل لا دخل له مطلقا بالجدل فيما يختص بالصعوبات التى تعترض القيام باقتراب غير مباشر فى حالة معينة ، اثباتا كان أو نفيا . فليس من المناسب فى وجهة نظر هذا الموضوع الأساسى أن نبحث عما اذا كان فى استطاعة القائد أن يسلك سبيلا غير الذى سلكه . وعما اذا كان السبيل الآخر يؤدى الى نتائج أحسن لو أنه سلكه .

على ان التبصر من وجهة المعلومات العسكرية العامة يسترعى الالتفات دائما . وكثيرا ما يكون ذا قيمة . ولذا فاذا تحول الانسان عن الموضوع الحقيق لهذه الدراسة وخرج عنه فانه قد يلاحظ العراقيل التى لاقاها اليابانيون من جراء قلة المواصلات ووعورة الأراضى فى "كوريا" و"منشوريا" ومع ذلك يلاحظ التشابه العظيم بين "بورت — أرثر" و"مانتاو" فان كانت الظروف أكثر صعوبة من بعض الأوجه . فانها كانت أفضل من أوجه أخرى . فضلا عن أن الآلة (الجيش) أحسن . وعلى ذلك فقد يتساءل الانسان عما اذا لم يكن فى امكان الاستراتيجية اليابانية فى الطور الأول من الحرب أن تستغل طعم "بورت — أرثر" بالطريقة الدالة على الدهاء التى استغل بها نابليون "مانتاو" وفى الطور الأخير ألم يكن هناك مجال لاستخدام قسم من القوة على أقل تقدير ضد تلك الحنجرة الضعيفة بين "هاربين" "وموكدن".

الباب التاسع

النتيجة

لقد اشتملت مطالعاتنا على الحروب التسع التى كان لها أثر حاسم فى مجرى التاريخ الأوروبى فى الأعصر الخالية . وحروب التاريخ الحديث الكبرى الثمانية عشرة — معتبرين النضال الذى قام ضد نابليون حربا واحدة هى التى كانت تخمد نارها تارة فى مكان ، وتعود الى الالتهاب تارة أخرى فى مكان آخر فكانت فى الواقع لا تنقطع . فهذه الحروب البالغ عددها سبعة وعشرين حربا تضمنت أكثر من ٢٤٠ حملة حربية . وفى ست من هذه الحملات فقط — هى الحملات التى انتهت بمعارك "إيسوس" . و "جاوجا ميلا" و "فريدلند" و "واغرام" و "سادووا" و "سيدان" — أمكن الحصول على نتيجة حاسمة بواسطة الاقتراب الاستراتيجى المباشر من الجيش الرئيسى للعدو . وفى الحملتين الأوليين منها كان الاقتراب الاستراتيجى المباشر الذى قام به الاسكندر قد سبقه التمهيد باستراتيجية عظمى مؤسسة على اقتراب غيرمباشر هزّ الامبراطورية الفارسية من أساسها وزعزع ثقة أتباعها فيها . وليس ذلك فحسب بل انه كان مضمونا بامتلاك آلة تكتيكية متفوقة تفوقا لا يوصف . ثم نفذ باقتراب تكتيكى غير مباشر . والحملتين الثانيتين كان نابليون شرع فيهما بأن حاول القيام باقتراب غير مباشر . ثم عدل من الاقتراب غير المباشر الى اقتراب مباشر . وعدوله هذا يرجع بعضه الى قلة صبره ، وبعضه الى ثقته فى تفوق آلته (جيشه) . وهذا التفوق كان يرتكز على المدفعية المتجمعة كلا . فكان الحسم فى كل من "فريدلند" و"واغرام" راجعا بصفة رئيسية الى هذه الطريقة التكتيكية الحديثة . على أن الثمن الذى اشترى به فوزه فى هاتين المعركتين وما كان له من الأثر فى حظ نابليون ليس مما يشجع على العودة الى مثل هذا الاقتراب المباشر حتى ولو بتفوق تكتيكى مثل هذا التفوق . أما فى سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ فقد شاهدنا مما مر بيانه أن هاتين الحملتين ولو أن تصميمهما كان على طريقة الاقتراب المباشر . الا أنهما تحولتا على غير قصد الى اقتراب غير مباشر — عززه تفوق الألمان التكتيكى فى كلتا الحالتين — السلاح الذى يحشى من الخلف فى سنة ١٨٦٦ ، والتفوق العددى فى سنة ١٨٧٠ . ولا شك فى أن هاته الحملات الست ليست إلا حجة واهية لتبرير أى شخص يستحق اسم جنرال فى الرضاء بانتهاج استراتيجية الاقتراب المباشر . ومع ذلك ففى كل عصور التاريخ كان الاقتراب المباشر هو الصورة المعتادة دائما للاستراتيجية . وكان الاقتراب غير المباشر المقصود بالذات الاستثناء النادر . فقليلهم القادة ، حتى بين مشاهيرهم الذين انتهجوا الاقتراب غير المباشر فى استراتيجيتهم الافتتاحية ، وفى أغلب الأحيان انتهجوه كآخر حيلة بل وكآخر مغامرة ومع ذلك فقد أدى

بهم الى الحسم فى حين أن الاقتراب المباشر كان قد انتهى بهم الى الفشل فتركهم بحالة من الضعف لا يقوون معها على محاولة انتهاج الاقتراب غير المباشر . والفوز الحاسم الذى يحصل فى مثل تلك الظروف التى تكون قد ازدادت سوءا له أهمية ذات مغزى خاص .

ولقد أبانت مطالعتنا عن ست وعشرين حملة حربية كان فيها الاقتراب الحاسم والاقتراب غير الحاسم ظاهرين ظهورا لا يقبل جدلا وهى حملات "ليساندر" فى البحر "الايجى" (القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط) فى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد و "إيامينونداس" فى "البلوبونيز" فى سنة ٣٦٢ قبل الميلاد و "فيليب" فى "بوئيوتيا" فى سنة ٣٣٨ قبل الميلاد والاسكندر على نهر "الهيداسپس" (الهند) وضد "كاساندر" و "ليسيماكوس" فى الشرق القريب سنة ٣٠٢ قبل الميلاد وهانبال فى حملة "ترازيمين" فى "إتروريا" وحملة "سبيو" فى "يوتيكا" و "زاما" بأفريقيا و "سيزار" فى حملة "إليردا" فى أسبانيا .

وفى التاريخ الحديث حملات "كرومويل" فى "پرستون" و "دنبار" و "ورسستر" . وحملة "تورين" فى الالزاس سنة ١٦٧٤ — ٧٥ وحملة أوجين فى ايطاليا سنة ١٧٠١ وحملة "مارلبورو" فى "فلاندرز" سنة ١٧٠٨ وحملة "فيلار" سنة ١٧١٢ وحملة "وولف" فى "كويبك" وحملة "جوردان" على نهرى "الموزيل" و "الموز" سنة ١٧٩٤ وحملة الأرشدوق "شارلس" على نهرى "الرين" و "الدنوب" سنة ١٧٩٦ وحملات بونابارت فى ايطاليا سنة ١٧٩٦ وسنة ١٧٩٧ وسنة ١٨٠٠ وحملاته فى "أولم" و "أوسترلتز" سنة ١٨٠٥ ، وحملة "جرانت" فى "فيكسبورج" ، وحملة "شيرمن" فى "اطلانتا" ، فكل هذه الحملات رجحت كفة الميزان فى الحرب التى وقعت فيها ، وزيادة على ذلك فان مطالعتنا أبانت عدة أمثلة "للحد الفاصل" أى الأمثلة التى كان فيها الاقتراب أو تأثيره أقل وضوحا من غيره .

فهذه النسبة العظيمة لحملات التاريخ الحاسمة التى زادتها قيمة ندورة الاقتراب غير المباشر نسبيا تجبرنا على أن نستنتج أن الاقتراب غير المباشر هو صورة الاستراتيجية التى تتوافر فيها أعظم درجات الأمل والاقتصاد عن غيرها بكثير ، وهل فى استطاعتنا أن نستنتج من التاريخ ماهو أقوى وأقطع للدلالة على ذلك مما مر ، نعم ذلك أن كبار قادة التاريخ ، ماعدا الاسكندر الذين أحرزوا الفوز بصورة منتظمة حينما كانوا يواجهون عدوا مستحكما فى موقع قوى سواء كانت قوته طبيعية أو مادية ما كانوا يهاجمونه مباشرة مطلقا إلا فى النادر جدا ، وأنهم اذا اضطروا بحكم الظروف القاسية أن يجازفوا بمهاجمته مباشرة على غير رضاء منهم كانت النتيجة فشلا تاما يشوه تاريخهم ، فان "مارلبورو" لم يحد عن طريق الاقتراب غير المباشر تماما إلا مرة واحدة فجنى فيها النتائج التى أحرزها بفوزه سنين ، وحاد عنه سيزار عدة مرات

وتكبد بنسبتها ، أما "سبيو" وكرومويل فلم يحيدا مطلقا فكانا هما القائدين الكبيرين الوحيدين اللذين انتصرا دائما أبدا ، ما عدا الاسكندر وحتى الاسكندر نفسه بالرغم من تفوق آلته تفوقا لاحصر له كان يستخدمها دائما باقتراب تكتيكى غير مباشر .

وزيادة على ذلك فان التاريخ يبين أن القائد الكبير يقدم على المجازفة بالاقتراب غير المباشر الذى تكتنفه أشد الأخطار بدلا من أن يستسلم لاقتراب مباشر — فاذا قضت الضرورة اجتاز الجبال ، أو الصحارى أو المستنقعات بقسم صغير من جيشه ، بل وانفصل عن مواصلاته وابتعد عنها فيواجه ، فى الواقع ، كل الظروف والحالات المعاكسة بدلا من قبول الغلب الذى ينتج من الاقتراب المباشر فان المجازفات الطبيعية مهما عظمت هى فى الحقيقة أقل خطرا وأقل تأكدا من مجازفات القتال ، وكل الظروف فى الاستطاعة أن يحسب حسابها ، وكل العوائق أكثر قابلية للتخطى من ظروف وعوائق المقاومة البشرية . ففى الامكان التغلب عليها بالحساب والاستعداد القائمين على التبصر بحيث تكاد تنتظم طبقا "لجدول مواعيد" ولكن حينما تمكن نابليون من عبور جبال الألب "طبقا لخطته" أعاقته طابية "بارد" الصغيرة وأعاقت حركات جيشه إعاقة جدية جعلت كل خطته فى خطر .

ولنرجع الآن الى قلب ترتيب فحصنا فنطالع معارك التاريخ الحاسمة بالدور فنجد فى جميع هذه المعارك بوجه التقريب أن الظافر كان قد وضع خصمه فى حالة نفسية غير مرضية قبل نشوب القتال وأمثلة ذلك "ماراثون" و "سالاميس" و "إجوسيوتامى" و "مانتينيه" و "خيرونيه" و "كان" و "ميتاوورروس" و "زاما" و "برستون" و "دنبار" و "وورسستر" و "بلنهايم" و "أوديناردد" و "دينين" و "كوبيك" و "فلوروس" و "ريفولى" و "اوسترانز" و "جينا" و "فيكسبورج" و "كونيجراتس" و "سيدان" .

واذا جمعنا بين الفحص الاستراتيجى والفحص التكتيكى نجد أن معظم الأمثلة واحدة من إحدى فئتين . إما أنها حصلت من إستراتيجية دفاع مرن — التقهقر المقصود — أعقبه هجوم تكتيكى ، و إما من استراتيجية هجوم (أى تعرضية) يرمى بها الهاجم الى وضع نفسه فى موقع "محير" للعدو يعقبه دفاع تكتيكى . فكل من هاتين الصورتين المشتركتين تكون اقترابا غير مباشر . والأساس الذى تقوم عليه كل منهما من الوجهة النفسية (نسبة الى علم النفس البشرية) يصح التعبير عنه بكلمة واحدة هى "الخدعة" وفى الحقيقة يصح القول بمعنى أعمق وأوسع من المعنى الذى أراده "كلاوزيفتز" إن الدفاع هو أقوى صورة للاستراتيجية وأكثرها اقتصادا ، لأن التركيب المبين بالفئة الثانية وان كان عبارة عن حركة تعرضية فى ظاهرها قائمة على الحساب اللوجستيكى (الحساب اللوجستيكى هو العلم الذى يبحث فى تحركات الجنود وتموينها) إلا أن الحافز اليها هو جر العدو الى هجوم "مختل التوازن" .

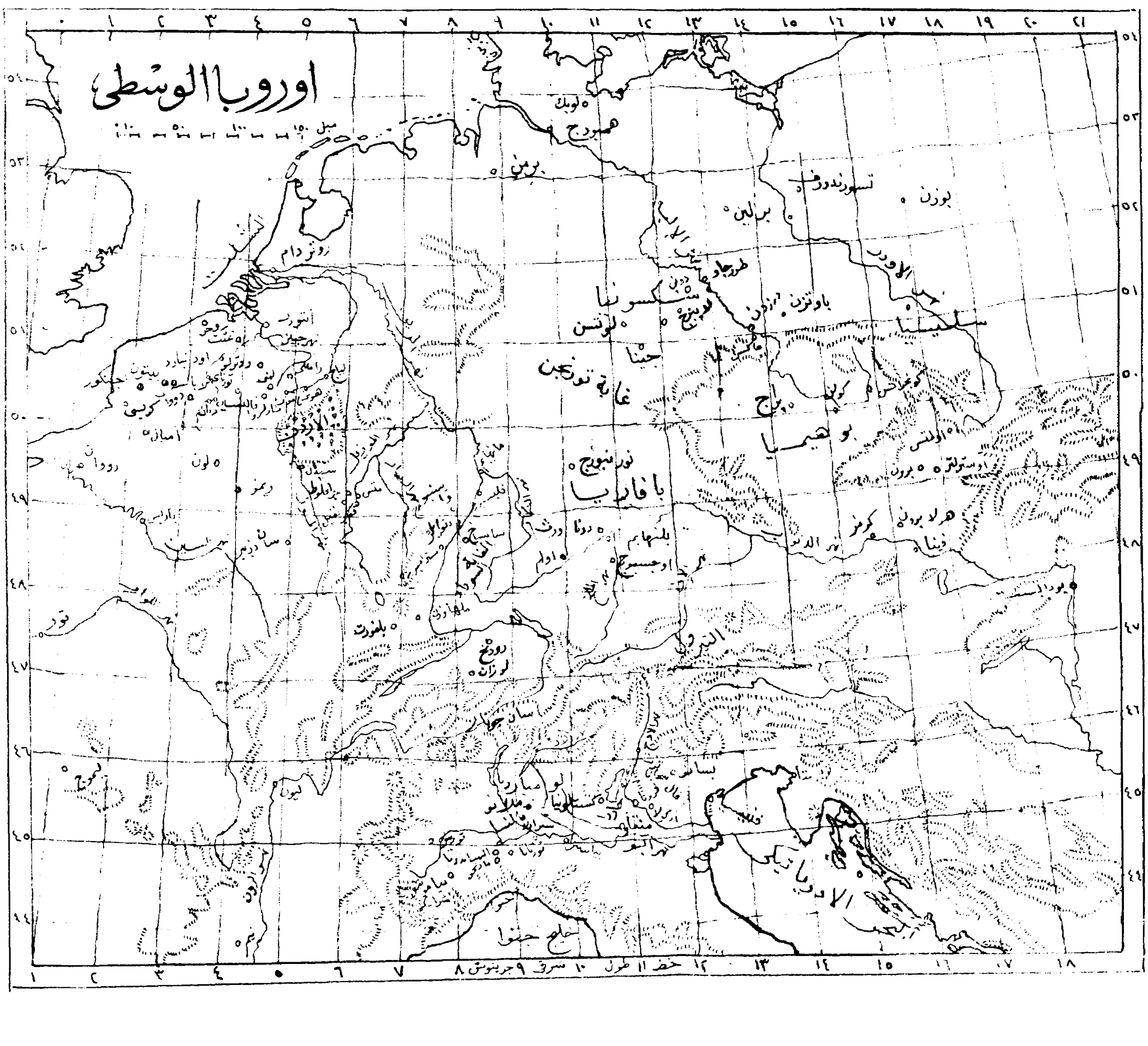
اوروبا الوسطى
بافاريا
بوهيميا

والاقتراب غير المباشر الوارد فى التاريخ كان يشتمل عادة على حركة عسكرية قائمة على الحساب اللوجستيكى موجهة الى هدف اقتصادى — هو المورد الذى تستمد منه أى البلادين أو الجيشين المتحاربين مؤنه — وكان يحصل أحيانا أن تكون الحركة ذاتها اقتصادية .

وهناك استنتاج آخر من مطالعاتنا ربما لم يكن إيجابيا ولكنه بالقرينة على أقل تقدير ، هو أن مما يعود بثمرة أكثر فى الحملة الحربية الموجهة ضد أكثر من بلاد واحدة أو جيش واحد أن يحصل الاحتشاد أولا ضد الشريك الأضعف بدلا من محاولة قهر الشريك الأقوى اعتقادا بأن هزيمة الأقوى يترتب عليها انهيار الآخرين من تلقاء أنفسهم .

ففى النضالين البارزين فى العالم القديم — تغلب الاسكندر على الفرس وتغلب "سيبو" على "قرطاجه" — وتم كل منهما على أثر قطع الجذور . وهذه الاستراتيجية العظمى المؤسسة على الاقتراب غير المباشر لم تقتصر على إيجاد امبراطوريتى "مقدونيا" و "روما" من العدم بل انها خلفت أعظم خلف لها وهى الامبراطورية البريطانية وعليها تأسس حظ نابليون بونابارت وقوته الامبراطورية . ثم حصل بعد ذلك أن قام على هذا الأساس ذلك البناء العظيم الثابت الدعائم وهو الولايات المتحدة . أما فن الاقتراب غير المباشر فلا يمكن الإلمام به إلماما تاما ولا تقدير غايته تقديرا تاما إلا بالدراسة الشاملة لكل تاريخ الحرب وامعان النظر فيه ، غير أننا نستطيع على الأقل أن نحول هذه الدروس الى صورة مجسمة ونضعها فى كلمتين إحداهما سلبية والأخرى ايجابية .

الأولى هى أنه أمام أدلة التاريخ التى لا تنقض لا يوجد مبرر يبرر القائد فى دفع جنوده الى هجوم مباشر على عدو ثابت فى موقعه . والثانى أنه بدلا عن السعى الى قلب موازنة العدو رأسا على عقب بواسطة الهجوم ، يجب قلبها قبل الشروع فى الهجوم الحقيق ، أو قبل أن يستطاع الشروع فيه بنجاح .

ولقد لاحت الحقيقة الأساسية أمام بصيرة "لنين" حين قال "الاستراتيجية التى هى أكثر سدادا فى الحرب هى إرجاء العمليات الى أن يحل الانحلال الأدبى بالعدو فيجعل انزال الضربة القاضية عليه أمرا ممكنا وسهلا" . وذلك لا يتيسر دائما ، وطريقة دعايته لا تثمر فى كل الأحيان ولكن هذا القول يقبل التعديل الى هذه الصورة :

"أسد استراتيجية فى أية حملة حربية هى ارجاء المعركة ، وأسد تكتيك هو ارجاء الهجوم الى أن تتزحزح قوة العدو الأدبية فتجعل انزال الضربة الحاسمة أمرا ممكنا" .

الباب العاشر

البناء

بعد أن استنتجنا من تحليل التاريخ ما استنتجناه يلوح لنا أن من المفيد أن نقيم على الأسس الجديدة مسكنا للتفكير الاستراتيجى .

ولنبدأ أولا بفهم معنى الاستراتيجية فهما لا يشوبه غموض ولا ابهام . فقد عرفها "كلاوزيفتز" فى كتابه الأثرى المسمى "عن الحرب" بأنها "فن استخدام المعارك كوسيلة للحصول على الغرض المطلوب من الحرب . وبعبارة أخرى الاستراتيجية عبارة عن الخطة الموضوعة للحرب . فهى ترسم المجرى المنوى اتخاذه للحملات الحربية المختلفة التى تتكون منها الحرب ، وتنظم المعارك التى تقع فى كل منها " .

فمن عيوب هذا التعريف أنه يتعدى على دائرة السياسة ، أى الادارة العليا للحرب التى يجب أن تسأل عنها الحكومة بحكم الضرورة ، لا القادة العسكريون الذين تستخدمهم الحكومة ليكونوا عمالا أو أعوانا لها يقومون بالسيطرة التنفيذية على العمليات . وعيب آخر هو أنه يضيق معنى "الاستراتيجية" ويحصره فى مجرد استخدام المعركة فتتولد من ذلك فكرة أن المعركة هى الوسيلة الوحيدة للغاية الاستراتيجية . فكانت هذه خطوة سهلة خطاها أتباعه الذين كانوا أقل تعمقا فخلطوا بين الوسيلة والغاية ووصلوا الى نتيجة هى أن فى الحرب يجب أن يكون كل اعتبار آخر خاضعا للقصد الذى هو خوض غمار معركة حاسمة .

علاقتها بالسياسة — ان ازالة التمييز بين الاستراتيجية والسياسة لا تحدث فرقا كبيرا اذا كان كل من الوظيفتين منوطا بشخص واحد باشتراكهما معا كما هى الحال مع "فردريك" أو "نابليون" . ولكن بما أن وجود حكام عسكريين أو توقراطيين (مطلق التصرف) من أمثالهما كان دائما من الأشياء النادرة ، وأصبحوا لا وجود لهم فى القرن التاسع عشر فقد كان تأثير الجمع بين الاستراتيجية والسياسة خادعا ومضرا . لأنه شجع رجال الجندية على ذلك الزعم الباطل من أن السياسة يجب أن تكون فى خدمة ادارتهم للعمليات . وخصوصا فى البلاد الديموقراطية فان هذا الزعم جر رجال السياسة الى تخطى حدود دائرتهم تلك الحدود التى لا قيد لها وتدخلهم فى أعمال موظفهم العسكرى وهو يستخدم آلته فعلا .

أما "مولتكه" فانه توصل الى تعريف أكثر وضوحا وحكمة فى تعبيره عن الاستراتيجية بأنها " التوفيق الفعلى بين الوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد ، واحراز الغرض المطلوب" . فهذا التعريف يضع مسئولية القائد العسكرى أمام الحكومة التى تستخدمه . وهذه المسئولية تنطوى على بذل القوة المخصصة له فى حدود مسرح العمليات المعين له بذلا تراعى فيه مصالح

السياسة الحربية العليا بأقصى درجات الربح. فاذا عنّ له أن القوة المخصصة له لاتكفى للقيام بالنصيب المحدد فله الحق أن يبين ذلك. واذا رفض رأيه ففى استطاعته أن يمتنع أو أن يستقيل من القيادة . ولكنه يتجاوز حدود دائرته المشروعة اذا هو حاول أن يملى على الحكومة مقدار القوة التى توضع تحت تصرفه .

ومن جهة أخرى يحق للحكومة التى ترسم سياسة الحرب وتوفق بينها و بين الظروف التى كثيرا مايطرأ عليها التغير أثناء الحرب، أن تتدخل فى استراتيجية الحملة ليس فقط باستبدال قائد فقدت ثقتها فيه بغيره، بل بتعديل الغرض الموضوع له بناء على ماتحتاج اليه سياستها الحربية . ومع أنه لا ينبغى لها أن تتدخل فى كيفية معالجته لآلاته واستخدامه اياها، يجب عليها أن تبين له نوع العمل المطلوب منه بيانا لا غموض فيه . وعلى ذلك فليس لزاما أن يكون غرض الاستراتيجية هو مجرد السعى لقهر قوة العدو العسكرية . واذا رأت الحكومة أن العدو يملك التفوق العسكرى بوجه عام أو فى مسرح خاص فقد يكون من الحكمة أن تأمر باتباع استراتيجية محدودة الغاية والقصد . ثم انها قد ترغب أن تنتظر حتى يتغير ميزان القوة بتدخل حلفاء لها أو بانتقال قوات من مسرح آخر. كما أنها قد ترغب الانتظار بل وأن تحدد مجهوداتها الحربية موقتا بينما تقوم الأعمال الاقتصادية أو البحرية بالفصل فى الحالة . وقد ترى أن التغلب على قوة العدو العسكرية عمل خارج عن طاقتها تماما ، أو أنه لا يستحق بذل المجهود، وأن الغرض المقصود من سياستها الحربية يمكن ضمانه بالاستيلاء على أراض تستطيع الاحتفاظ بها أو استخدامها فى المساومة فى مفاوضات الصلح. ومثل هذه السياسة لها تعضيد من التاريخ أكثر مما اعترفت به الآراء العسكرية حتى الآن. وهى بطبيعتها سياسة أقل ضعفا مما يصوره مروجوها. فهى فى الحقيقة مرتبطة بتاريخ الامبراطورية البريطانية وقد برهنت مرارا على كونها مرساة النجاة لحلفاء بريطانيا ، ومغنما دائما لنفسها . ومهما كانت هذه السياسة العسكرية متبعة دون ادراك ومعرفة فان هناك أسبابا تدعو الى التساؤل عما اذا كانت لا تستحق أن يؤبه لها فى نظرية ادارة الحرب .

على أن السبب الداعى عادة لانتهاج استراتيجية محدودة الغاية، أكثر من غيره من الأسباب هو انتظار حصول تغيير فى ميزان القوة . وهو تغيير كثيرا ما يطلب و يحرز بانهاك قوة العدو واضعافه بالوخز بدلا من المجازفة بالضربات. والشرط الجوهرى لمثل هذه الاستراتيجية هو أن يقع الانهاك على العدو بمقدار أعظم بما لا يقاس مما يصيب الانسان (أى الواخز) . وهذا الغرض قد يمكن تحقيقه بالسطو والاغارة على مؤنه ، أو بهجمات محلية تبيد أجزاء من قوته أو تنزل بها خسائر تزيد عن نسبة ما يصيبنا بمقدار عظيم، أو باغرائه على القيام بهجمات لا فائدة له منها ، أو باستدراجه الى تشتيت قوته فى مسافات واسعة ، أو بما لا يقل أهمية عن ذلك وهو انهاك قوته المعنوية ونشاطه الجثمانى .

والتعريف الأضيق يلقى ضوءا على المسألة التى سبق التساؤل عنها وهى مسألة استقلال القائد بتنفيذ استراتيجيته الخاصة فى حدود مسرح عملياته . لأنه اذا استقر رأى الحكومة على انتهاج سياسة حربية "فابية" (نسبة الى فابيوس وهى تنطوى على التفادى من المعارك) فان القائد الذى يسعى لأن يقهر قوة العدو العسكرية ، ولو فى حدود دائرته الاستراتيجية قد يضر السياسة الحربية التى انتهجتها الحكومة أكثر مما ينفعها . فالمعتاد أن السياسة الحربية المحدودة الغاية تحتم انتهاج استراتيجية محدودة الغاية أيضا . ولا تنتهج الغاية الحاسمة الا بترخيص الحكومة فهى وحدها التى تستطيع أن تبت فيما اذا كان الأمر يستحق ذلك .

فالآن نستطيع أن نعطى أفكارنا شكلا مجسما فنضع تعريفا للاستراتيجية أقصر مما سبق ذكره وأبسط وربما كان أدق فنقول : "هى توزيع الوسائل الحربية ونقلها الى حيث تؤدى غايات السياسة" لأن الاستراتيجية لا تقتصر مهمتها على تحريك الجيش — وهو الدور الذى يحدد لها فى أغلب الأحوال — بل تشمل أيضا ما تحدثه من الأثر . وحينما ينصرف تطبيق الآلة العسكرية الى القتال فعلا فان الأوضاع التى تتخذ لمثل هذا العمل المباشر والسيطرة عليه يسميان "تكتيكات" . فان الفئتين أى الحالتين وان كانتا يلائمان البحث والمناقشة ، لا يمكن فصل احداهما عن الأخرى فى الحقيقة لأن كلا منهما لا تؤثر على الأخرى فحسب بل تندمج فيها .

وكما أن التكتيك هو تطبيق الاستراتيجية فى مستوى أدنى فكذلك الاستراتيجية هى تطبيق "الاستراتيجية العظمى" فى مستوى أدنى . وهذا الاسم الاصطلاحى "الاستراتيجية العظمى" وان كان فى الواقع مرادفا للسياسة التى يتقيد بها سير الحرب ، تمييزا لها عن السياسة المستديمة التى تحدد الغرض المطلوب منها ، فهو يبين المعنى المقصود من "سياسة التنفيذ" لأن مهمة الاستراتيجية العظمى هى وضع كل موارد الأمة على قدم المساواة ، أى التوفيق بينها كلها وتوجيهها نحو احراز الغرض السياسى من الحرب — أى الهدف النهائى الذى تحدده السياسة القومية . والاستراتيجية العظمى من واجباتها أن تحسب موارد الأمة الاقتصادية وقوة رجالها وتقدرهما وترقيهما لكى تمول الجنود المقاتلة وتكفل بقاءها . وتفعل ذلك أيضا بالموارد الأدبية لأن تربية قوة ارادة الربح والجلد وانعاشهما وحمايتهما لها من الأهمية ما لامتلاك الصور الأخرى للقوة المادية المجسمة . وعليها أن تنظم توزيع القوة بين أفرع الخدمة المتعددة . وبين هذه الأفرع والصناعة . وليس ذلك كل ما عليها لأن القوة المقاتلة ان هى الا احدى آلات الاستراتيجية العظمى . ويجب عليها أن تحسب حساب قوة الضغط المالى ، والضغط الدبلوماتيكى ، والضغط التجارى وتستعملها . وكذلك ، ما لا يقل عن هذه القوى ، وهو الضغط الأدبى لاضعاف ارادة العدو . فان القضية الطيبة هى فى ذاتها سيف ودرع . وزيادة على ذلك فبينما أن الذى يحد أفق الاستراتيجية هو الحرب ، فان الاستراتيجية العظمى تلقى نظرها الى ما وراء

الحرب وهو الصلح الذى يعقبه. والذى يجب عليها ليس فقط اشراك الآلات المتنوعة بل تنظيم استخدامها على وجه تجتنب معه الاضرار بحالة السلم المستقبلة و بقائه مكفولا فى رخاء. فلا عجب اذا كان القسم الأعظم من مملكة الاستراتيجية العظمى "بلادا مجهولة" خلافا للاستراتيجية .

الاستراتيجية البحت — بعد أن مهدنا السبيل وأزلنا كل غموض صار فى امكاننا أن نبنى فكرتنا عن الاستراتيجية على أساسها الأصلى الحقيق — وهى أنها "فن القائد" . ونجاحها يتوقف أولا وفوق كل شىء على صحة حساب الغاية المطلوبة والوسائل الموجودة والتوفيق بينهما و يجب أن تكون الغاية متناسبة مع مجموع الوسائل، وأن تكون الوسائل المستخدمة لاحراز كل غاية متوسطة من الغايات التى تمهد لاحراز الغاية النهائية ، متناسبة مع ما لهذه الغاية المتوسطة من القيمة وما تحتاج اليه، سواء كانت احراز غرض أو انجاز تمهيد. فان التجاوز (أى الزيادة) قد يكون مضرا نفس الضرر الذى يحدثه النقص. والتعديل الحقيق بين الغاية والوسيلة يؤدى الى الاقتصاد فى القوة بأصح معنى لهذا الاصطلاح العسكرى الذى كثيرا ما أصابه التشويه. ولكن نظرا لطبيعة الحرب وما يحيط بها من الغموض وهو غموض يزداد جسامة بعدم دراستها دراسة علمية ، فان التعديل الحقيق فوق مقدور الأشخاص حتى ذوى العبقرية العسكرية. أما النجاح فيحصل بالاقتراب من الحقيقة ما أمكن .

ووجود هذه العلاقة على هـذه الصورة سببه أن معلوماتنا عن علم الحرب ، العلم الذى يكاد يكون فى الوقت الحاضر من الأشياء التى لم يتناولها الاكتشاف ، مهما اتسعت فانه علم يتوقف تطبيقه على الفن . والفن ليس فى مقدوره أن يقرب بين الغاية والوسائل فحسب ، بل انه يرفعه قيمة الوسائل يمكن من ازدياد الغاية واتساعها . وهـذا يربك الحساب و يعقده لأنه ليس فى مقدور البشر حساب مقدرة العبقرية البشرية ، وعجز البلادة ، ولا عجز الارادة حسابا قرين الدقة .

العناصر والظروف — ومع ذلك فان الحساب فى الاستراتيجية أكثر بساطة منه فى التكتيك وفى الامكان أن يكون أقرب للحقيقة عما فى التكتيك. لان فى الحروب ، العامل الرئيسى الذى لا يمكن حسابه هو الارادة البشرية التى تتمثل فى المقاومة. والمقاومة هى فى دائرة التكتيك. أما الاستراتيجية فليس عليها أن تتغلب على مقاومة الا المقاومة الآتية من جهة الطبيعة. والقصد منها انقاص احتمال حصول المقاومة وهى تسعى لأداء هذا الغرض باستغلال عنصرى، "الحركة" و "المفاجأة" . أما الحركة فهى فى دائرة الطبيعيات وتتوقف على حساب ظروف الزمان ، والطبوغرافية ، والمقدرة على النقل . وعبارة المقدرة على النقل يقصـد بها كل من الوسائل ، والمقدار ، اللذين يستطاع بهما نقل قوة وإعاشتها .

وأما المفاجأة فهى فى دائرة النفسيات (علم النفس) وتتوقف على حساب أصعب بكثير مما فى دائرة الطبيعيات (الجثمانية) ، يختص بالظروف المتعددة التى تختلف فى كل حالة عنها فى الأخرى ، التى يحتمل أن تؤثر على ارادة العدو .

ولو أن الاستراتيجية قد ترمى الى استغلال الحركة أكثر مما ترمى الى استغلال المفاجأة او العكس بالعكس فان لكل من هذين العنصرين رد فعل على الآخر . فالحركة تولد المفاجأة . كما أن المفاجأة تعطى الحركة الحافز الذى يدفعها . لأن الحركة التى تزداد سرعتها أو التى تغير اتجاهها تحمل فى نفسها درجة فى المفاجأة لابد منها حتى لو كانت غير مختفية . فى حين أن المفاجأة تمهد طريق الحركة باعاقتها التدابير المقابلة التى يتخذها العدو وحركاته المقابلة .

أما فيما يختص بعلاقة الاستراتيجية بالتكتيك أثناء التنفيذ فان الحد الفاصل بينهما كثيرا ما يبقى غامضا ومن الصعب التحديد بالدقة أين تنتهى الحركة الاستراتيجية وتبتدئ الحركة التكتيكية ومع ذلك فان كلا منهما يمتاز عن الآخر نظريا . فالتكتيك يقع فى دائرة القتال و يملأها . أما الاستراتيجية فانها لا تقف عند الحد فحسب ، بل ان من أغراضها انقاص القتال الى أقل قدر ممكن .

مرمى الاستراتيجية — هذا القول سيجادل فيه الذين من رأيهم أن ابادة قوة العدو المسلحة هى الغاية الوحيدة السديدة فى الحرب . الذين يقولون ان هدف الاستراتيجية الوحيد هو المعركة والذين ملك عليهم مشاعرهم قول " كلاوز يفتز " ان « الدم ثمن النصر » . ومع كل فاذا سلم الانسان بذلك وقابل القائلين به فى جدلهم ، فان القول لا يتزعزع ولا يجرح . لانه حتى اذا كانت المعركة الحاسمة هى الهدف الوحيد فان الجميع يعترفون بأن غرض الاستراتيجية . هو تهيئة المعركة فى أكثر الظروف ملاءمة لها . وكلما كانت الظروف ملائمة قل القتال نسبيا .

وبناء على ذلك فان ابلاغ الاستراتيجية حد الكمال يكون بالحصول على حسم — ابادة قوات العدو المسلحة عن طريق نزع أسلحتها بالتسليم — من غير قتال . وفى التاريخ أمثلة شاهدنا فيها أن الاستراتيجية حينما ساعدتها ظروف ملائمة أحدثت مثل هذه النتيجة .

وفى العادة فان الرأى متروك للحكومة المسئولة عن الاستراتيجية العظمى فى الحرب ، فى البت فيما اذا كان واجب الاستراتيجية أن تقوم بنصيبها باحراز حسم عسكرى أو بغيره . وكما أن القوة العسكرية ليست سوى احدى وسائل غاية الاستراتيجية العظمى — احدى الآلات الموجودة بصندوق الجراح — فكذلك المعركة ليست الا وسيلة من وسائل الغاية الاستراتيجية . فاذا كانت الظروف ملائمة كانت هى أسرع تأثيرا عادة . ولكن اذا كانت الظروف ليست ملائمة فمن الحماقة استخدام المعركة . ولنفرض أن أحد الاستراتيجيين فوض فى السعى للحصول

على حسم عسكرى . فان مسئوليته تقضى بالسعى للحصول عليه فى أكثر الظروف ملاءمة لكى يحصل على النتيجة التى تكون أكثر مغنما. ومن ثم فان هدفه الحقيق ليس السعى للحصول على معركة بقدر ما هو السعى للحصول على موقف استراتيجى ملائم لدرجة أنه اذا لم يحدث الحسم هو بذاته فان استمراره بنشوب معركة يضمن حصول الحسم . و بعبارة أخرى فان الزحزحة هى هدف الاستراتيجية والذى يعقبها هو إما انحلال العدو وإما تشتيته فى معركة . والانحلال قد يتطلب مقدارا من القتال ولكنه لا يكون معركة بالمعنى الصحيح .

عمل الاستراتيجية — كيف تحصل الزحزحة الاستراتيجية؟ فى دائرة الطبيعيات الجثمانية «اللوجستيكية» تنتج الزحزحة عن حركة : (ا) تقلب أوضاع العدو رأسا على عقب فتضطره الى « تغيير جبهته » بغتة ، وتزحزح توزيعاته وتنظيم قواته. (ب) تفصل قواته عن بعضها البعض. (ج) تجعل مؤنه فى خطر. (د) تهدد الطريق أو الطرق التى يستطيع سلوكها فى رجعته حين الحاجة ليستقر مرة أخرى فى قاعدته أو فى بلاده . فالزحزحة قد تحصل بتأثير احدى هذه الحالات ولكنها فى الغالب تنتج عن عدة منها . والتمييز بين احداها والأخرى أمر صعب فى الحقيقة لأن الحركة الموجهة الى مؤخرة العدو من شأنها أن تحدث تأثير هذه الحالات كلها . أما التأثير الناشئ عن كل حالة منها فانه يختلف ، وقد اختلف فى كل عصور التاريخ ، باختلاف جموم الجيوش وتعقد تنظيمها . ففى الجيوش التى « تعيش من البلاد » وتستمد مؤنها محليا بالسلب أو بالمصادرة يعد خط المواصلات شيئا لا أهمية له . وحتى فى مراحل التطور التى هى أرقى مما فى هذه الجيوش تكون القوة الصغيرة أقل اعتمادا على خط المواصلات وفى استطاعتها نقل المؤن معها لمدد محدودة . وكلما كبر حجم الجيش وازداد تنظيمه تعقيدا كان تهديد خط مواصلاته ذا أثر أسرع مفعولا وأعظم جسامة .

أما الحالات التى تكون فيها الجيوش غير معتمدة على المواصلات فان الاستراتيجية تجد أمامها عراقيل بنسبة عدم الاعتماد (اعتماد الجيوش على المواصلات) وتلعب النتيجة التكتيكية للمعركة دورا أعظم . ومع ذلك فحتى مع قيام العراقيل أمام الاستراتيجية فان الاستراتيجيين الفنيين كثيرا ما غنموا مزايا حاسمة قبل نشوب المعركة بتهديدهم لخط رجعة العدو ، أو توازن أوضاعه ، أو مؤنه المحلية .

ولكى يكون مثل هذا التهديد مؤثرا يجب استخدامه فى نقطة أقرب من جيش العدو ، من حيث الزمان والمكان ، مما فى حالة تهديد مواصلاته . ولذا ففى أوائل الحرب كثيرا ما يصعب التمييز بين المناورة الاستراتيجية والمناورة التكتيكية .

أما فى دائرة النفسيات (نسبة الى علم النفس) فان الزحزحة هى نتيجة ما انطبع فى ذهن القائد من الأثر المادى الذى أحدثته الحالات السالف بيانها . وهذا التأثير يتضاعف مفعوله متى أدرك القائد على حين بغتة أنه فى موقف غير مرض . واذا شعر بعجزه عن مقابلة حركات

العدو بما يعاكسها . فالزحزحة المعنوية (النفسية) أصل منشأها فى الواقع هو شعور القائد بأنه واقع فى شرك . وهذا هو السبب فى حصولها كثيرا على أثر الحركة المادية (الجثمانية) التى توجه الى مؤخرة العدو . فان الجيش ، كالرجل ، لايستطيع أن يدفع ضربة عن ظهره على الوجه الصحيح قبل أن ينقلب ويدور الى الوراء ليستعمل أسلحته فى الاتجاه الجديد . « والانقلاب » يفقد الجيش موازنته موقتا كما يفعل بالرجل . والوقت الذى يبقى فيه الجيش مختل التوازن أثناء انقلابه أطول بكثير من الوقت الذى يبقى فيه الرجل كذلك بحكم الضرورة . وينتج من ذلك أن تزداد حساسية العقل لأى تهديد يوجه الى الظهر عن حساسيته لأى تهديد يوجه الى جهة أخرى . وبالعكس فان التحرك نحو الخصم مباشرة يوطد توازنه من الوجهتين المادية والمعنوية . وفى توطيدها تعزيز لقوة مقاومته . لأنه اذا كان الخصم جيشا فان الحركة المباشرة تصده الى الوراء نحو جنوده الاحتياطية ، ومؤنه ، وامداداته حتى اذا ضعفت جبهته الأصلية وصارت رقيقة تواجدت وراءها طبقات جديدة . وغاية ما يمكن ايقاعه به هو ضغط لا صدمة .

وعلى ذلك فالحركة التى تجرى حول جبهة العدو وتوجه الى مؤخرته تشمل فى ذاتها غاية هى ليست فقط التفادى من لقاء المقاومة فى طريقها ، بل التفادى من نتيجتها . وبالمعنى الأكثر تعمقا تتخذ الخط الذى يلاقى أقل درجات المقاومة . ويعادل هذا الخط فى دائرة المعنويات (النفسيات) الخط الذى يكون فيه الانتظار أقل من غيره . فهما بمثابة وجهى قطعة واحدة من النقد (المسكوكات) . وادراك ذلك على حقيقته يوسع مداركنا الاستراتيجية . لاننا اذا اقتصرنا على اتخاذ الخط الذى يظهر انه خط أقل درجات المقاومة فان ظهوره كذلك يستجلب نظر العدو أيضا فلا يبقى بعده أقل خطوط المقاومة . ففى دراستنا للوجه المادى يجب ألا يغيب عنا الوجه المعنوى مطلقا . ولا تكون الاستراتيجية قائمة على الاقتراب غير المباشر حقيقة ومؤدية الى زحزحة توازن الخصم الا اذا اشترك الوجهان معا .

فنرى من ذلك أن مجرد السير نحو العدو بطريق غير مباشر ، والدنو من مؤخرة أوضاعه لا ينتج هو بذاته اقترابا استراتيجيا غير مباشر . فالفن الاستراتيجى لم يبلغ من البساطة هذا الحد . ومثل هذا الاقتراب قد يكون فى مبدئه غير مباشر بالنسبة لجبهة العدو . على أن مجرد استقامة سيره نحو مؤخرة العدو قد يمكنه من تغيير أوضاعه وسرعان ما ينقلب الاقتراب الى اقتراب مباشر من جبهته الجديدة .

وخشية من المجازفة بتمكين العدو من تنفيذ تغيير جبهته فان من المعتاد ، اعتيادا تقضى به الضرورة ، ان تسبق الحركة المزحزحة حركة أو حركات ، قد تكون أحسن تسمية لها دالة على نوعها هى اسم « تشتيت » بمعناها اللفظى أى « التفرقة » . والقصد من هذا « التشتيت » هو حرمان العدو من حرية حركات . ويجب أن يكون فى الدائرتين المادية والمعنوية (النفسية) .

ففى الماديات يكون عمله جعل العدو ينشر قواته أو يحولها نحو غاية لا فائدة له منها حتى تصبح شاسعة الانتشار ومتورطة من جهة أخرى بدرجة تجعلها غير قادرة على التدخل فى حركة الانسان التى ينوى بها الحسم . أما فى دائرة المعنويات فيكون السعى للحصول على نفس هذا التأثير ، باستغلال ما يخشاه قائد جيش العدو ، وتضليله أى خدعته . ولقد أدرك ذلك " ستونوول " " جاكسون " حينما ضرب مثله الاستراتيجى المشهور حيث قال : « حير ، وأخدع ، ثم فاجئ » . لأن ايقاع العدو فى الحيرة وخديعته يوجدان « التشتيت » . ثم ان المفاجأة هى السبب الجوهرى فى « الزحزحة » . والذى يتولد عن « تشتيت » فكرة القائد هو تشتيت قواته الذى يقع على أثر تشتيت أفكاره . وضياع حريته فى العمل هو نتيجة ضياع حريته فى التفكير .

ثم ان تقدير الكيفية التى تنفذ بها المعنويات من خلال الماديات وتسودها ، تقديرا يقوم على التعمق فى التفكير ، له قيمة غير مباشرة لا تقدر ، لأنه يحذرنا من السفسطة التى لا طائل تحتها ، وهى محاولة تحليل النظريات الخاصة بالاستراتيجية تحليلا قائما على العمليات الحسابية . فان معالجتها من وجهة الكم كما لو كانت المسألة مجرد مسألة احتشاد قوة متفرقة فى مكان مختار ، لا تقل خطأ عن معالجتها من الوجهة الهندسية كما لو كانت مسألة خطوط وزوايا .

---

(٨)